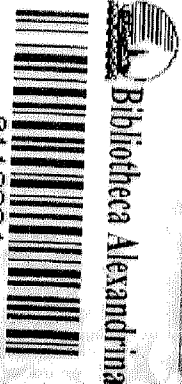


# أَنْبِيَاءُ اللَّهِ



فضيلة الشيخ الإمام

محمد متولى الشعراوى



0112924



Bibliotheca Alexandrina



رئيس مجلس الإدارة: إبراهيم سعد

مطبوعات مايو

الفكر العام

علوى عامر

دار مايو الوطنية للنشر

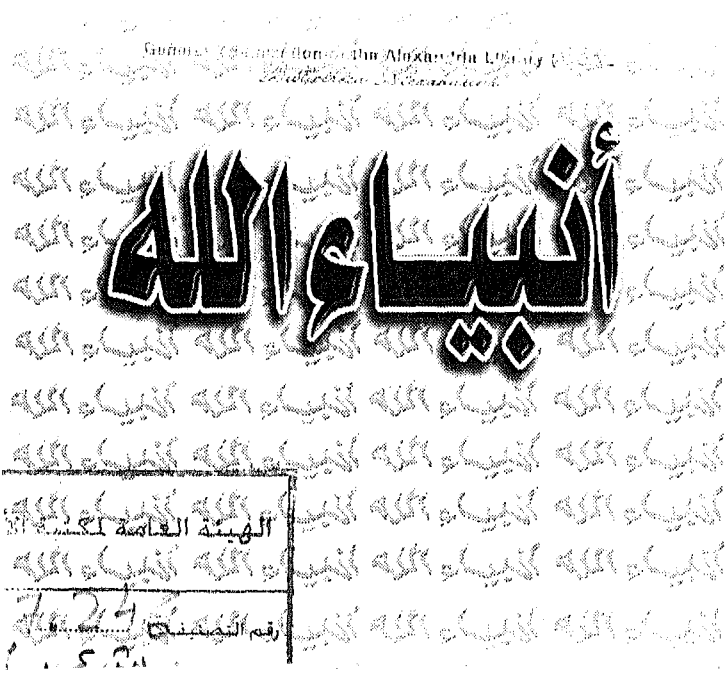
١٦ شارع المنتزة - الزمالك - القاهرة

ت: ٣٤٠٩٩٠٧ / ٣٤٠٩٩٠٩ / ٣٤٠٩٩٠٠

ص.ب. ١٢٥، الجيزة FAX: 3409046

تصميم الغلاف : اسامة احمد نجيب





فضيلة الشيخ الإمام

محمد متولى الشعراوى





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الله سبحانه وتعالى حتى يهدى الناس ويعرفهم المهمة التي خلقوا من أجلها كان لا بد أن يرسل إليهم رسلاً بالمنهج الذي يريده وبغير هذه الطريقة ، وبدون الرسل لم يكن من الممكن للعقل البشرى أن يهتدى إلى مرادات الله من خلقه فجاءت قصص القرآن الكريم لا تتناول أشخاصاً بذاتهم وإنما هي عبرة عامة وموعظة تتكرر ، ففرعون هو كل شخص يريد أن يجعل نفسه إلهاً يعبد في الأرض ، وذو القرنين مثلاً هو من يريد إصلاحاً في الأرض ، وصاحب الجنة في سورة الكهف هو كل من ينسى الله وينسب الفضل لنفسه لذلك فإنه من العبث أن يجهدوا أنفسهم في البحث عن فرعون موسى ، أو من هو ذو القرنين ذلك علم لا ينفع وجهلاً لا يضر ، فما الذي يتغير في قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا إن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثاني أو الثالث ، ليس هذا هو المهم ، ولكن المهم أن نعرف العظة مما يتعرض له أى إنسان ينصب نفسه إلهاً من دون الله في الأرض ، وما يتعرض له الذين يتبعون بغير علم ، فإننا يجب أن نستخلص العبرة والعظة من القرآن الكريم .

و حين يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ هود : ١٢٠ ] .

هذا القول إنما هو لإيضاح مهمة القصص في الحياة : أن يثبت بها الفؤاد على منطق ينفع حركة الحياة ، لا على منطق يضر حركة الحياة وتثبيت الفؤاد هو المهمة التي من أجلها جاءت بعض لقطات سور القرآن وهي تحتوى على ما يظنه السطحيون تكراراً لكنه ليس تكراراً ، إنما هو تثبيت للفؤاد ؛ ذلك أن

الفؤاد عرضة لأن يهتز بالأحداث فيأتي قصص القرآن لتثبيته ، لقد كانت الرسالة المحمدية تمر بمواقف عجيبة وصعبة ، وكان لا بد من استخدام قصص الأنبياء كلقطات متفرقة شاء الحق أن يضرب بها المثل ويوضح للمؤمنين أن طريق نشر الحق يحتاج إلى صبر وكفاح فكان الهدف شد أزر المؤمنين وإيضاح المعلومات التي كتّمها الذين عرفوا الكتب السماوية وأخفوا بعضًا منها وحرفوا فيها ؛ لذلك كانت الآيات الكريمة لتصحيح ما أفسد الآخرون ولتثبيت قلوب المؤمنين فإذا ما ذكر الله في القرآن الكريم أنباء الرسل والصعاب التي تعرضوا لها والأحداث التي مروا بها تهون عليهم مصائبهم ؛ ولذلك قال الله تعالى :

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [ هود : ١٢٠ ] .

والفؤاد هو القلب وهو وعاء العقائد ، فالفؤاد هو الوعاء القابل للمعلومات .

وفى قضايا الحق لا بد أن يكون الفؤاد ثابتًا لا يهتز ، إذن .. لا بد أن يأتي الحق قبل الموعدة .

والله سبحانه وتعالى هو الحق الثابت الذي لا يتغير فما جاء منه من تكليف فعليك تنفيذه لأنه صادر من الله وإذا أردنا أن نضرب مثلًا - والله المثل الأعلى - إنك إذا مرضت تبحت عن أمهر الأطباء في معالجة هذا المرض وبعد أن تستقر عليه وتثق به تنتهي مهمة عقلك فما قاله الطبيب تنفذه . فإذا سألك أحد : لماذا ؟ تقول : الطبيب قال ذلك . فيسكت الجميع ، فإذا كان ذلك يحدث بالنسبة لبشر فما بالك بالحق تبارك وتعالى !!

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَابْتَأ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [ آل عمران : ٦٢ ] .

إن قول الحق : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ يلفتنا أن ما يرويه الحق لنا ليس حكاية أو حدوته ، أو مزج خيال بواقع ، كما حدث في العصر الحديث

عندما أخذت كلمة القصة فى العرف الأدبى الحديث القادم من حضارة الغرب ، فالقصة فى مفهومهم يلعب فيه الخيال دوراً كبيراً لكن لو فهمنا اشتقاق كلمة « قصة » نجد أنها مأخوذة من قص الأثر أى تتبع الأثر ، والقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا تخيلات .

فقصص الأنبياء فى القرآن هى قصص واقعية لأنها من كلام الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يقوله الحق لخلقه ليسيروا على المنهج ، وبين ما يرويه الخلق لبعضهم للتسلية والتى تزدحم فى كثير من الأحيان بخيال البشر كروايات جورجى زيدان عن الإسلام ، ولو سئل لماذا أضاف من عنده إلى الوقائع ؟ أجاب بقوله : « فعلت ذلك من أجل الحكمة القصصية » وبذلك نعرف الفرق الشاسع بين قصص الخلق وقصص الحق .

قال جلّ وعلا : ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] . لماذا يقص الحق على رسوله أحسن القصص ؟ لأن رسول الله ﷺ سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل ، وكان لا بد أن يقول الحق سبحانه للرسول ﷺ ولأمته من خلاله .

لقد حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت داءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا ، ولأن الرسول محمد ﷺ موكول إليه علاج كل أجناس البشر ، وكذلك أمته من بعده لذلك كان لا بد أن يعرفوا أخبار الأمم السابقة ، وموقفهم من رسلهم .

إذن .. القصص القرآنى جاء ليوضح لنا التطبيق العملى للجانب النظرى من الدين ، وقد طبقه الرسل ومن تبعهم ، وأنتم يا أمة الإسلام خير أمة أخرجت

للناس ، لذلك عليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾  
ولسائل أن يسأل : ما الفرق بين الرسول والنبى : نقول : الأنبياء أرسلهم الله ليكونوا نموذجًا تطبيقيًا للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره سبحانه بتبليغه .  
إذن .. إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل سبحانه الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسلت به الرسل .



## نبي الله آدم عليه السلام

قصة آدم عليه السلام جاءت أول ما جاءت في سورة البقرة وهي ثاني سورة ترتيبية في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْثَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾ وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَتُكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١٣١﴾ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴿ [ البقرة ] .

إن اللقطات التي تروىها سورة البقرة عن آدم عليه السلام تتحدث عنه

بما يلي :

○ أول بلاغ من الله عنه قبل أن يخلقه .

- الحوار الذى بين الملائكة وبين الله سبحانه وتعالى بشأن خلق الخليفة .
  - أن آدم هو خليفة عن الله فى الحكم بين خلقه فى الأرض .
  - أن الله علم آدم الأسماء كلها ليسوس حركة الحياة .
  - أن إبليس أبى واستكبر على السجود فكان من الكافرين .
  - أن آدم سكن الجنة للتدريب على مهمة الخلافة فى الأرض .
  - أن الشيطان توعد آدم وذريته بالانتقام منهم .
  - أن آدم بمعصيته خرج من الجنة وتلقى كلمات من ربه ليتوب عليه .
- وعلى ذلك فالإنسان عندما يريد أن يؤرخ لقصة آدم لا بد أن يستوعب كل تلك اللقطات واللقطات التى جاءت فى السور الأخرى .

ولنرى كيف جاءت اللقطات عن آدم عليه السلام فى سورة الأعراف : ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٨﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَاتَبْنَهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَّمِن يَمَعَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَكَدَامُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْفَاطِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٦﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢٧﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا





○ تحدد لقطات سورة الأعراف كيف خلق الله للإنسان من الوسائل ليوارى سوءاته ويحذرنا الخالق أن الشياطين هم أولياء الذين لا يؤمنون وأن التقوى هي لباس المؤمنين .

وهكذا نرى أن اللقطات التي جاءت في سورة « الأعراف » اختلفت عن لقطات سورة « البقرة » ، أضافت لنا معرفة أكثر بتفاصيل قصة آدم . وهكذا نجد أن التكرار يتضمن مغزى ومعنى وهدفاً .

وعندما تتأمل اللقطات التي تأتي في سورة « طه » عن خلق آدم نجدها توضح المزيد من سلوك آدم وذريته . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ ﴿١٣١﴾ فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٣٢﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٣٤﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٣٥﴾ إِنَّ لَكَ أَلًا يَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿١٣٦﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٣٧﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَالِدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْئَى ﴿١٣٨﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣٩﴾ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٤٠﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٤١﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٤٢﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٤٣﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا ﴿١٤٤﴾ وَكَذَلِكَ أَلِيَوْمَ نُنسِي ﴿١٤٥﴾ [ طه ] .



﴿٧٦﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَعُوذُ بِكَ لِأَتْرِكَنِي لَأَرْبَبَنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْأَعْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٨٨﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَغِيوِينَ ﴿٨٩﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلْمٍ ءَامِنِينَ ﴿٩٠﴾ [الحجر] .

وبهذا القول الكريم عن قصة خلق آدم تكتمل اللقطات وتخبرنا هذه الآيات :

- أن الإنسان خلق من حمأ مسنون بينما الشيطان خلق من نار السموم .
- أن الشيطان ملعون ورجيم إلى يوم الدين ، وأنه توعد آدم وذريته بالغواية ليكون مصيرهم باب من أبواب جهنم السبعة .
- أن عباد الله المخلصين لن يجرؤ الشيطان على غوايتهم ، وتقواهم تفتح لهم أبواب الجنة .
- أن إبليس بعدم سجوده يكون رد الأمر على الأمر سبحانه وذلك الكفر في قمته ، لذلك فهو إمام الغاوين .

إن آدم تُخلق بيد الله مباشرة ، وذريته خلقت بقانون الخلق ، وهو أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقاً لسنة الله في خلقه وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [ ص : ٧٢ ] .

إذن .. فالتسوية من عند الله والروح من عند الله ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ﴾ [ ص : ٧٥ ]

أى : أن آدم ليس مخلوقاً كغيره من البشر ولكنه مخلوق بيد الله مباشرة وكان أول تكليف له من الله فى الجنة التى عاش فيها . وهو أن يأكل من كل شىء ما عدا شجرة معينة أى أن المباح كثيراً جداً .

إذن .. فالتكليف : أمر بفعل ، ونهى عن فعل ، وبما أن آدم مخلوق بيد الله فهو مكلف تكليفاً مباشراً من الله ، وكان التكليف بأمر واحد فقط وليس بأشياء كثيرة حتى ينسى هذا ويتذكر هذا .

الله سبحانه وتعالى حين ينثر الأدلة على عظمة خلقه وحكمته فى الكون لا يعطيك الأدلة من خارج نفسك فقط ولكنه يعطيها لك أولاً من داخل نفسك حتى لو كنت معرضاً عن آيات الكون فإنك لا تعرض عما فى داخل نفسك ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

أى انظر إلى الآيات التى فى نفسك . فالروح هى التى تعطى الحياة للجسد ولا يستطيع أحد أن ينكر وجود الروح لأنها دليل الحياة فمتى خرجت جاء الموت وانتهت الحياة . ومع أنك تدرك يقيناً أن الروح فى جسدك فإنك لا تستطيع أن تدركها ... أين هى الروح ؟ هل هى فى العقل الذى يفكر ؟ هل هى فى الدم الذى يتدفق فى الشرايين ؟ أم هى فى القلب الذى يدق ؟ إنها داخل جسدك ولكنك لا تعرف عنها شيئاً .

إذا كان سر الحياة الذى وصفه الله سبحانه وتعالى داخل جسدك لا تدركه مع أنك تعرف يقيناً أنه موجود فلا تتعجب إذا كان هناك خلق خارج جسدك لا تدركه وإذا حدثك الله سبحانه وتعالى عن هذا الخلق فأمن أنه موجود والدليل من داخل نفسك والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

اللَّهُ سبحانه وتعالى أخبرنا بأننا خلقنا من آدم ، ونحن جميعاً ذرية آدم ،  
وآدم خلقه الله تعالى من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وقال للملائكة :  
﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴾ [ ص : ٧٢ ] هؤلاء  
الملائكة الذين شملهم أمر السجود هم المخصصون لخدمة آدم على الأرض  
منهم المدبرات أمرا ومنهم الحفظة وغيرهم ، الحق تبارك وتعالى أراهم الإنسان  
الذى سيكونون فى خدمته وعرفوا منزلته العالية عند الله ، والله جل جلاله  
خلق الإنسان من تراب ووضع عليه ماءً فصار طيناً ، ثم تركه فصار صلصالاً  
كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح .

هذه هى قصة خلق الإنسان الأول فإذا أراد الله سبحانه أن يهدم هذا  
الإنسان بالموت فأول ما ينقض منه هى الروح آخر ما دخل فى الجسم فتكون  
أول ما يخرج لأن نقض الشيء يكون على عكس بنائه . فأنت حين تبدأ  
بالبناء تبدأ بالدور الأول ثم تعلقو حتى تصل إلى الأخير . فإذا أردت أن تهدم  
هذا البناء تبدأ بالدور الأخير آخر ما وصلت اليه فى بنائك .

كذلك الموت وهو نقض للحياة فإن آخر ما دخل فى الجسد هو الروح  
لذلك تكون أول ما يخرج منه ، ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصبح كالفخار  
ثم يتعفن فيصبح كالحمأ المسنون ثم يُرم فيصير طيناً ثم يخرج منه الماء فيصير  
تراباً ليرجع إلى الأرض مرة أخرى . إذن فالموت دليل على مراحل الخلق التى  
أخبرنا بها الله سبحانه وتعالى ونحن لم نشهد الخلق ولكن نشهد الموت كل  
يوم فعندما أرى الموت أمامى عكس بناء الحياة أقول صدقت يا ربى فيما  
أخبرتتنا عن الخلق .



## خلق البشرية مع آدم

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۗ ﴾ [الأعراف : ١٧٢]

فكل واحد منا فيه جزيء من آدم ما زال حياً لم يصبه الفناء ولو أننا أعطينا العلم والخبرة ساعة خلق آدم وأخذنا من الحيوان المنوى الموجود فى ظهره ثم كبرناه ملايين المرات وعرفنا سر الشفرة فيه لأستطعنا أن نعرف كل من سيأتى من البشر بعد آدم وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١] .

معناه : أنه قدر خلق كل واحد فينا وتكوينه وأودعه فى هذه الحيوانات المنوية التى خلقت من ظهر آدم وكل عملية بعد ذلك هى تكبير لهذه الجزئيات الصغيرة حتى تصل إلى الحجم الذى يمكنها من إيجاد الحياة ولذلك فإن الخلق أمور الله يديها ولا يتديها بمعنى أنها كانت مطمورة فى ظهر آدم ثم بعد ذلك يبدأ الله يظهرها فقط . ولذلك عندما يخاطب الله آدم فهو يخاطب معه ذريته الموجودة فى ظهره . وهكذا نكون قد عرفنا لماذا استخدم الحق سبحانه صيغة الجمع فى قوله : ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ .



## تعليم آدم الأسماء

يقول الحق : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ البقرة ] .

البعض يتساءل هل تعلم آدم الأسماء فقط أم تعلم الأفعال والحروف أيضاً ؟ وللإجابة على ذلك نقول : إن آدم تعلم الأسماء لأن كل تعلم يبدأ من الإسم فكلمة الإسم تطلق على مضمون الفعل ومضمون الحرف . إن الإسم هو الموجود حتى على الحرف ، فالتعليم يبدأ بالنسبة للإنسان عن طريق معرفة مطابقة الكلمات على الأشياء أى أن التعليم فى كل اللغات يبدأ من تعلم الأسماء .

وهكذا كانت اللغة إعانة لآدم ولذريته من بعده ليستخدموا اللغة والمسميات ويتعرفوا على بديع صنع الله فى الكون .

إن اللغة التى علمها الله للإنسان هى التى جعلته يتحرك ويتقدم ويكتشف ، واللغة هى التى تجعل الوليد يحاكي أباه ويتعلم منه .

وهكذا نعرف أن المعلم الأول لآدم عليه السلام هو الخالق الأكرم .





## جنة آدم

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَبَعَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] كثير من العلماء وهم جمهور المفسرين قالوا : إن المقصود بالجنة هي جنة الخلد في الآخرة وهنا حدثت إعتراضات ، كيف يمكن أن يدخل إبليس جنة الطائعين لله وهو عاص ؟ وكيف يمكن أن يدخل جنة الخلود ثم يخرج منها ؟ مع أن الله قد كتب أن كل من يدخلها خالد فيها .

يجب أن نتنبه إلى أن الجنة التي عاش فيها آدم ليست هي جنة الخلد ، لأن الحياة في جنة الخلد لا تأتي إلا بعد التكليف فهي جزاء لإتباع منهج الله وليست سابقة على هذا المنهج كما أن جنة الآخرة هي جنة الخلد من يدخلها لا يخرج منها أبداً و آدم مخلوق للأرض ، إذن .. فالجنة التي عاش فيها آدم هي مكان أعده الله سبحانه وتعالى له ليتم تدريبه فيه على المنهج .



## التكليف

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ رمز لنواهى التكليف بألا نفعل . وذلك بألا نقرب مما حرمه الله فتميل النفس اليه وتقع فى الإغراء والمعصية . ويلاحظ فى قمة العقيدة أن الله سبحانه وتعالى يطالبنا ألا نقرب منها فيقول : ﴿ فَاجْتَنِبُوا رِيْضَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] ولم يقل لا تعبدوا الأوثان ، فلو قالها لكان مباحاً لنا أن نذهب إلى الأماكن التى تُعبد فيها الأصنام وأن نجلس فيها وربما أوقفنا هذا والعياذ بالله فى عبادة الأصنام ولذلك قال الحق : ﴿ فَاجْتَنِبُوا ﴾ أى إبتعدوا عنها تماماً .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . الظلم هو تجاوز الحد أو تجاوز الحق فكأن الله سبحانه وتعالى قال لآدم وزوجه : أنا لم أجعل لكما حقاً فى أن تقربا هذه الشجرة ، فإذا أقتربتما منها تكونان من الظالمين لأن الله لا يظلم أحداً . ولكن الإنسان هو الذى يظلم نفسه بأن يعطيها شهوة عاجلة فى زمن محدود ليصيبها بعد ذلك عذاب أليم فى زمن بلا حدود . وبذلك يكون الإنسان قد ظلم نفسه بحرمانها من نعيم خالد بتحقيق شهوة عاجلة .



## غواية الشيطان لآدم وزوجه

وقال الله تعالى : ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ كلمة : « وسوس » تدل على الهمس ، فالذى يتكلم ويأمر بخير لا يخشى أن يسمعه الناس . والذى يتكلم فى شر يتحدث فيه بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد .

والوسوسة : هى : رنين الذهب والحلى ، والإغراء هنا ملازم للوسوسة . لأن الله حين يأمر بشيء ثم يأتى إنسان ويحاول أن يجعلك تفعل ما لم يأمر به الله فلا بد أن تكون هناك إغراءات ، هذه الإغراءات لازمة ليخرج الناس عن منهج الله ، فكيف تم إغواء آدم ؟ وما هى طريقة الشيطان فى الغواية ؟ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [ الأعراف : ٢٠ ] .

إذن .. حاول الشيطان أن يأتى من الجانب الضعيف للإنسان ، فالإنسان يريد أن يخلد ويكره الموت .. يريد أن يحيا بلا نهاية ؛ ولذلك كان مدخل إبليس اللعين أن قال لهما - لآدم وحواء - : إذا أكلتما من هذه الشجرة ستصبحان ملكين خالدين .

ولأمر قدره الله تعالى دخلت الغفلة على قلبى آدم وحواء لأنه لو كان هذا صحيحاً لأكل الشيطان من الشجرة وأصبح خالداً ولم يقل لله : ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وكان مما خدع آدم وحواء أن أقسم بالله كذباً ، قال تعالى : ﴿ وَقَأَسْمَهُمَا إِنَّي لَكُمْ لَمِنَ الْغَابِطِينَ ﴾ .

فكان إبليس قد أقسم لآدم وحواء ليصدقاه . أى أن ما أقوله لكما هو نصح لخيركما وكان لا بد ألا تكون هناك غفلة من آدم فينخدع لهذا القسم لأن الله

أمره ألا يقرب هذه الشجرة فإذا جاء إبليس وأغراه بمخالفة أمر الله فلا يأخذ هذا على أنه نُصح لصالحه إنما يقارن بين الأمر هنا والذي يدعى النصيحة وحينئذ سيكتشف أن هذه ليست نصيحة ويكتشف أنها تزيين لمعصية .



## كفر إبليس

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ  
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن  
نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] . هذا القول دليل على أن أمر السجود  
يشمل إبليس . فجاء الرد من إبليس : كبراً ومعانده لأن الله هو الذى خلق ،  
وهو سبحانه وتعالى الذى يعرف من هو خير ممن . ولكن إبليس أراد أن يعدل  
الأمر على الله ويرد الأمر على الخالق بينما هو مخلوق فكأنه والعياذ بالله  
يخطيء سبحانه وتعالى فى أمره ويقول له كيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى .  
وكان لابد لإبليس أن يفهم أن النار ليست خيراً من الطين والطين ليس خيراً  
من النار وأن الذى يؤدي مهمته هو الأعلى .



## مكان جنة آدم

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَهْبِطْ مِنْهَا ﴾ الهبوط معناه : الانتقال من منزلة أعلى إلى منزلة أدنى . وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك بأن الجنة التي وجد فيها آدم وإبليس كانت في أعلى عليين ولكننا نقول : إن الهبوط لا يستدعى مكاناً أعلى ومكاناً أسفل فهناك فرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة . لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ [البقرة : ٦١] لم يكن بنو إسرائيل يعيشون في مكان ما في السماء بل كانوا فوق الأرض . فالهبوط هنا هبوط مكان ومكانة .



## توبة آدم

ماذا قال آدم وحواء حينما إعترفا أمام الله بأنهما ارتكبا المعصية وخالفا أوامر الله هل أصرا على المعصية ؟ هل حاولا أن يردا الأمر على الأمر ويقولوا يا ربنا حكمك ليس عدلاً كما فعل الشيطان ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ لم يفعلوا ذلك ولكنهما إعترفا بذنبيهما وطلبا المغفرة والرحمة من الله وقالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [ الأعراف : ٢٣ ] .

تلك هى الكلمات التى جاءت فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَقَّحْ أَدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [ البقرة : ٣٧ ] .

وهذه الكلمات هى اعتراف بالذنب ، واعتراف بأن الله حق وقوله حق ، وأنهما لم يستطيعا أن يحملا نفسيهما على إتباع المنهج فظلما نفسيهما ثم طلبا من الله المغفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين .

وهكذا تأبى إبليس على أوامر الله فكان جزاؤه الطرد من رحمة الله ، وآدم وحواء إعترفا بذنبيهما وأنهما ظلماً نفسيهما فتقبلت توبتهما ؛ لذلك فإننا ننبه الناس الذين تضطربهم ظروف حياتهم إلى اقرار بعض المعاصى بقول لهم : لا تحاولوا أن تبرروا المعصية برد الأمر على الله وأن تقولوا : تغيرت الظروف أو هذا هو النظام الآن أو أن الوقت غير الوقت .

فمثلاً .. الذين يقولون إن الربا ليس حراماً وأنه نظام عالمى وأن الدنيا كلها تتعامل به نقول لهم : لا تخرجوا أنفسكم من منطقة رحمة الله إلى منطقة الطرد من رحمته . قولوا : نحن نسلم يا رب أنه حرام ولكننا لا نقدر على

أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا ، وفي هذه الحالة تكون قد اتهمت نفسك بالضعف والغفلة والظلم ، وتصبح أهلاً للتوبة والمغفرة ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إن الربا ليس حراماً ، هنا تكون قد خرجت من منطقة الإيمان إلى منطقة الكفر ولذلك فخيرٌ للإنسان إذا ارتكب معصية ألا يدافع عنها وألا يدعى أنها حلال بل يعترف أنها حرام ولكن الظروف اضطرتة اليها وهو غير قادر على نفسه ويسارع إلى طلب المغفرة من الله تعالى ويندم على معصيته في هذه الحالة يقبل الله توبته .

يقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [ الشورى : ٢٥ ] .

إذن .. لا وجود لواسطة بين الله وبين البشر ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم . فخطأ آدم تم تصويبه أما الخطيئة التي يرتكبها أى كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها وما فعله آدم ليس خطيئة إنما خطأ أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدس بين الناس وإثارة الوقيعة بينهم فالعقاب عنها إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .





## مداخل الشيطان

مداخل الشيطان التي يدخل منها الشيطان للإنسان قد بينها الله لنا في القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لآيَاتِهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [ الأعراف : ١٧ ] .

وهذه الجهات الأربع هي مداخل الشيطان فقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : من أمامهم ، والشىء الذى أمامنا هو ما نحن سائرون إليه ، أى : الدار الآخرة ، فيأتى الشيطان ليشككنا فى الآخرة ويقول هل تصدقون أنكم ستبعثون أو انكم ستحاسبون وما دام الإنسان قد شك فى الآخرة فهو يطلق لشهواته العنان .

وقوله : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ فما يتركه الإنسان خلفه هو ذريته يأتى الشيطان ليخيفك على ذريتك ويقول لك : ستترك أولادك يضيعون ، اسرق وانهب وارتش وأرتكب كل ما حرمه الله لتترك لأولادك ما يحفظهم من الضياع ومعظم فساد الناس يأتى من هذه الناحية وتكون النتيجة أن تلقى الله عاصين وترتك المال الحرام لأولادنا فيفنى فى المعصية نعوذ بالله تعالى من الشيطان وحبائله .

أما قوله : ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ فاليمين رمز العمل الحسن والعمل الصالح ولذلك يأتى لهم عن أيانهم ليكرههم فى صالح الأعمال فى الكسب الحلال بالجد والعرق وفى الطاعات .

وقوله : ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى : يأتى لهم ليزين لهم طريق المعصية ويرغبهم فيها ،

وبعض الناس يتساءل : لماذا الأمام ، والخلف ، واليمين ، واليسار ؟! ولماذا ترك الشيطان ما فوق الرءوس وما تحت الأقدام ؟ ولقد سئل بعض الورعين عن هذا فقال لقد سمعنا أن الله قال : إن عبداً يرفع إلى يده بالدعاء ويسجد لى على الأرض فحق عليّ ألا أسلط عليه شيطاناً . فالمكان الأعلى هو مكان صعود الدعاء والمكان الأسفل هو مكان السجود وكلاهما لا يستطيع الشيطان أن يقترب منه .



## قربان إبنى آدم

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة] .

وهنا يثور تساؤل رده في هذه الآيات هل آدم رسول الله أم لا ؟ بعض الناس يقول : لا .. إن أول الرسل نوح عليه السلام . نقول لهم : وهل الله يترك خلقه من عهد آدم إلى عهد نوح بدون رسول ؟ وبدون منهج ؟ لماذا يبعث الله لخلقهم بعد نوح رسولا ؟ ولا يبعث لهم منذ عهد آدم إلى عهد نوح منهجا ورسولا ؟ وهو القائل جل جلاله : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] وذلك يعنى أنه ما دام هناك خلق فلا بد أن يكون هناك نذير .

إذن .. فولدا آدم عرفا منهج الله وكانا يقدمان له القرابين .. من أين عرفا هذا المنهج ؟ من آدم وعرفا كيف يتقربان إلى الله وكيف يتعدان عما يوجب عقابه .

من أين كان سيأتي هذا الكلام لو لم يكن هناك رسول مبلغ عن الله بأن هناك ثواباً وعقاباً ؟ ومن أين عرف ابنا آدم أن الله يتقبل من المتقين ويعاقب الظالمين إلا إذا كان هناك منهج من الله نقله آدم إلى أبنائه ؟!



## نبى الله إدرىس عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إدرىسَ إِتَمَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ٥٦١ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٦٢﴾ [ مريم ] .

إدرىس عليه السلام هو أول نبى بعد آدم عليه السلام ، وهو إدرىس ابن يرث ابن شيث بن آدم وجاء بعده من الأنبياء نوح ثم الخليل إبراهيم ومنه سلسلة النبوات بعد ذلك عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والصديق هو الذى يبالغ فى تصديق كل ما يجرى به الحق ، ويجعل الله له فرقاناً ، بحيث إذا سمع الحق يصدقه ، لأن الكلام إذا كان موافقاً للحق ومن الحق فلا يتصادم معه شيطان فى الدخول على العقل ، فالشيطان يدخل بين الناس ولكن الشىء الوارد من الحق سبحانه لا يستطيع الشيطان أن يدخل فيه . ومعنى ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ يقصد به مكاناً فى السماء ، أو رفعة معنوية ، أو حسية لأن الذى خلقه أخبرنا بذلك ، فأياك أن تسأل عن ماهية الرفعة لأن هذه الرفعة رفعة عند من رفعه سبحانه وتعالى (١) .

(١) وفى حديث أبى ذر الطويل الذى صححه ابن حبان أن إدرىس كان نبياً رسولاً وأنه أول من خط بالقلم . وحكى ابن الأزر عن وهب بن منبه ، أن إدرىس أول من أتخذ السلاح وجاهد فى سبيل الله وسبى ، ولبس الثياب وإنما كانوا يلبسون الجلود ، وأول من وضع الأوزان والكيول وأقام علم النجوم ، والله أعلم . .  
روى فى الصحيح أن النبى ﷺ مر به فى ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة : « ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بإدرىس وقد رفعه الله مكاناً علياً فسلمت عليه فسلم على » .

= وروى الإمام ابن جرير عن كعب أن الله تعالى أوحى إلى أدريس عليه السلام أنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع نبنى آدم فأحب أن يزداد عملاً ، فأتاه خليل له من الملائكة فقال له : إن الله أوحى إلى كذا وكذا فكلم لى ملك الموت فليؤخرنى حتى أزداد عملاً فحمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء فلما كان فى السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس فقال : وأين إدريس ؟

فقال : هو ذا على ظهرى .

قال ملك الموت : العجب بعثت لقبض روحه فى السماء الرابعة فجعلت أقول : كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول الله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

وإدريس هو الجيل الخامس من آدم وهو الذى قال عنه بعض العلماء إنه «أوزوريس» الذى تحدثت عنه الأساطير الفرعونية .

ولكن نحن لا نعرف ذلك ، ولكن السير علمتنا أن أدريس هو أول من علمه الله أن يخيظ الملابس بعد أن كانوا يسترون عوراتهم بجلود الحيوانات ، وهو أول من علمه الله غزل الصوف ، وأول من استخدم النجوم فى الاهتداء بها فى ظلام الليل ، كما أنه أول من خط بالقلم هذه الأشياء كلها تسمى أوليات إدريس .

## نبى الله نوح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس : ٧١] والنبأ هو الخبر الهام الذى يلفت العقل وليس مجرد الخبر ، قوله تعالى ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ إذن .. فكان هناك قوم وهؤلاء القوم ابتعدوا عن منهج الله ، وضلوا وجاء نوح عليه السلام ليعيدهم إلى المنهج الحق مره أخرى وإلى عبادة الله ، وكلمة : ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ القوم لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال ، لأنهم أهل القيام على الأشياء الذين تعتمد عليهم حركة الحياة ، لأن المرأة مبنية على الستر والقرآن الكريم يوضح لنا هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنَ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] . فالرجال هم المواجهون بالرسالات السماويه والمرأة محتجبة مستترة تسمع إما من أبيها وإما من أخيها وإما من زوجها .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] تأتى هذه الآية بأحكام ثلاثة متعاقبة وهى : أنه لا إله إلا الله ، وما دام لا إله إلا الله ، ولا إله غيره فهو واجب العبادة ، وعبادته تكون فى طاعة ما أمر به واجتناب ما نهى عنه فإن لم نفعل فهناك عذاب عظيم . من هذه الأحكام الثلاثة الذى يفزع ؛ وأول من يتصدى لمثل هذه الدعوات : الطغاة والجبابرة لأن لهم السيادة ، والباقون عبيد يطيعون أوامرهم . فإذا جاء هذا الدين ليسوى بينهم فى عبادة إله واحد ، تجدهم أول من يفزع لذلك .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأعراف : ٦٠ ] والملاء هم سادة قومه وأشرفهم هؤلاء يخافوا على هيبتهم وعلى سلطانهم فماذا يفعلون ؟ قلبوا الميزان وقالوا عن منهج الحق أنه ﴿ ضَلَالٍ ﴾ غير الحق ، وقوله : ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أى محيط بحيث لا تستطيع أن تتعد ولا أن تفلت منه . ماذا قال نوح عليه السلام لقومه ؟ ﴿ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ ﴾ ولم يرد نوح بقوله ليس بى ضلال فهم يقولون لنوح : أنت ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فيرد عليهم : ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ ﴾ [ الأعراف : ٦١ ] لماذا ؟ لأن الضلال يشمل ضلالات كثيرة .

فهو ينفى مجرد وجود ضلاله واحده عنده ونفى الأقل يعنى نفى الأكثر . وهذا النفى القاطع فى قوله : ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ ﴾ أن منهج الله لم يأتى به نوح من عنده فالله سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج ، وما دام المنهج من عند الله فلا يمكن أن تكون فيه ضلاله واحده ولا شبهة ضلاله وحيثيات ذلك ﴿ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّى رَسُوْلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾ فنوح رسول ، وما دام رسول فهو مبلغ عن الله والله منهجه هو الهدى .

وتأكيداً لأن نوح عليه السلام مبلغ عن ربه حدد مهمته فى قوله : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّنَّ اللَّهُ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [ الأعراف : ٦٢ ] ومعنى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ أى : أنهى إليكم ما حملنى الحق سبحانه وتعالى من منهج هداية لحركة حياتكم .

أما قوله : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ فذلك إستكمال لبلاغ كل رسول ، فالبلاغ يقتضى أن يبلغ الرسول قومه بمنهج الله ومطلوبه منهم ، ثم بعد ذلك ينصحهم أن يعملوا بهذا المنهج لينالوا رضا الله وينجوا من عذابه ، والنصح : أن تبين للإنسان المصلحه فى العمل وتبين نيتك أمامه بأنها نية حسنة ،

٣٣

وعندما تنصح إنساناً بأن يفعل كذا ، فإنك إما أن تنصحه بعمل يعود نفعه عليك أو يعود النفع عليه هو ، فإذا كانت النصيحة بأمر يعود عليك فهي لا تخلو من الغرض وإذا كانت النصيحة فى أمر يعود عليه هو بالنفع ، ففي هذه الحالة تكون نصيحه خالصة بنية صادقة ، ولذلك لم يقل نوح : « أنصحكم » ولكن قال : ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾ ليبين أن هذه النصيحة لصالح القوم ، وأنه كرسول لا يستفيد منها شيئاً ، فما دام قد بلغ فهو قد أدى الأمانة ، ولكن النصيحة زيادة فى هداية الناس إلى الطريق المستقيم وترغيبهم فيه .

ثم يبين لهم حيثيات النصح فقال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : أن نوحاً عليه السلام يقول لقومه : إننى أعلم من الله أشياء لا تعلمونها ، ولذلك فخوفى عليكم مما ينتظركم من الله لأنكم كفرتم بآياته قد جعلنى أنصحكم ، ليست نصيحة أداء واجب ، ولكنها نصيحة من يعلم مما علمه الله سبحانه وتعالى . والمقصود بقوله هنا : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أن الله أعلم نوحاً بالطوفان الذى سيأخذ به الكفار والمكذبين من قومه .

ثم يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٣] وهنا نقف عند قوله سبحانه : ﴿ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فالذكر فى القرآن له معان كثيرة وعلى قمة هذه المعانى أن الذكر يراد به القرآن وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقوله جل جلاله : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] . إذن .. فالذكر يطلق ويراد به القرآن ، ويطلق أيضاً فيراد به الشهرة والشرف العظيم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] نبي الله نوح عليه السلام





﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] إن قول هؤلاء الناس فيه غباء ، لأن كون الرسول بشر فإن ذلك أدهى للتصديق والإيمان ، فالرسول بشر منكم تعرفون ماضيه قبل أن يكلف بالرسالة ، فلو كان له إنحرافات قبل أن يكلف بالرسالة لما جرؤ أن ينهاكم عن شيء يستحله لنفسه ، ولذلك فلا بد أن يكون الرسول معروفاً بالاستقامة والسلوك الحسن عند قومه قبل أن يكلف بالرسالة ، فإذا كان لم يكذب في أمور الدنيا ولم يكذب على خلق الله ، أي كذب على الله ؟ ثم الرسول قدوة فهو مطبق للمنهج بقدرات البشر حتى لا يدعى أحد أن المنهج فوق طاقة البشر وأن الله كلفنا فوق ما نطبق .

الحق سبحانه يقول : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٣] .

إذن .. فمهمة الرسول ثلاث مراحل :

الإنذار .. وهو إخبار بما هو قادم حتى تستعد له .

والبشارة .. وهى إخبار بشيء سار لم يأت زمنه بعد ، حتى يجند الإنسان كل قوته للحصول على هذا الشيء السار الذى بشر به الرسول ، أى أن مهمة الرسول أن ينبهنا لتتقى الشر وتأخذ الخير ثم بعد ذلك يرشدنا إلى التقوى التى تؤدى بنا إلى الرحمة . إذن .. فهناك إنذار يؤدى إلى التقوى ، وتقوى تؤدى إلى الرحمة .

أى إن مهمة الرسول ثلاث مراحل : فهو ينذر هذه هى المرحلة الأولى . والنفوس تتقى هذه هى المرحلة الثانية والتقوى تأتى برحمة الله فى الدنيا والآخرة هذه هى المرحلة الثالثة .

ولكن القوم كذبوا نوحاً ورفضوا الإيمان معه ، قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [ الأعراف : ٦٤ ] والحق لم يتكلم فى هذه الآية عن مراحل الإنجاء وكيف أن نوحاً تعلم النجارة وصنع السفينة وكيف أن قومه كانوا يسخرون منه وهو يصنع السفينه ثم الطوفان الذى حدث ، كل هذا لم يأت فى هذه الآية وإن كان قد جاء فى سور أخرى ، ولكن الحق أعطانا النتيجة مرة واحدة دون الدخول فى تفاصيل ؛ قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [ الأعراف : ٦٤ ] وكان هذا الأغرأق هو أول عقوبة حدثت فى تاريخ الرسالات . ذلك أن نوحاً كان أول رسول تعرض لمثل هذا التكذيب والعناء ، وكان الله سبحانه فى بدء الأمر هو الذى يتولى تأديب الكافرين ، فكان الرسل عليهم البلاغ فقط وليس عليهم أن يدخلوا فى أى نوع من التأديب كالحروب مثلاً أو غيرها ، ولكن عندما أرسل الله محمداً ﷺ كانت الإنسانية قد بلغت رشدها ، وعهد الله تعالى إلى محمد ﷺ وأمته من بعده أن يقوموا بنشر رسالة الله .

فى هذه الآية لم يخبرنا الحق سبحانه من ماذا أنجى نوحاً ولا كيف أغرق الكافرين بالطوفان ، ولكنه سبحانه وتعالى أعطانا حيثية الإغراق فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ . ومعنى : ﴿ عَمِينَ ﴾ هناك أعمى ، وهناك عمى ، فأعمى للبصر ، وعمى للبصيرة ، أى إنهم كانوا قوماً قد عميت بصيرتهم فلم يروا الحق رغم طول المدة التى قضاها نوح بينهم يعظهم ويدعوهم إلى منهج الله !

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا لَنْفُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [ الشعراء ] قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾

قوم نوح كذبوا نوحاً فقط ، فلماذا قال تعالى إنهم كذبوا المرسلين ؟ قالوا لأن رسل الله جميعاً إنما جاءوا بأصول ثابتة تتصل بالعقيدة والأخلاق لا تتغير من رسول إلى رسول . فالأخلاق والعقائد وأصول الأحكام كلها أمور ثابتة ، فمن كذب رسولاً ، فقد كذب كل الرسل ولذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والاختلاف في مناهج الرسل هو اختلاف في التشريعات التي تقتضيها تطورات المجتمعات ، لكن العقيدة والأخلاق وأصول الأحكام أمور ثابتة لا تتغير فالذى يكذب رسولاً في هذه الأشياء كأنه كذب كل الرسل .

وكلمة : ﴿ أَخُوهُ نُوحٌ ﴾ معناها : أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهم يعرفون نشأته وسلوكه وأخلاقه فإذا كان الرسول جاء إلى قومه وهو واحد منهم يعرفون ماضيه وسيرته فيهم وإستقامته بينهم ، كان يجب عليهم أن يسمعوا له ويعطوا عقولهم فرصة أن تسمع وتفهم ما يدعوهم إليه بعيداً عن الهوى لأن الذى يتعب الناس فى استقبال الحق أن جوفهم وقلوبهم مشغول بالباطل وما دام القلب مشغولاً بالباطل فلا يمكن للحق أن يدخله . فأنت قبل أن تدخل الحق إلى القلب لا بد أن تُخرج منه الهوى والزيغ . فكلمة : ﴿ أَخُوهُ نُوحٌ ﴾ جاءت لتحنن قلوبهم وتعرفهم أن لهم به ماضياً يعرفونه ، ويعرفون أخلاقه وسلوكه ، وهذا ادعى أن يؤمنوا به ويصدقوه .

وقوله : ﴿ أَلَا نُنَقِّوْنَ ﴾ معناها : اتقوا الله ، مثلما تقول لابنك المهمل : ألا تستذكر ، معناها : استذكر وهذا الأسلوب من الحض على الفعل ، مثل :



وموسى عليهما السلام ، يقول الحق سبحانه فى سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْغَلِيْمَ ۚ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٦٢﴾ وَيَصِيبُ صَدْرِي وَلَا يَطْلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٦٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٦٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٦٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ أى أنهما دخلا فى موضوع الرسالة ولم يقولوا : « ولا نسألكم عليه أجراً » .

وفى قصة إبراهيم عليه السلام يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَذَابِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الشعراء] لم يرد كذلك فى قصة إبراهيم : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ .

ولكن لو استعرضنا قصص الأنبياء غير إبراهيم وموسى صلوات الله وسلامه على الجميع ؛ نجد أن قوله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ وردت فى كل قصص الأنبياء .

ففى قصة نبي الله نوح عليه السلام ورد قول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء] .

وفى قصة نبي الله هود عليه السلام ، ورد قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَتَّقُونَ ﴿١٢٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ ﴿١٧٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴿ [ الشعراء ] .

وفى قصة نبي الله صالح عليه السلام ورد قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴿ [ الشعراء ] .

وفى قصة نبي الله شعيب عليه السلام ، ورد قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٨٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴿ [ الشعراء ]

إذن .. كل رسول من رسل الله تعالى قال لقومه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عدا نبي الله إبراهيم ونبي الله موسى عليهما السلام ، ومن هنا كان يجب على الناس أن يفهموا أن الرسل حين يبلغون رسالة الله إلى الأرض فإنهم يقدمون منفعة للناس يستحقون عليها أجراً وأجراً كبيراً ، ولكنهم يريدون الأجر من الله لأنه هو الذى يعطى ويجزل العطاء وعطاؤه سبحانه بلا حدود .

لكن لماذا جاءت هذه الآية الكريمة فى قصص كل الرسل ما عدا قصة إبراهيم وموسى عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ؟ لأنك حين تأخذ أجراً على منفعة تقدمها لغيرك فلا بد ألا يكون للغير معك منفعة ، ولنفرض مثلاً أنك تتعامل مع أحد التجار ، تبيعه أشياء ويبيعك أشياء ، المنفعة هنا متبادلة

فلا يوجد أجر . بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ، هو أول من دعا للإيمان فدعا عمه ، وعمه شارك في تربيته ، أيمن أن يقول إنه يريد أجراً على هذه الدعوة ؟ لا يمكن أن يقول ذلك لأن هناك منفعة متبادلة ، وموسى ربه فرعون حتى إن فرعون عيره بهذه المسألة وقال كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُنزِلْكَ فِيْنَا وَلِيْدًا وَكَلِمَاتٍ فِيْنَا مِنْ عَمْرِكُ سِنِيْنَ ﴾ [ الشعراء : ١٨ ] وهذا من وجهة نظرنا ؛ والله تعالى أعلم سبب في عدم ورود طلب الأجر في قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام .

ولذلك يعجب الله من الكفار حين دعاهم رسوله ﷺ للإيمان فلم يؤمنوا ، قال تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ [ الطور : ٤٠ ] ومعنى ذلك : هل طلبت منهم أجراً على الإيمان فلم يجدوا ما يدفعونه ، ولذلك لم يؤمنوا ؟ أجر الرسول على الله ؛ لأنه هو الذى يستطيع أن يكافئ على هذا العمل . بعد أن خاطب نبي الله نوح عليه السلام قومه ودعاهم إلى طاعة الله ، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم أجراً ، ماذا كان ردهم عليه ؟ ﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [ الشعراء : ١١١ ] الأردلون جمع رذل : والرذل هو الردى من الشيء . فهم يقولون له كيف تؤمن بك وقد أتبعك ضعاف الناس وفقراؤهم ؟ وفي آية أخرى قالوا له : ﴿ وَمَا نَزَّلَكَ آتِبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ ﴾ [ هود : ٢٧ ] وهم يقصدون بالأردل ، الناس الفقراء الضعفاء الذين لا يؤبه لهم ، وهؤلاء دائماً هم جنود الرسالة فى البداية لأنهم المطحونون من المجتمع الفاسد فيكونون متلهفين على واحد يأتى ليعدل موازين المجتمع .

وانظروا إلى عدم فهم القوم لدعوة نبي الله نوح عليه السلام حيث قالوا له : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ ﴾ مع إنه يدعوهم إلى الإيمان بالله وليس به هو لأنه مجرد رسول



يحمل منهج الله ودعوته ، وقد يكون معنى ﴿ اٰتُوْمُنْ لَكَ ﴾ بمعنى نصدقك ، لأن كلمة « آمن » تستخدم في معان متعددة مثل : ﴿ وَاٰمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٤] وقوله : ﴿ ءَاْمَنَ بِاللّٰهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَاٰمَنَ لَّهُم ﴾ [العنكبوت: ٢٦] بمعنى : صدقه ، قال تعالى : ﴿ فَمَا ءَاْمَنَ لِمُوسَىٰ اِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ اَنْ يَّفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣] وفي سورة يوسف يقول القرآن على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ هَلْ ءَاْمَنُكُمْ عَلَيْهِ اِلَّا كَمَا اٰمَنُتُمْ عَلَىٰ اَخِيهِ مِّنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف: ٦٤] وإخوة يوسف حينما سألوا أباهم قالوا : ﴿ قَالُوْا يٰٓاَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمِنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَنَنصِحُوْنَ ﴾ [يوسف: ١١] .

قول الله تعالى : ﴿ وَمَا زَنَلْنَاكَ اِلَّا اَلَّذِيْنَ هُمْ اَرَادُوْا نَكٰى بَادِيَ الرَّآيِ وَمَا زَيٰٓى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كٰذِبِيْنَ ﴾ [هود: ٢٧] دلالة على عظمة هذا الدين والتي تكمن في هذه النقطة بالذات . لأنه لو انتصر دين بأصحاب النفوذ والجاه والسلطان لقالوا : اعتمد الدين على نفوذ الدنيا ، ولو كان الدين قد نزل على هؤلاء الذين لهم النفوذ والسلطان في الأرض لاعتنق الناس الدين نفاقاً وتقرباً لأصحاب النفوذ وليس تقرباً إلى الله ولكان الدين اتبع نفوذ هؤلاء الناس ، فإذا زاد نفوذهم ضاع دين الله في الأرض ، ولكن الحق يريد قلباً تتحمل المشقة لأنها تحب الله ، قلباً تتحمل الاضطهاد والإيذاء طلباً لرضا الله ، قلباً لا تطلب جاه الدنيا ولكنها تطلب حب الله في الآخرة ، وهذا لا يأتي أبداً من الذي يؤمن بدين الله نفاقاً وطمعاً في أن يكون قريب من أصحاب النفوذ والجاه ، ولا يتم مراد الله إلا إذا كان الإيمان بالله خالصاً له سبحانه .

نبي الله نوح عليه السلام رد عليهم قائلاً : ﴿ وَمَا عَلِمَىٰ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١١٦]   
 إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا   
 نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٩﴾ [ الشعراء ] .

أى أن الإيمان لا دخل له بالغنى والفقير والقوة والضعف لأن الإيمان سلوك   
 وعمل . وربنا هو الذى يحاسب الناس على أعمالهم وما دام الحساب أمر   
 يختص به الله وهؤلاء عجلوا بالإيمان فلا بد أن الله سيجزيهم خير الجزاء ،   
 كما أننى لا يمكن أن أطرد المؤمنين بالله لأنى نذير من عند الله ؛ ومهمة النذير   
 هى البلاغ عمن أرسله لا طرد الذين آمنوا به .

نفس هذا الموقف طلبه الكفار من الرسول ﷺ فنزل عليه قول الحق سبحانه   
 وتعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِيسِيِّ يُرِيدُونَ   
 وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ   
 عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُوطًا ﴾ [ الكهف : ٢٨ ] .

إجابة نوح عليه السلام لم تعجب كفار قومه ، فما كان منهم إلا أن : ﴿ قَالُوا   
 لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْتُحِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [ الشعراء : ١١٦ ] أى : أنه لا فائدة من   
 الكلام معك يا نوح ولكن هذا إنذار لك : لمن لم تنته عما تدعيه من دعوتك   
 إلى عبادة الله وتقريبك للأراذل من الناس لترجمتك . وهذا التهديد يعنى أنهم   
 قوم أقوياء لهم بطش وجبروت وطغيان . ولكن ماذا يفعل نوح عليه السلام ؟   
 لا بد أن يلجأ إلى ربه وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنَعْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا   
 وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ انظر إلى أدب النبوة ، إنه شكاً لربه من   
 تكذيبهم ولم يشك من تهديدهم له بالرجم لأن ما يهمه هو دعوته ، وأن   
 يصدقه قومه ويؤمنوا بما جاء به .

والفتح : إما أن يكون حسياً أو معنوياً قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ  
وَجَدُوا بِضَلْعَتَهُمْ زُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ فهذا فتح حسي بإزالة الرباط الموجود على  
البضاعة .

وقد يكون الفتح معنوياً مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا  
وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ومثل قوله :  
﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لِمَنْ  
بَعْدَهُ ﴾ [فاطر : ٢] فالفتح هنا بمعنى الخير .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ  
رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٦] الفتح هنا بمعنى علمكم من علم لم يعلموه .  
وقد يكون الفتح بمعنى الحكم مثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ  
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

وقول نوح عليه السلام هنا : ﴿ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحْنَا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٩] معناه يارب احكم بيني وبينهم ونجني وأنا والمؤمنين  
معي من كيدهم ، فاستجاب الله دعاءه ونجاه من شرهم ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَبْنَاهُ  
وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٥٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء : ] .

والفلك : السفينة التي صنعها نوح . فالله أمره بصنع السفينه وأرشده إلى  
طريقة صنعها . ويبدو أن صناعة الفلك لم تكن معروفة للناس في ذلك الزمان  
بدليل أنهم كانوا يسخرون من نوح كلما مروا عليه وهو يقوم بصناعتها ، قال  
تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ  
إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَمْسُحُونَ ﴾ تدل على أن نوحاً عليه السلام كان معه عدد كبير من الأتباع لأن السفينه ما دامت مشحونه فهذا يعنى أنها كانت مكتظة بالناس وغيرهم من الأنواع الأخرى من الحيوانات والطيور وغيرها .



## سفينة النجاة

وقال الحق تعالى : ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَ كَمَا يَأْمُرُنَا ﴾ والصنعة هي التي توجد من موجود . فالإنسان يوجد أشياء من موجود ، والله وحده هو الذي يوجد من عدم . فالحق سبحانه ألهم نوحاً بوحيه كيف يصنع السفينه ، وعلمه كيفية صناعتها .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَحَّيْنَا ﴾ أى : أن نوحاً وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة السفن ولكن الله هو الذى أوحى إلى نوح بكيفية صناعة السفينه أى ألقى فى قلبه وفى عقله الخواطر التى تتيح له حسن صناعة السفينه بوحى منه سبحانه وعلم بدليل .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨] قالوا بعد أن كان نبياً أصبح نجاراً ولو كان نبياً حقاً ما لجأ إلى هذا ، لقد قالوا إن هذه السفينه بعيدة عن البحر فكيف سينقلها ؟ ولم يعرفوا أن الماء هو الذى سيأتيها وهو الذى سيرفعها ، لم يعرفوا أن طوفاناً قادماً وأنهم مغرقون . ولذلك سخر منه كبار قومه الذين لم يؤمنوا به ولم يدركوا قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود: ٣٩] أى أنكم لا تعرفون سر بناء السفينه الآن ولكنكم ستعرفونها فى المستقبل ، وستعلمون ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٩] .

إذن .. الطوفان الذى سيأتى سيخزي هؤلاء الكفار لأنهم كانوا يسخرون يقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

وقوله : ﴿ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يعنى : عذاب دائم لا يتركهم أبداً يقيم معهم إقامة دائمة ، فهو معهم كل الوقت لا يستطيعون دفعه ولا الفرار منه .

نبى الله نوح عليه السلام ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فاعتقدوا أن المسأله كلام فقط وأن العذاب لن يأتيهم وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب ، ولكن العذاب ليس فى يد نبى الله نوح عليه السلام فالذى يأتى بالعذاب والذى يمنع العذاب هو الله تبارك وتعالى ؛ ولذلك كان قول نوح لهم : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ [ هود : ٢٣ ] ، فالله تعالى لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما يريد .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى : لن تعجزوا الله ولن تفلتوا منه أبداً . ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [ هود : ٣٤ ] والكلام هنا لنوح ، والمعنى : إن كان الله يريد أن يغويكم فلا ينفع نصحى .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ هل الله يغوى ؟ إن الله يهدى ! أقول : إن معنى « غوى » أى : تاه وضل عن الطريق . والله لا يغوى أحداً فأنت لا تسلك طريق الغواية رغماً عن إرادة الله ولكنك تسلكه لأن الله خلقك مختاراً وهو يهديك إلى الطريق المستقيم أى يبينه لك ويقول هذا هو الطريق المستقيم ويرغبك فى جنته وينذرك بعذابه ثم بعد ذلك يتركك للاختيار الذى وهبه لك فأنت إما أن تختار طريق الهداية ، أو ترغب عنه إلى الغواية والعياذ بالله .

وبعد الجهد الجهد والعمل الدعوب المتواصل لدعوة قومه سرا وجهرا ،  
 ترغيبا وترهيبا لم يؤمن مع نوح عليه السلام إلا عدد قليل ، أوحى الله تعالى  
 إلى نبيه نوح عليه السلام : ﴿ أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾  
 فبعد ما يزيد على تسعمائة عاماً من الدعوة ووصل الجدل والعناد من قوم نوح  
 مداه قال الله تعالى لنوح عليه السلام : انتهت مهمتك فمهما فعلت ومهما  
 دعوت فلم يؤمن لك إلا الذين أعلنوا إيمانهم فعلاً . فقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ قَدْ  
 ءَامَنَ ﴾ ﴿ إِلَّا ﴾ هنا معناها : غير ، فيكون المعنى : لن يؤمن معك غير الذى  
 قد آمن من قبل .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا بُتَيْسَ يَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [ هود : ٣٦ ] أى لا تحزن  
 عليهم بعد هذه السنوات الطويلة التى قضيتها معهم دون أن يسلكوا طريق  
 الإيمان .



## الطوفان .. دعوة نوح على قومه

بعد أن يؤس نبي الله نوح عليه السلام من قومه وإعلامه من الله تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن ، دعا عليهم قائلاً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٤٠] .

الحق تبارك وتعالى استجاب لدعاء نبيه ، وضرب له موعدًا بعلامة ، فإذا جاء وعد الله تعالى يحمل نوح في السفينة المؤمنين به ، ومن كل زوج اثنين ضمناً لاستمرار الحياة ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنٌ وَمَأْوَاهُ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] . قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ تعنى : اثنين ولكنهما متماثلان ؛ فالزوج يطلق على الفرد بشرط أن يكون له شريك يماثله ، قال تعالى : ﴿ جَعَلْنَا مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ [القيامة : ٣٩] أى : أن الأنثى زوج والذكر زوج وهما معاً زوجان اثنان . والله أراد بذلك إستبقاء الحياة على الأرض وليس هلاكها ولذلك طلب من كل زوجين اثنين لينجيهم بالسفينة من الفرق .

قول الحق تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ [هود : ٤٠] ﴿ حَتَّىٰ ﴾ تدل على الغاية ، ﴿ أَمْرُنَا ﴾ أى : الطوفان الذى سيأتيهم ، ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ « فار » يعنى : غلى ، مثلما يقال : الماء فار ، أى : غلى . والغليان هو : أعلى سخونه للماء ، وخروج الماء من التنور أو الخبز معناه : أن الماء يخرج من مكان لا يتوقع خروجه منه ، والتنور أو الخبز هو مكان تشتد فيه الحرارة وتوقد فيه

الطوفان .. دعوة نوح على قومه



النار للخبيز وكانت هذه هى العلامة التى أوحى بها الله إلى نوح عليه السلام ، فعندما يبدأ خروج الماء من الخبيز يسرع نوح والذين آمنوا معه ليركبوا السفينة التى صنعها نوح عليه السلام بأمر الله ، لتجرى بهم بسم الله ، إلى ما قدره لهم الله .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ اَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرِبَهَا وَمَتَّسِقَهَا اِنَّ رَبِّي لَغَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾ [ هود : ٤١ ] .

قوله : ﴿ اَرْكَبُوا ﴾ الركوب هو : أن يكون الراكب مستعلياً على ما يركبه . والحق قال : ﴿ اَرْكَبُوا فِيهَا ﴾ ولم يقل : « اركبوا عليها » ، فالحق سبحانه يلفتنا إلى أن السفينه لم تصنع بطريقة بدائيه على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها ، ولكنها مصنوعه بأحدث نظام لصناعه السفن الآن . لذلك فإنهم يركبون فيها لا يركبون عليها .

وقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ ﴾ فالذين سيركبون هذه السفينه سبب ركوبهم أنهم آمنوا بالله ، لأن السفينه : لله أمر ، ولرسول صناعة . وكل هذا من الله . لذلك علمنا الله أن نستعين به سبحانه وتعالى . وإياك أن تتهيب أن تستعين بالله لأن لك معاصي فالله سبحانه وتعالى رحمن رحيم ، وقد نجى سبحانه من هم فى السفينه لأنه غفور رحيم .

فالذين آمنوا مع نوح عليه السلام ليسوا ملائكة ، بل هم بشر ، منهم من أخطأ واستغفر أو من أذنب وتاب أو من آمن ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة ، والله تعالى لأنه : ﴿ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾ غفر لهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة التى ارتكبوها ولم يأخذهم بذنوبهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود: ٤٢] تدلنا على أنها مسيرة بقدرة الله سبحانه وتعالى . لذلك فإن هذه الأمواج التي وصفها الله أنها في علوها وضخامتها كالجبال ، هذه الجبال لا تضرها شيئاً لأنها تسير بأمر الله وعلى هدى من الله تبارك وتعالى .



## لا عاصم من أمر الله

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْتُؤُا آرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢] انظر إلى عاطفة الأبوة عندما دخل في السفينة الذين آمنوا ، وأهل نوح ، ومن كل زوجين اثنين ، ولحظ نوح ابنه خارج السفينة ، فناداه وقال له : ﴿ يَبْتُؤُا آرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ نصيحة أب يحاول أن ينجي ابنه من الموت ، لكن الكفر الذي ملأ قلب ابن نوح أعماه عن الحقيقة فبدلاً من أن يلبى الدعوة ؛ قال : ﴿ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هود: ٤٣] ظن ابن نوح أن هناك قوة يمكن أن تنجيه من أمر الله ! وهيهات .. فالله غالب على أمره ، ولكن النبي الأب ظل يرغب ابنه ويرشده إلى طريق النجاة الوحيد قائلاً له : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَهُ ﴾ ، أى : لا تعتقد يا بنى أن هناك شىء فى الكون يمكن أن ينجيك من أمر الله لأن كل ما فى الكون خاضع لإرادة الله قهراً .

و ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

وهكذا تم الأمر على مراد الله استجابة لدعاء نبي الله ، وأغرق الكافرين جميعاً بما فيهم ابن نوح الذى رفض الإيمان وكما كانت البداية أمراً من الله تعالى ، كانت النهاية أمراً من الله سبحانه ، فقال تعالى للأرض : ﴿ أَطِيعِي مَاءَكُمْ ﴾ ، وللسماء ﴿ أَطِيعِي ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ اطِيعِي مَاءَكُمْ ﴾ أى : خذى الماء من السطح إلى جوفك ، ﴿ وَيَسْمَأُ أَطِيعِي ﴾ أى : أمتنعى عن المطر .

ثم يقول جل جلاله : ﴿ وَقَضَى الْأَمْرَ وَأَسْرَتَ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ قضى أمر الله  
فى إهلاك الكافرين ﴿ وَأَسْرَتَ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ أى استوت السفينه على الجبل ،  
والجودى هذا جبل قرب الموصل ناحية الكوفة فى العراق .

○ ○ ○

## بعثاً للقوم الظالمين

قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : أن القوم الظالمين فى ذلك الوقت ابتعدوا بعثاً نهائياً عن الإفساد فى الأرض ، فهم قد أُغرقوا بالطوفان ، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون فقط .

لما فتحت أبواب السماء وفجرت عيون الأرض ، وفار التنور ، والتقى الماء على أمر قد قدر ، وسارع نوح وأهله والمؤمنون معه إلى داخل السفينة وأبى ابنه الركوب معهم ، ولما تيقن نبي الله أن ابنه سيغرق لا محالة ، توجه إلى الله عز وجل سائلاً إياه أن ينجى ابنه الذى هو من أهله ، وكان الله تعالى وعده بالنجاة فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [ هود : ٤٥ ] فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ : لفته من الحق سبحانه إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ؛ وإنما أهلية المنهج والاتباع .  
إذن .. البتوة بالنسبة للأنبياء بتوة اتباع وليست بتوة نسب .

الله تعالى أعطى حيثية ذلك فقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ كأن أهل النبي هم الذين يتبعون منهجه ، ويعملون صالحاً ، وما دام ابن نوح لم يعمل صالحاً ، بل كفر بالله تعالى ولم يتبع منهجه فهو ليس من أهل نوح .  
ثم قال الحق جل جلاله لنبى نوح عليه السلام : ﴿ فَلَا تَسْتَأْنِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، أى : فكر جيداً قبل أن تسأل هذا السؤال .

وحين سمع نبي الله نوح عليه السلام بهذا الخطاب من الله انزعج وخشى أن يكون أغضب الله بهذا القول فبادر قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَسَلَّكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧] استعاذ نوح بالله سبحانه وتعالى من سؤاله نجاة ابنه لأنه لم يكن يعرف أن أهل النبي هم أتباعه ، وقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ : هذا اعتراف من نوح أن ما قاله هفوة ما كان يصح أن تكون ، والآية الكريمة معناها : يا رب إنى أستعيدك أن تجعلنى أسألك بغير علم ؛ فامننى يا رب بقدرتك من أن أسأل ما لا أعلم .

وبعد أن تم الأمر وفق ما شاء الله تعالى ، وامتنعت السماء عن ارسال المطر ، وابتلعت الأرض الماء ، وهلك الكافرون صدر الأمر الإلهى لبنى الله نوح أن : ﴿ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ [هود: ٤٧] . قوله تعالى : ﴿ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ ﴾ أى : انزل من السفينه لتباشر مهمتك فى الدعوة إلى الله تعالى وعمارة الأرض أنت ومن معك .

وقوله تعالى : ﴿ بِسَلْمٍ مِنَّا ﴾ بأمن واطمئنان ، لأنه لا يوجد على الأرض إلا المؤمنون ولم يعد هناك من الكافرين من ينغص عليك أمرك . وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَكَاتٍ ﴾ أى أن البركة ستكون لك فى العطاء ، لأن معنى البركة : أن يعطى الشئ أكثر مما هو متوقع منه ، ونوح معه من كل زوجين اثنين سيتكاثرون بسرعة ويملاؤن المكان .



## امراة نوح

يقول الحق سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ  
وَأَمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا  
عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] ليس  
المقصود بالخيانة فعل الفاحشة فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى  
الفاحشة لحرمة الأنبياء ولكن ذلك لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولا ليس  
له من القدرة على أن يقهر المرأة فى العقيدة حتى وإن ادعى الألوهية كفرعون ،  
فها هى امراة فرعون تدعو الله تعالى قائلة : ﴿ رَبِّ آيِنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي  
الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم : ١١]  
هذه اللقطات هى التى تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب  
أو الزواج . والحق لا يحب الإنسان لذاته ولكن لعمله الصالح لذلك قال :  
﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] .



## نحن ذرية من كانوا مع نوح

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَكُورًا ﴾ [ الإسراء : ٣ ] إن بقاءكم الآن من بقاء آبائكم وهذا البقاء راجع إلى الذرية التي كانت مع نوح حين نجاهم الله من الغرق في الطوفان فكأنه يمين عليهم بهذه النعمة . كما تبين الآية الكريمة أن الله أكرم ذرية نوح لأنه كان عبداً شكوراً .

إذن .. فالعمل الصالح ينفع الذرية فكأنه يقول لهم إنه سيكرم ذرية نوح لأنه كان عبداً شكوراً .

فإذا كنت تخشى على أولادك من بعدك فاتركهم للذي لا يضعف ولا يموت قال تعالى ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [ النساء : ٩ ] .

فصلاح الآباء ينفع الأبناء ، لذا يقول الحق : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فمن تكريم الله للآباء الصالحين أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة مع عدم إنقاص أجر عمل الآباء .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَكُورًا ﴾ كان من شكره لا يتناول شيئاً من مقومات حياته ومن ترفها إلا حمد الله عليه فيحمده في الأكل والشرب والكسوة وعند ركوب الدابة وفي كل شيء . فما أكثر ما غفل الإنسان عن حمد الله في نعمه .



فالحمد لله على كل نعمة أنعمت بها على يارب ونسيت أن أحمداك عليها .  
والحمد لله في نعمة أنعمت بها على عبد ولم يحمداك عليها .  
والشكر دائماً شكر للمنعم وللمعطي وثناء عليه ولكنه تجارة للشاكر أيضاً  
لأن الحق يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] فربنا ليس  
محتاجاً لشكر خلقه ولكن خلقه محتاجون إليه وهناك شاكر وشكور وصابر  
وصبور فالشاكر يشكر مرة أما الشكور فهو الذي يداوم على الشكر .



## نبى الله هود عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنَّكُمْ لَمُفْتَرُونَ ﴾ [هود : ٥٠] .  
رسول جديد جاء بعد أن عم فساد ذرية الذين نجّاهم الله مع نوح فانحرفوا عن المنهج . لأن الرسول لا يأتى إلا عندما يعم الفساد ولا يوجد من يصلح . لأن المناعة الإيمانية قد توجد مناعة ذاتية لمن تحدثه نفسه بالإنحراف فيعود إلى ربه وهذه هى النفس اللوامة . لكن إذا لم توجد مناعة فى المجتمع فلا بد أن تقوم حجة الله على الناس برسول جديد وبرهان سديد .

فبعد نوح عليه السلام حدث الإنحراف عن المنهج وغرق المجتمع فى شهواته ، وحاد عن طريق الإيمان فأرسل الله تعالى هوداً إلى قومه ليعيدهم إلى الإيمان بالله . وقول الحق تعالى : ﴿ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ وما دام أخاهم فهو لا يريد لهم إلا خيراً . وما دام أخاهم يكون مأموناً على ما يقول . ماذا قال هود لقومه ؟ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنَّكُمْ لَمُفْتَرُونَ ﴾ ولم يقل هود هذا الكلام إلا لأن الفساد قد عم ، وجعلوا الله شركاء ، وافتروا على الله الكذب أى : تعمدوا الكذب على الله . وما دام أنه لا إله إلا الله ، فالإفتراء الذى إفتروه أنهم اتخذوا غير الله إلهاً . ويقول هود عليه السلام مرغبتاً فهم فى الإيمان بالدعوة أنه لا يطلب منهم شيئاً مقابل دعوته لهم وأنه لا يريد منهم إلا عبادة الله وحده ، وأن أجره على الله تعالى ، جاء فى القرآن الكريم على لسانه : ﴿ يَا قَوْمِ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود : ٥١] ، قوله :



إذن .. كلما تزداد الحياة رقيًا يتعد الإنسان عن الله ، لأن الأسباب تعطيه ظاهراً فينسى المسبب ويعيش الأسباب .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [هود: ٩٠] أى : لا تفعلوا ذنوباً جديدة وطهروا قلوبكم من الكفر والشرك وابدعوا الله وحده ، الله تبارك وتعالى حينئذاً ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ المdrار: هو الذى يدر بتتابع لا ضرر فيه ، فمثلاً فى الطوفان قال الله تعالى : ﴿ فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ لذلك كان الرسول ﷺ يقول : « اللهم حوالينا ولا علينا » حتى لا يغرق الماء القوم ولكن ينزل على زرعهم .

إذن .. قوله : ﴿ مِدْرَارًا ﴾ معناها : متتابعاً تتابع إصلاح فتحضر الأرض ويخرج الزرع فيزيد مالنا وتزيد قوتنا .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مَنَاجِرَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فنحن إذا تولينا نكون قد أجرمنا فى حق أنفسنا لأن إجرام العبد يعود على نفسه فهو الذى يشقى فى الدنيا ويخلد فى العذاب فى الآخرة .

والحق تعالى يقول : ﴿ ... وَمَا نَحْنُ بِشَارِكِيَّ ءِالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَا بَعْضُ ءِالِهَتِنَا بِسُوءِ ... ﴾ [هود] فهم يسمون الإفك الذى يعبدونه آلهة وهذا مردود عليهم بالقياس والمنطق لأنها مادامت آلهة فلا بد أن يكون لها منهج عبادة تقول أفعال كذا ولا تفعل كذا . فما هو منهج الأصنام ؟ بالطبع لا شىء ! إذن .. فهى آلهة بدون منهج ولا توجد عبادة بلا منهج . فالآلهة التى ليسى لها أوامر تكليفية تترك لتتبع شهواتك كما تشاء ، وهذا هو الذى يتمناه الكفار فلا يرغبون فى التكليف

نبى الله هود عليه السلام 

---

 ٦٢







تبقى فى الجسد مدة طويلة ، والميكروب لىس بمجرد أن يلامس الجسد يجعله كعصف مأكول ! ثم كيف يأتى الطاعون أو الميكروب لجماعة أبرهة وتنجو منه قريش ؟ نقول لهم : إن من عظمة الإله أن ىنجى المؤمنىن ويهلك الكافرىن بالشىء نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أى : أن الداء لا ىمس المؤمنىن برحمة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هناك نجاتان : النجاة الأولى : من عذاب الرىح الصرصر .

والنجاة الثانية : من العذاب الغليظ الذى ينتظرهم فى الآخرة .

ولكن لماذا غليظ ؟ لأن الغلظة تعطينا مفهوم المتانة والقوة . والعذاب فى الدنيا موقت بقدرات الدنيا وزمنها وعمرنا فيها ولكن عذاب الآخرة بلا نهاية .

إذن .. فعندما جاء أمر الله نجى هوداً والذىن معه برحمة منه سبحانه ، ثم نجاهم من العذاب الغليظ فى الآخرة . وكان نجاتهم من عذاب الدنيا الموقت بشارة ومقدمة أنهم سىنجون أيضاً من العذاب الغليظ فى الآخرة .





## دعوة هود عليه السلام

فى أمر هود قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

وإذا عدنا إلى قصة نوح نجد أنها متفقة مع قصة هود ، ففي البداية يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ وهذا أول اتفاق : نوح إلى قومه .. وهود إلى قومه ، ماذا قال نوح لقومه ؟ : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ ﴾ وماذا قال هود لقومه ؟ : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ ﴾ فنجد اتفاق الأسس الثابتة فى الدعوة إلى الله ومنهجه ، أولها : « لا إله إلا الله » فكل الرسل جاءوا ليبلغوا البشرية بهذه الحقيقة .

ولكن هوداً عليه السلام لم يقل : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ولكنه قال : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

نقول : أن نوح كان أول الرسل بعد آدم لذلك أعلمه الله بما ينتظر الكافرين من عذاب ، وبأن الله سيهلكهم بعذاب سيأتيهم ، لأنه لم تكن هناك سابقة عذاب من الله لتأديب الكافرين والمعاندين . لكن هود جاء بعد نوح وكان الطوفان قد حدث وكان الناس عندهم سابقة علم بما حدث لمن سبقهم لذلك قال هود لقومه : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : أ جعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ، ولكم فيما حدث لقوم نوح عظة وعبرة .

فى قصة نوح ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٥] وفى قصة هود : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : ٦٦]

الضلال هو البعد عن الحق . والسفاهة هي الطيش والخفة .

وأضاف قوم هود : ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

أى : أننا نرجح أنك من الكاذبين لأن الظن هنا بمعنى اليقين .

فماذا كان رد نوح وهود عليهما السلام ؟ نوح : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُ لَيْسَ بِي

ضَلَّالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦١] .

وهود ﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ونوح قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهود قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨] .

الفرق هنا أن نوح قال : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ .

وهود قال : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ما هو الفرق ؟

نقول : إن الفعل يدل على التجدد والإسم يدل على الثبوت . ونوح فى

إلحاحه على قومه ليلاً ونهاراً وجهاً كان متجدد الدعوة . وهود كان ثابت

الدعوة ولذلك استخدم مع نوح الفعل ﴿ وَأَنْصَحُ ﴾ ومع هود الإسم ﴿ نَاصِحٌ ﴾

على أننا نلاحظ أن ﴿ لَكُمْ ﴾ موجودة فى كلا القولين وهذا يفيد أن كل

رسالات الأنبياء هى لصالح البشر .

ثم بعد ذلك ذُكر هود قومه برحمه الله عليهم وفى هذا يقول الحق :

﴿ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً

فَأذْكُرُوا مَا آتَى اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] أى : أن الله سبحانه

أعطاهم أجساماً فارهة قوية ، وأعطاهم من النعم والخير الكثير ، فكان يجب

أن يشكروا الله على كل هذه النعم ولكنهم بدلاً من الشكر واجهوا هوداً بموقف عجيب ! موقف يدل على سفاهتهم وضلالهم ، فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ ﴾ [ الأعراف : ٧٠ ] لقد رفضوا حقيقة الوجدانية لله وهى أساس رسالات الله إلى أنبيائه .

وكان ذلك سبب إنهيار حضارتهم ، التى قال الحق سبحانه عنها : ﴿ أَلَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ﴾ [ الفجر : ٨ ] ومعنى هذا أنها كانت حضارة أقوى وأعظم حتى من حضارة قدماء المصريين ، فهى حضارة بلغت القمة فى فن النحت والعمارة ورغم ذلك لم تستطع أن تصون نفسها من الهلاك والدمار لأنها ليست مبنية على قيم ثابتة ، لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق ، فأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، وانتهت حضارتهم دون أن يعرف الناس حتى أسرارها وأسرار قوتها ، قال الله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [ النمل : ٥٢ ] فعليكم أيها الناس أن تأخذوا عبرة وعظة وأن تنتبهوا وتعودوا إلى الله ، خاصة وأنكم أقل منهم حضارة وقوة حتى لا يكون مصيركم كمصيرهم .

ومن الصفات المذمومة فى قوم هود ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٧٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٧٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٨٠﴾ [ الشعراء ] وكل هذه الصفات تخدم صفة واحدة هى : الكبر والتعالى ، لأنهم يريدون علواً واستبقاء خلود ، يريدون التفرد على الغير ! وهذا مخالف لما يريده الحق سبحانه من عباده فى الدنيا ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ القصص : ٨٣ ] فإن كنت يا أخى المؤمن تريد أن تقدم خدمة



## عذاب قوم هود

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أٰجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحَدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَٱنٓتَابْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ مُّتَجَدِّدٌ لِّفِي ٱسْمَآءِ سَمِيئُوهَا ٱنتَهَ وءَابَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطٰنٍ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف] أفصح قوم هود عن علة شركهم فهم يقولون : أنهم لن يعبدوا الله وحده ويصرون على الشرك ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب ، فأوحى الله تعالى إلى هود بأنه قد وقع عليهم رجز و غضب من الله .

ثم يقول الحق : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَآئِرَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِتَايِينَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

إن وسيلة النجاة فى قوم نوح كانت السفينة . فما هى وسيلة نجاة المؤمنين من قوم هود ؟

لقد كان العرب قديماً إذا أصابهم سوء يذهبون إلى الكعبة ليتضرعوا إلى الله ليذهب عنهم السوء ، وحتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . وعندما بدأ عذاب الله يصيب قوم هود أصابهم الجذب فلم تنبت الأرض ، فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة على رأسهم رجل اسمه : القيس ، ورجل اسمه : مرصد بن سعد ، وكانا لهم إخوان يحكمون مكة من العماليق أولاد عمليق ابن لاوث بن سام فلما قضوا فترة فى مكة انتهوا إلى الكعبة وجلسوا يبتهلون إلى الله أن يمطر أرض عاد ، فسمع داعيهم وهو قيل بن عنز هاتفاً يقول : اختر لقومك : هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء فأى سحابة

تريدها أن تذهب لقومك ؟ فاختار السحابة السوداء لاعتقاده أنها مليعة بالمطر وعاد ومن معه إلى قومهم وأخبروهم بما حدث واختيارهم السحابة السوداء ، فلما رأو السحابة السوداء قادمة عليهم استبشروا وقالوا جاءنا المطر وذلك قول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۗ ﴾ [الأحاف : ٢٤] هذا كان غاية ما يتمنون ولكن كان لله تعالى أمر آخر ، وهو عقابهم على الشرك به وعدم الإيمان برسوله فقال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ... ﴿١٥﴾ ﴾ .

هذه قصة عذاب قوم هود أما هود فقد سمع هاتفاً يقول له : « أخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب » فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقي الله عز وجل .



## نبى الله صالح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ [هود : ٦١] ، القوم : يطلق على الرجل عادة ولكنه يشمل المرأة أيضاً لأن المرأة مستورة فى طى الرجل . والقوم من القيام يعنى يا من تقومون بأمر الناس . ومن الخطأ فى الفهم ما يقال فى معنى قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣٤] ، فالناس تفهمها على أن معناها مسيطرون على النساء ، ولكن ﴿ قَوَّامُونَ ﴾ تعنى : قائمين على أمورهن فهى تكليف للرجال بالقيام فى كل أمور النساء فمطلوب منهم توفير المسكن والطعام لزوجته ولأولاده بينما هى فى بيتها متفرغه لزوجها وتربية أولادها وتنشئتهم تنشئة ترضى الله تعالى وتخدم المجتمع ، ومهمة الرجل أن يعمل ويشقى ليوفر لها كل شىء ، ولكن العجيب أن بعض النساء يرفضن ما اختاره لهن رب العالمين ، وما أشرفها من مهمة ، وأثقلها ، ويطلبن المشاركة فى الشقاء الدنيوى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يجنبهن آياه .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ [هود : ٦٢] الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون الاستعانه بأحد . والخطاب هنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا خلق الإنسان من الأرض لأن آدم هو الذى خلق من الأرض ونحن ذريته فنحن من الأرض مثله وكل شىء يأتينا من الأرض ، فالطعام يأتينا من الأرض ، والدم يأتى من الطعام فكل شىء مرده إلى الأرض التى خلقنا منها ونموت

فنعود إليها ويقول الحق سبحانه : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [ طه : ٥٥ ] .

لما دعا نبي الله صالح عليه السلام قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ، وترك ما يعبدون غيره ، وعلل لهم ذلك بأن الله تعالى هو الذى خلقهم ، وأوجدهم ، قالوا : ﴿ يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ ، ﴿ كُنْتَ ﴾ أى : فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرساله . ﴿ مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ يعنى : نأمل على يدك الخير فما الذى جعلك تقول : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ . ويمضون فى مجادلتهم ﴿ أَنْتَهَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أى : تقول لنا إن عبادة آباؤنا للأصنام أو الشمس أو غيرها كانت خاطئة وتطلب منا أن نتركها ؟ حجة باطلة تعلق بها كل الذين رفضوا الانصياع لأمر الله وشرعه والتصديق برسله ، ولو كان هؤلاء يعقلون لسألوا أنفسهم : هل هذه الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشيء أو تنهاهم عن شيء ؟ وسيكون الجواب بالطبع : لا ، إذن .. فلا منهج لها ، وكيف يكون إله بلا منهج !؟

وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَبِيُّ شَكِّ سَمًا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبِ ﴾ [ هود : ٦٢ ] الشك هو أستواء الطرفين : الإثبات والنفى . إذن .. فهم ليسوا على يقين من آلهتهم ، والذى منعهم أن يكذبوا صالحاً تكديماً قاطعاً فقالوا : ﴿ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ .

وقوم صالح كانوا أصحاب حضارة ، وكان عندهم فن العمارة ، دليل ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَتَنجِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ ﴾ [ الشعراء : ١٤٩ ] فالذين شاهدوا مدائن صالح بجزيرة العرب رأوا كيف استطاع قوم صالح أن





أى أخبرونى وكأنه ارتضاهم حكماً إذا كنت أنا على بينة من ربى ويقين أنه أرسلنى و أيدنى فماذا تطلبون منى ؟ هل أترك يقينى برى إلى ضلالات وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وقوله : ﴿ وَءَاتَنى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ هى : المنهج والنبوة والرسالة .

وقوله : ﴿ فَمَنْ يَنْصُرْنى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ قولوا لى : أين أذهب إن عصيت الله ؟ وكيف أتقى عذابه ؟ والجواب الحتمى هنا : لا أحد منا يستطيع أن يفلت من عقاب الله .

وقوله : ﴿ فَمَا تَزِيدُونى غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾ التحسير هو الإهلاك أى أننى لن أزيد بطاعتكم إلا هلاكاً .



## ناقة صالح

الحق تعالى يقول : ﴿ وَيَقْوِمِ هَذِهِ نَاقَةَ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ [هود : ٦٤] حينما يقال هذه ناقة الله فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة وأن الله أستجاب لرسوله وأعطاه المعجزة التي طلبوها .

قالوا : إن كنت رسولاً حقاً فأت لنا من هذه الصخرة بناقة !!  
صالح عليه السلام بعد أن أنذر قومه عذاب الله وبشرهم برحمته طلبوا منه آية دالة على صدقه في البلاغ عن الله تعالى .

فدعا صالح ربه فانشقت الصخرة أمامهم عن الناقة فلم يستطيعوا أن يقولوا ناقة من هذه ؛ فقالوا : ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ وهكذا شهدوا بالمعجزة . فقال لهم صالح : ما دامت ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ فد ﴿ مَا شَرِبْتُ وَلَكُمُ شَرِبُ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴾ أى : هى تشرب يوماً وإبلكم تشرب يوماً ، فوافقوا على ذلك .

وكانت المياه فى مدائن صالح قليلة ، فكانت ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن ، فتأتى إبل غير المؤمنين فلا تجد ماء ، أما المؤمنون فقد كان لبن الناقة يكفيهم جميعاً ويزيد بحيث لا يحتاجون إلى شىء . وكانت هناك امرأتان لهما إبل فلم تجد لها ماء لأن المياه فى الآبار قلت جداً فذهبت إلى رجل اسمه « أحيمر ثمود » وأغريته على قتل الناقة فقتلها .

فلما قتلت الناقة صعد فصيلها على صخرة تسمى : « القارة » ورغا ثلاثة أصوات فقال صالح : يا قوم : أدركوا هذا الفصيل لعل الله يرفع عنكم العذاب فذهبوا يبحثون عن الفصيل فلم يجدوه . حينئذ أبلغ الله صالحاً أن العذاب ، سيأتى بعد ثلاثة أيام .

فى اليوم الأول : يروا سحابة مصفرة .

واليوم الثانى : سحابة محمرة .

واليوم الثالث : سحابة سوداء ثم يأتىهم العذاب .

والحق تعالى يقول : ﴿ قَالَ يَفْقَرُ لِمَ سَتَعَجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [ النمل : ١٤٦ ] .

ما هى السيئة هنا ؟ وما هى الحسنة هنا ؟ السيئة هى استعجالهم نزول العذاب عليهم عندما دعاهم نبيهم إلى الإيمان فقالوا : ﴿ يَصْلِحْ أَمْرَنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [ الأعراف : ٧٧ ] وهذا دأب الكفار فى كل مكان وزمان يستعجلون العذاب ولا يطلبون الهداية .

فهو يلومهم على استعجالهم السيئة قبل الحسنة ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم حين ينزل العذاب عليهم سيستغفرون ويتوبون فيرفع الله عنهم العذاب !! وهذه هى الحسنة التى أخروها ولكن ذلك لن ينفعهم لأن الاستغفار لا ينفع عند نزول العقاب .

فماذا كان ردهم عليه ؟ قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [ النمل : ٤٧ ] أى تشاء منا منك ، فقال لهم : هذا التطير ليس منكم ولكن طائرهم عند الله لأنه قضاء مقضى عليكم فهل حركة الطير هى التى ستتحكم فيكم وتحدد عملكم ؟ قال العلماء : لأنه بعد أن أرسله الله إليهم ودعاهم فلم يستجيبوا له أصابهم قحط شديد وبلاء فقالوا : هذه المصائب بسبب هذا الرجل المشؤم . فلم يرجعوا إلى أنفسهم ويقولوا هذا عقاب لنا على كفرنا وعدم استجابتنا لنبي الله صالح ولكنهم اتهموا صالحاً بأنه نذير شؤم وجاء بكل المصائب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [ النمل : ٤٨ ] والرهط اسم جمع ليس له واحد من لفظه ويطلق على العدد من ثلاثة إلى عشرة . ومعنى : ﴿ يُفْسِدُونَ ﴾ أى : يعمدون إلى الصالح فى ذاته فيفسدونه ، وفوق ذلك فهم لا يعملون أى عمل صالح ، فطبيعتهم الفساد فقط !

هؤلاء التسعة رهط المفسدون ماذا فعلوا ؟ قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [ النمل : ٤٩ ] انظروا القحة وقلة العقل والفساد ، يبيتون لقتل نبي الله صالح ويقسمون بالله ويتعاهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة النكراء .

ومعنى : ﴿ تَقَاسَمُوا ﴾ أى : هيا نحلف بالله أن نبئت لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته .

ومعنى : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ أى يعدوا له بيئات لا يقوم منه فلا يخرج عليه صباح بعده أبداً وذلك بأن يقتلوه ثم يقولون لأهله وأقاربه وأولياء دمه : إنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا الأمر . وفهموا أن الله يسلم نبيه ويتركه لهم ليقتلوه ولكن الله كان لهم بالمرصاد .

قال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [ النمل : ٥٠ ] فهم يمكرون على باطل ويمكرون لتبئيت شر ونسوا أن الله بمكرهم محيط ، وأنه ناصر رسوله ومؤيده .

والمكر : أن تنوى فعل شئ وتداريه على الخصم ، تظهر غير ما تبطن .

ومعنى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفيد أن المكر يجب أن يكون محبوباً ومتوارياً لا يحس به أحد وإلا لو شعر به أحد أو علم به لما كان مكرراً .

ولكن ماذا كانت نتيجة مكرهم ؟ قال تعالى : ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ النمل : ٥١ ] فكيف حدث ذلك ؟ إن الرهط ذهبوا لينتظروا صالحاً في مكان عند سفح الجبل واحتبأوا فيه حتى يمر بهم صالح فيقتلوه ، بينما هم جالسون في هذا المكان أسقط الله عليهم صخرة قضت عليهم . فهم أرادوا أن يهلكوه فأهلكهم الله وقومهم أجمعين قال تعالى : ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ النمل : ٥١ ] ﴿ لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [ النمل : ٥٢ ] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ [ الأعراف : ٧٨ ] فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴾ [ الأعراف : ٧٩ ] .

وقوله سبحانه : ﴿ جِثِيمِينَ ﴾ أى : حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التي كان عليها فالذى كان واقفاً ظل على وقوفه ، والذى كان قاعداً ظل على قعوده ، وكذلك الذى كان نائماً . أخذوا جميعاً على هيئاتهم . ويعطى لنا القرآن الكريم صوراً مختلفة لتأديب الله تعالى لثمود فمرة يقول الحق سبحانه : الرجفة ، ومرة الطاغية ، ومرة الصيحة ، ومرة الصاعقة . وكلها تؤدي معنى الحدث . وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه . وقوله تعالى : ﴿ كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا ﴾ [ هود : ٦٨ ] أى : كأنهم لم يقيموا فيها ، لأنها أصبحت خالية وكأنها لم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ شَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ [مرد : ٦٨] هذه حيثية  
إهلاكهم وهم لعنوا فى الدنيا والآخرة ، وقد أعطانا الحق سبحانه بشاعة  
جريمتهم حتى نعرف أن القصاص عدل ومناسب لبشاعة الجريمة فنقول كما  
قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا بَعْدَ لَشَمُودَ ﴾ [مرد : ٦٨] .



## نبى الله إبراهيم عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَذَكَرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ [إبراهيم : ٤١]  
 إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو القمة لأن الله حينما مدحه قال عنه :  
 ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٠] ومعنى ﴿ كَانَ أُمَّةً ﴾ : أنه أخذ المواهب والكمالات الموجودة فى أمة كاملة . ومعنى  
 الصديق : هو الذى بلغ النهاية فى تصديق الحق . فيورثه الله شفافية وإشراقاً  
 فإذا سمع شيئاً عرف من أول نظرة الحق من الباطل ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَشَاءُوا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] أى : يعطيك  
 موازين تفرق بها بين الحق والباطل دون أن تبحث المسألة وتتعب فيها .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا  
 يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٦﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ  
 فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم] قوله : ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ كان الأمر  
 سينصرف لأبيه الحقيقى لكن ذكر فى مرة واحدة أن أباه أزر فى قوله تعالى :  
 ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ [الأنعام : ٧٤] ولا يؤتى  
 بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان يقصد به العم . فالقرآن اعتبر العم أباً . فكأن  
 الأبوة شائعة بين الأب الحقيقى والعم . هب مثلاً أن واحداً يسأل ابناً عن أبيه  
 سيقول له : هل أبوك موجود ؟ لكن إذا أراد أن يسأل عن أب غير حقيقى ؛  
 عن عم مثلاً سيقول هل أبوك محمد موجود ؟

إذن .. لا يأتى بالعلم إلا حين يراد به الأب غير الحقيقى . لكن لو كان يريد  
 الأب الحقيقى فإنه يكتبه بقوله هل أبوك موجود ؟





سيستغفر له لأنه لا يرضى له بهذا المصير وحين يستغفر له يعلم أن ربه حفي به وكريم معه ولن يرد له طلبه فهو يريد أن يحزن عمه في اتباع الإيمان كما أنه لم يستغفر له في نفس الوقت ولكنه وعده بأنه سيستغفر له في المستقبل لأنه يريد أن يرى هذا الاستغفار من المجاملة والنفاق والخداع لعمه وحتى يمهله لكي يعود ويرجع عن كفره .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [ مريم : ٤٨ ] كلمة اعتزال معناها : ترك صحبة إلى خير منها ، والاعتزال أمر مطلوب إن وجد الإنسان البيئة غير صالحة للنقاش الباطل من الحق حتى لا تؤصل الجدل فالمسألة مبدأ إيماني . ومعنى قوله : ﴿ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أي عسى ألا أكون شقيا بسبب دعائي لربي وعبادتي له .

بعد ذلك يأتي المقابل في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿١١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [ مريم ] فالقرآن ذكر إسحاق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل فكأن الحق سبحانه وتعالى يتكلم عن إسحاق ويعقوب اللذين منحهما الله لإبراهيم جزاء صبره ونجاحه في ابتلاء الرؤيا وذبح إسماعيل . فحينما صبر إبراهيم عليه السلام على الابتلاء في ذبح ابنه إسماعيل ، وصدق الرؤيا وأطاع هو وابنه أمر الله ، فدى الله له إسماعيل ، ليس هذا فقط ؛ بل وبشره بإسحاق أيضاً وإسحاق سيكون من ذريته يعقوب فبشره به أيضاً لأن إسحاق هو الإبن الثاني لإبراهيم ويعقوب وهو ابن إسحاق وحفيد إبراهيم فكأن الحفيد نافلة في عطاء الذرية قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿١٣﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٧٢ ] .



وهنا أفحمه إبراهيم عليه السلام بسؤال لم يستطع له جواباً وهو قوله : ﴿ قَاتِلِ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، لقد بهت الذي كفر ولم يجرؤ على الرد على حجة إبراهيم عليه السلام وفقد القدرة على مراجعة إبراهيم وحدث البهت لمن كفر ، أمر ليس بعجيب لأنه بلا ولاية من الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان . ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] . والرشد هو اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير بحيث لا يأتى بعد الصلاح فساد ولا بعد الخير شر .

وهذا الرشد له نوعان : رشد بنية ورشد معنى . فرشد البنية هو اكتمال تكوين الإنسان بحيث أن كل جهاز فيه يقوم بوظيفته خير قام ، وهذا يحدث عادة بعد البلوغ هذا بالنسبة للرشد المادى . وهناك رشد أعلى يأتى للقامة الفكرية وهو العقل والذهن الذى يختار به الإنسان بين البدائل وهو لا يأتى إلا من الله سبحانه ، وأعطاه إبراهيم قبل أن يبلغ سن الرشد التى يحتاج إليها غيره من الناس . فقد أنكر على قومه عبادتهم للأصنام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٢] . وهذا ليس استفهاماً حقيقياً ، ولكنه استفهام تقريرى وتوبيخى لهم كأنه ينكر ما هم عليه من ضلال وانحراف ، إنهم كانوا يعمدون إلى أشياء يمكن نحتها أو تشكيلها ويجعلونها على صورة إنسان ويصنعون منها التماثيل الصغيرة والكبيرة . يصنعونها من الحجر أو النحاس والحديد أو العجوة وغير ذلك ؛ ويبالغون فى بعضها فيصلونها من المرمر ويضعون فى عينيه خرزاً لامعاً حتى يخيل للرأى أن له عينين ، فالقوم كانوا يتفننون فى صناعة هذه التماثيل .

ومعنى ﴿ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أى : مقيمون لأن الاعتكاف هو الإقامة ،  
ولأن كلمة عكف معناها أقام ، فالإنسان يعكف على الشئ أى يقيم عنده ،  
واللام فى قوله : ﴿ لَهَا ﴾ ليست بمعنى « على » كما قال بعض العلماء ،  
ولكنها لام الملكية ولام النفعية لأنهم يعكفون لصالح هذه الأصنام كأنها  
تملكهم وتسخرهم كما تريد لأنهم يعبدونها ويتقربون إليها .

فلما سألهم إبراهيم عن سر عكوفهم على هذه التماثيل ردوا عليه بقولهم :  
﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٥٣ ] .

إذن .. لا حجة لهم إلا التقليد .. فليس عندهم حجة لذاتية العمل ولكن  
حجتهم التقليد ، فهم فى ضلال لأنهم قلدوا آباءهم والإيمان لا يكون بالتقليد  
وآباؤهم فى ضلال لأنهم اقترحوا هذه المسألة .

وهذا دليل على عدم الفهم لأن العبادة هى أن يطيع العابد المعبود والأصنام  
ليس لها أوامر وليس لها تكاليف .

وبعد ذلك جاء رد إبراهيم عليهم : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي  
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأنبياء : ٥٤ ] . ولأن هذا الرد كان غريباً عليهم ولم يكونوا  
يتوقعونه ؛ لذلك ظنوا أنه يمزح معهم ؛ ولذلك استغربوا منه أن يصفهم  
وآباءهم بالضلال فكان ردهم عليه : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ،  
فأخبرهم أنه جاءهم بالحق من عند الله بالذى أمره أن يدعوهم إلى نبد عبادة  
الأصنام وأن يعبدوا الله وحده ؛ لذلك قال : ﴿ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٥٦ ] .

وكلمة : ﴿ بَلْ ﴾ تفيد أن كلامهم الذى قالوه وأصنامهم التى يعكفون  
عليها لا تنفع ، لأن الرب المستحق للعبادة هو الله خالق السماوات والأرض .

بعد أن قال لهم هذا الكلام ، وأقام عليهم الحجة ، وبين لهم طريق الحق جادلوا بالباطل ، وتملكهم العناد والغرور ، ولم يستجيبوا له . فبكر إبراهيم في الانتقام من أصنامهم حتى يبين لهم أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع أن تحمي نفسها فقال : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٥٧ ] .

والكيد لا يكون للأصنام لأنها لا تعقل ولا تشعر بشيء ، ولكن إبراهيم بتكسيه للأصنام يكيد قومه الذين يعبدونها فهو يكيدهم في أصنامهم ، أما الأصنام نفسها فهي تسبح لله مثل كل شيء في الوجود ، وتبترأ من عبادتهم لها من دون الله .

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [ ١١ ] فَرَأَى إِلَآءَ الْهَيْبَةِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ [ الصافات ] .  
 كلمة : « راغ » معناها تسلل خفية حتى لا يراه أحد ، وعندما وصل إلى الأصنام أول شيء فعله استهزأ بهذه الآلهة وقال لهم : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، كأنه يعرض عليهم الطعام إن كانوا جوعى فلم يردوا عليه ، فقال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ ﴾ [ الصافات : ٩٢ ] . آلهة لا تنطق ولا تتكلم وكان رده عليهم هو تكسيهم وتحطيمهم ﴿ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [ الصافات : ٩٣ ] . واليمين تعنى القوة والقهر والغلبة .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [ الأنبياء : ٥٨ ] .  
 ومعنى ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ الجذاذ هو القطع المتناثرة مثل الحطام ، فالشيء الذى كان له هيكل ومنظر تقطع وتفتت إلى قطع متناثرة ، فحطم الأصنام كلها وترك الصنم الأكبر لعلهم يسألونه عما حدث لباقي الأصنام ، فلما ذهب القوم كعادتهم إلى مكان الأصنام ووجدوها مكسرة ومحطمة غضبوا

وثاروا . ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٥٩ ] .  
فالذى فعل هذا الفعل فى نظريهم ظالم ومجرم ، لأنه اعتدى على الآلهة  
السليمة وكسرها ، ولكنهم لم يفكروا لحظة فى أن يراجعوا أنفسهم فى عبادة  
آلهة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، لما أخذوا يسألون عن الجانى الذى  
اعتدى على الآلهة وحطمها ، تطوع بعض القوم بالإبلاغ عن إبراهيم بما  
علموا عنه من كراهيته للأصنام ، لأن القوم كان لهم يوم من الأيام يذهبون  
فيه إلى ناديتهم الذى يجتمعون فيه عند الأصنام ، ويضعون لها الطعام  
والقرايين ، وفى هذا اليوم الذى يتجمعون فيه عند الأصنام ، أراد عم إبراهيم  
أن يأخذه معه ، لعله يهتدى إلى عبادة آلهة آباءه وأجداده ، ولعل صنما يجذبه  
إلى عبادته !

وحاول القوم أن يصحبوه معهم ، ولكنه رفض أن يذهب معهم وقال لهم :  
﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [ الصافات : ٨٩ ] ، فأخبرهم أنه مريض ، ولن يستطيع أن  
يذهب معهم ، وعزم فى نفسه على تحطيم تلك الأصنام التى يعبدونها فكأن  
أحدًا سمعه وهو يحدث نفسه بتكسير معبوداتهم ، فأخبرهم بأن فتى اسمه  
إبراهيم كان يذكر الأصنام بسوء ، فاتفقوا على أن يأتوا به على مشهد من  
القوم حتى يكون عبرة لغيره ممن تسول له نفسه التعدى على الآلهة ،  
فلا يجترئ أحد بعد ذلك على مثل هذه الفعلة .

ومعنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أى يشهدون ما سيوقعونه به حتى لا يجترئ  
أحد على مثل هذا الفعل مرة أخرى .

فذهب القوم وأحضروا إبراهيم على مشهد من الناس ووجهوا إليه الاتهام :  
﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [ الأنبياء : ٦٢ ] ، فرد عليهم





ويسمونها الخالفة ، لأنها خالفة الأقسام الثلاثة الموجودة في اللغة هل هذا معقول أن تعبدوا ما تصنعوه بأيديكم وحين يقع تعدلوه ، وإذا كُسر تصلحوه ، وإذا جرفه السيل وغطاه الطين تغسلوه وتضعوه مكانه وتعبدوه ، هل هذا معقول ؟ فماذا كان ردهم .

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَنَا مِثْلَ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [الصافات] .

لم يستجيبوا لنداء العقل بل عزموا على الانتقام من إبراهيم ، واتفقوا على حرقه بالنار ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨] .

شيء عجيب آلهة ينصرها المخلوقون اتفقوا على أن يحرقوا إبراهيم . وروت كتب التفسير ، أنهم بنوا بناء ووضعوا فيه حطبًا وأخشابًا ووقودًا وأشعلوا نارا ، وظلوا أربعين يوما يسجرون فيها ، - يزيدونها اشتعالا - ويلقون فيها كل شيء قابل للاشتعال وبلغ من فظاعة هذه النار أن الطير التي كانت تطير فوقها تقع محترقة ، واستدل العلماء على ذلك من أنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا من النار ليلقوا إبراهيم فيها فصنعوا منجنيقا عاليا ووضعوه فيه ، وألقوه في النار وهم بعيدون عنها ، حتى لا تلفحهم شدة حرارتها ولكن الحق سبحانه الذي تعهد بنصر رسله وعباده المؤمنين . لم يترك نبيه إبراهيم لانتقام الكافرين ولكنه سبحانه حماه وحفظه من شرهم وحينما ألقاه قومه في النار المتأججة ليحرقوه ويقضوا على دعوته يأتيه جبريل وهو في هذا الموقف الرهيب ويسأله ، إن كان يريد منه شيئا فيرد عليه بثقة وثبات « أما إليك فلا » لم يجزع ، ولم يفزع ، بل كان واثقا من نصر الله له فأمر الله النار ﴿ كوني بردا ﴾ وقبل أن يخصص نار إبراهيم انطفاأت كل نار في الدنيا حتى تحدد

الأمر بأنه خاص بنار إبراهيم وحدها فساعة قال سبحانه : ﴿ يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾ [ الأنبياء : ٦٩ ] انطفأت كل نيران الدنيا ، إلى أن قال الحق : ﴿ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ ﴾ فاشتعلت النيران الأخرى ، وامثلت نار إبراهيم للأمر فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم أى بردًا لا يؤذى .

إن معجزات الرسل هي خرق نواميس الكون السائدة لأنه لا يخرق الناموس إلا خالقه سبحانه .

إذن .. الذى يعطل ناموس الأشياء هو خالق الأشياء ، لأن الأشياء لم تخلق ليكون لها القدرة على قيومية نفسها ولكنها مخلوقة لتؤدى مهمة ، ولكن الذى خلقها لهذه المهمة يستطيع أن يسلب منها هذا الوظيفة أو المهمة ، لأن الخالق مسيطر على الناموس الموجود فى الكون .. والنار طبيعتها الاحراق فهى تظل على هذه الحالة بأمر الله - لكن إذا أراد سبحانه أن يسلبها خاصية الاحراق ، فإنه يأمرها بالألّا تحرق - فتتوقف عن الإحراق ، وهذا ما حدث مع سيدنا إبراهيم .

إذن .. معجزة إبراهيم جاءت تحديًا لقومه ، لأنهم أرادوا أن ينتقموا لآلهتهم ، وهى الأصنام بالشكل الذى يجدها والحرق هنا أمام الآلهة وعلى مشهد منها ليكون الإنتقام من إبراهيم انتقامًا تباركه الآلهة ، وتجعله رهيبًا كل شىء معد لتمجيد آلهة غير الله سبحانه وتعالى ، جاءوا بالحطب ، وأوقدوا النار الهائلة ، وآتوا بإبراهيم . والسؤال هنا لماذا جعلهم الله يأتون بإبراهيم ليحرقوه فى النار أمام آلهتهم ؟ كان من الممكن أن يختفى إبراهيم فى أى مكان ولا يظهر .. وكانت هذه مسألة ممكنة تقى إبراهيم الحرق وتجعلهم لا يعثرون عليه - ولكن لو حدث هذا لقالوا لو أننا قبضنا عليه لأحرقناه .. وكانت ستظل قوة الآلهة



أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ... فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم يا كذابون ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له ، لكن إبراهيم استخدم ما يسمى فى الجدل بـ « مجارة الخصم » ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

وحين قال إبراهيم : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هى الرب ، فكأنه قال سلمنا جدلا أنه ربكم لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وأنا ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ [ الأنعام : ٧٧ ] .

وأقول النجم والقمر وغروب الشمس أمور قد شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات ، فلا يمكن أن يكون قد فوجئ بأن النجم قد أفل أو أن الشمس قد غابت ولكنه كان يعلم ذلك جيدا - ولذلك فإن كل حواراه كان سخرية منهم وتهكما عليهم لأنه كان يعلم مقدما أن الشمس ستغيب ، وأن القمر لن يبقى فى السماء طوال الليل والنهار ، ولذلك أراد أن يلفتهم إلى هذه الحقائق التى غابت عن فطنتهم .

ويقول لهم كيف يمكن أن يغيب إله عن خلقه ؟ وفى هذه الحالة يكون المنطق الذى قاله يحقق نيته فى إنكار هذه الألوهية .

ونلاحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب قال : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [ الأنعام : ٧٧ ] . وفى هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ويكون قوله ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ لونا من التهكم .

﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ [ الأنعام : ٧٨ ] كان لا بد من المنطق اللغوى أن يقول : « هذه » لأن الشمس مؤنث لكنه يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيها مطلقاً عن أن تلحق بها علاقة التأنيث ، وحين تأفل الشمس يقول : ﴿ يَلْقَوِ إِيَّيَّ بِرِيٍّ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : ٧٨ ] وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التى قالها ، وحين يسمعها أى عاقل لا بد أن يلحن اتفاقه فى هذا الأمر لأنه كإنسان مؤمن ، لن يغش نفسه وبالتالي لن يغش قومه ، وهذا ما يبينه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، وبعد ذلك تدخل فى العمل المصلح العمل الإيجابى ؛ ولذلك قال لهم : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : ٧٩ ] . إنه يقدم برهانه لقومه ، أنه يعبد الله وحده الذى خلق السموات والأرض رافضاً كل فساد فى الكون ومعنى : ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

هل اقتنع القوم بذلك ؟ لا بل أخذتهم العزة بالإثم وأصروا على الضلال ، ولذلك فقد بدأوا يجادلونه فى الله .

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾  
 كأنه قد عز عليهم أن يعلن إبراهيم أنه توجه إلى الله الذى فطر السموات والأرض ؛ لذلك يريدون أن يصرفوا إبراهيم عن دينه الحنيف . .

ما هى حجتهم ؟ وهل يملكون حجة ؟ طبعاً لا إنهم لا يستخدمون الحجة والمنطق ، بل يستخدمون الخرافة على أساس التخويف ، فيقولون له لو كفرت

بآلهتنا فإنك ستعرض لانتقامها ، وستفعل بك كذا وكذا فيرد عليهم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تخيف أحدًا لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا ، لأن الضار والنافع هو الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول لهم أنتم عبدتم ما لا يضر ولا ينفع ، وأنا آمنت بمن يضر وينفع فمن منا الذى يخاف .

وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن نصل إلى الحقيقة ، دون أن يحرك ذاتية المخاصم التي تأبى أن تنهزم ، وكان إبراهيم يستطيع بدلا من أن يقول : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ﴾ [ الأنعام : ٨١ ] كان يستطيع أن يقول : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ ولكنه لم يقل هذا بل قال : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ [ الأنعام : ٨١ ] حتى لا يتشبث القوم بالباطل ويشعرون أنهم قد انهزموا فى المناقشة .

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أى كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع لأن إقامة الحجة ، على الغير انتصار والانتصار رفع لدرجة موضوعك ولموضوع عملك .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام : ٨٣ ] .

بعد ذلك يذكر الحق سبحانه عن خليله إبراهيم ، أنه لما هاجر من بلاده سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً فبشره الله تعالى بغلام حلیم وهو إسماعيل .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [ الصافات ] وهو إسماعيل عليه السلام ابن هاجر ، وسارة لم يكن معها أولاد ، فلما انجبت هاجر ابنها إسماعيل حدث شيء فى نفس

سارة مما يحدث فى نفوس النساء ، وأخذت تلح على إبراهيم أن يدعو ربه أن يرزقه بغلام منها على الرغم من أن سارة هى التى زوجت هاجر لإبراهيم لكن اشتدت غيرتها منها ، وطلبت من إبراهيم أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما عند البيت الحرام وإسماعيل ما زال رضيعًا ، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا أحد ، فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له الله أمرك بهذا قال : اللهم نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى كان عند مكان لا يرويه استقبال بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّمْرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

فهى مسألة صعبة على النفس ؛ ولذلك فإن هاجر صبرت وتأكدت لها هذه المسألة عمليًا ، فيعطش ابنها وينفذ الماء الذى فى السقاء ، ويتألم الرضيع من العطش فماذا تفعل ؟ تقوم بمجهود بشرى نظرت إلى الوادى جبال هنا وهناك ، فراحت هاجر تستشرف بين الصفا والمروة لعلها ترى نبع ماء أو طيرًا ينزل على مكان ماء .

أو لعلها تعثر على قافلة تعطيها بعض الماء - وظلت تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط - ولنا أن نتخيل امرأة فى مثل عمرها وفى وحدتها وفى مثل ظروفها ماذا يمكن أن تفعل لابنها الصغير العطشان ؟ وعندما يبلغ بها الجهد حد التعب تعود إلى حيث يوجد الوليد ، إن السعى لم يأت لها بالماء ولكنها قالت إن الله لن يضيعنا وصدق قولها لن يضيعنا ، فلو أنها وجدت الماء عند

الصفاء أو عند المروة لما كان لقولها لن يضيعنا مدلول ولكنها أخذت بالأسباب ولم تجد الماء ثم وجدته عند قدمي إسماعيل .

لقد أراد الله أن يقول لها - نعم أنا لا أضيعك لذلك جاء بالماء بلا سبب منك عند قدم الوليد - لقد ضرب إسماعيل الأرض بقدمه الصغيرة ، فانفجرت الماء وبقيت شعيرة السعى بين الصفا والمروة ، لتذكرنا بهذه القضية الإيمانية التي أراد الله منها استيفاء الجمع بين سببية الأسباب فيء الجوارح وبين الإيمان به والتوكل عليه في القلوب .

ثم يكبر إسماعيل ويفديه الله بالذبح العظيم من السماء ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ﴿ وَتَلَّيْنَاهُ أَنْ يَتَّابِرَاهِيمُ ﴾ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّكَ هَذَا هُوَ الْبَلْتُوَا الْمَيِينُ ﴾ ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ [ الصافات ] ، ثم قام إبراهيم وابنه إسماعيل برفع القواعد من البيت ، وهذا يعني أن البيت محددة معاملة أو قد بنى من قبل ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [ آل عمران : ٩٦ ] والناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ولذلك قيل إن الملائكة هي التي بنته ﴿ وَإِذْ رَفَعُ إِبرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [ البقرة : ١٢٧ ] .

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوَكُّرِجَا لًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [ الحج : ٢٧ ] .

حين جاء الأمر لإبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج ، قال يا رب ومن الذي سيسمع صوتي بالآذان ؟ فقال له سبحانه : أذن وعلى البلاغ فصعد على جبل أبي قبيس وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه ، فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام



والأصلاب وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدبر وشجر من كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة قال : « لبيك الله لبيك » ، ومعنى : « لبيك » أى أن كل مشاغل الدنيا تطلبنى وأنت طلبتنى فأنا ألبيك أنت أولاً لأنك خالق الأشياء التى تشغلنى عنك .

ولذلك نحن نحتج عليهم ، حين يزعمون أن الذبيح هو إسحاق ونقول لهم لو كان إسحاق هو الذبيح لكانت عملية الذبح والفداء ورمى الجمرات وغير ذلك من المناسك عندكم فى الشام ، ولكنها هنا فى مكة لأن إسماعيل كان هنا فى هذا المكان .

ثم تذكروا جيداً أنكم قلتم فى كتبكم فى الأصحاح [ ٢٣، ٢٤ سفر التكوين ] إن الله سبحانه أوصى لإبراهيم أن يصعد على جبل فاران وأن يأخذ ولده الوحيد ويذبحه .

فولده الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق .

لأنه ورد فى الإصحاح [ ٢٤ ] [ ولد إسحاق وعمر إسماعيل ٤١ سنة فهذا دليل دامغ من عندكم ومن كتبكم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .



## نبى الله إسماعيل عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنبياء] هؤلاء الأنبياء جميعاً كانوا من الصابرين ، والصبر صفة فى الرسل الذين يرسلهم الله تعالى ، وهؤلاء الثلاثة خاصة اشتهروا بهذه الصفة . فإذا ذكرنا صبر إسماعيل عليه السلام نجد أنه صبر فى ذاته على أن يذبحه أبوه برؤيا منامية وقال له : ﴿ يَتَأْتِيَنَّكَ مَا تَوْعَدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصفات : ١٠٢] فهل بعد هذا الصبر من صبر !!؟ يوافق أباه على أن يذبحه لمجرد رؤيا ، ويصبر فينجيه الله تعالى .

وقبل ذلك يعيش فى واد غير ذى زرع ، ويتحمل الحياة الصعبة فى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء . وحتى عندما كبر واشتد عوده لم يبحث له عن منطقة خصبة ذات رزق وفير ، ولكنه ظل بجوار بيت الله الحرام يرعى شئونه ويعظمه ويقوم فيه الصلاة ويرضى بالقليل من الرزق . ويتجه لهذا الصبر من إسماعيل فإن الله يعطيه ما هو أفضل من الزروع والثمار ومتاع الدنيا كلها ويكفى أن يكون من ذريته محمد بن عبد الله ﷺ سيد الأولين والآخريين . وعن خلق إسماعيل عليه السلام يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ (٥٢) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٣﴾ [الحق هناك يقول إن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد ومع أن كل الأنبياء كانوا صادقين فى وعودهم .



الأمر لأنهم البيعة المباشرة للرجل التي إن صلحت صلح للرجل كل بيته ووصلحت له كل ذريته لأنه إذا كان يأمر أهله بأن يذكروا ربهم خمس مرات فى اليوم والليلة فهذا لا يجعل للشيطان مجالاً للدخول بينهم . ولذلك الرسول ﷺ يقول : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه بالماء » (١) .

ولأجل هذه الصفات المذكورة فيه عليه السلام فهو مرضى عند الله وهو مرضى أيضاً لأن الله اختاره واصطفاه رسولاً (٢) .



---

(١) خرج الحديث

(٢) عن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل أصطفى كنانة من ولد إسماعيل وأصطفى قريشاً من كنانة وأصطفى من قريش بنى هاشم وأصطفانى من بنى هاشم » أخرجه مسلم برقم [٢٢٧٦] .  
وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » أخرجه البخارى برقم [٣٣٧١] .  
وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله : « أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل » صححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم [٢٥٨١] .

## الذبيح .. هو إسماعيل عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَأْتِيَ أَحْفَاجُ الْمُرْتَدِّينَ فَهُمْ يُؤْمَرُونَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ﴿ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّكَ هَلَّا هُوَ الْبَلْتَأُ الْمِينُ ﴾ ﴿ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ سَلِّمْ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ يَبْنِئَا مِن الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ [ الصافات ] .

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً فبشره الله تعالى بغلام حلِيم هو إسماعيل عليه السلام لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل فحين يتمنى رسل الله من الله الدرية فهي ليست كما نتمنى نحن فنحن نريدها ذكراً وعزوة لكن النبي يريد من ابنه أن يكون نموذجاً لإيماننا يرثه في حمل الفضائل وتطبيق منهج الله .  
ولذلك زكريا يقول: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۗ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴾  
فقد عز عليه أن عمره لا يتسع حتى يكون جندياً من جنود بعث منهج الله في الأرض فقال يارب نحن سنموت فأدعوك أن تقر عيني بغلام يأتي بعدى ليقوم بهذا العمل .

ومعنى ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لم يقل رب هب لي الصالحين لأنه أراد أن يهب الله له من ذريته من هو صالح ولكن من ضمن صلاح غيره فقال ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى ليس هو وحده الصالح ولكن معه غيره .

ومعنى ﴿يُغَلِّمِ حَلِيمٍ﴾ الحليم هو الذى لا يستفزه غضب ويتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاق نفسه .

وبشرى الله لإبراهيم بالغلام قبل أن يولد هذا الغلام لأن التبشير بشيء يأتى قبل مجيئه ومع ذلك ذكر وصفه معه فهو غلام وحليم لأن الحلم سيأتى معه وهو لا زال صغيراً وهذا الحليم منه سيظهر فى موقفه من رؤيا الذبح حيث لم يعترض على أبيه لأنه سيدبحه ولكن سلم الأمر لله سبحانه .

هنا انظر إلى التعبير القرآنى فى قوله ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فبعد البشرى لم يذكر شيئاً عن مجئ هاجر من مصر وحكاية السيدة سارة ولكن بعد البشارة ذكر مباشرة قصة الذبح ورؤيا إبراهيم عليه السلام لأنها يفهمها السامع فلا يذكرها القرآن هنا لأن المتحدث رب وقد ذكرت بعضها فى سورة إبراهيم وقصته ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ تدل على أن الغلام ولد وكبر وبلغ سن السعى مع والده .

ونحن نعرف أن الطفل لا يكلف بأمر إلا على قدر طاقته فى الحركة وعلى قدر عافيته وقوته فهو بلغ السعى ولكن مع والده لا مع غيره لأن عوده لم يشتد بعد .  
﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ فهو يقول لابنه أنه يرى فى المنام أنه مطلوب منه أن يذبحه !  
فانظر إلى عظمة الرد من إسماعيل عليه السلام لم يقل له : يا أبت أفعَل ما تشاء أو ما تريد ولكن قال له ﴿يَتَأَبَّتْ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ .

أى أنا أطيع أمرك من باطن أمر ربي فافعل ما يأمرك الله به وهذا يدل على أنه عرف أن هذا الأمر من عند الله لأن رؤيا الأنبياء وهى ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ أى فكر فى هذا الأمر .

وقل لى رأيك فيه فالمطلوب منك شيئان : طاعتك لأبيك وطاعتك لرب  
 أبيك . فقال الابن ﴿ يَا أَبَتِ أَفَعَلَ مَا تُمُرُّنِي ﴾ .  
 ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .  
 كلمة ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى إبراهيم أسلم زمام حركته فى القتل إلى ربه ، أى  
 يارب سأقتله طاعة لك .

وهذا ابتلاء مركب لإبراهيم ابتلى فى شبابه بالرمدى فى النار فنجح فى  
 الاختبار ، لكن حين يشيب الإنسان ويكبر يكون حبه لابنه فوق حبه لنفسه ،  
 ولذلك لا يحب أحداً أحسن منه إلا ابنه لماذا ؟ لأنه الوصل الأخير لحياته .  
 فإسلام إبراهيم أنه أخبر ابنه بما يرى ، وأنه مستعد للتنفيذ بعد اخبار ابنه .  
 وإسلام إسماعيل أمره لله مطيعاً أمره ، راضياً بقضائه ، فربنا سبحانه حين  
 رأى طاعة الإثنين لأمر الله ، وأن إبراهيم ألقى ابنه على وجهه ، وأمسك  
 السكين ليذبحه .

وقالوا إن إلقاء إسماعيل على وجهه جاء باقتراح منه ، حيث طلب من أبيه  
 أن يلقى على وجهه ويذبحه من عنقه ، حتى لا يرى وجهه خلال الذبح ،  
 فتأخذه عاطفة الأبوة ، وربما تعطله عن تنفيذ أمر الله ، فهو يساعده على تنفيذ  
 أمر الله تعالى .

ولكن ماذا حدث بعد أن ألقاه على وجهه وشرع فى ذبحه ؟

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣٧﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٣٨﴾ قَدْ  
 صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٩﴾ [ الصافات ] .  
 هنا الواو فى ﴿ وَنَدَيْنَاهُ ﴾ واو المعية مما يدل على النداء كان مصاحباً  
 للحركة أى فى الوقت الذى هم فيه إبراهيم بالذبح ناداه ربه أن يتوقف بقوله :  
 ﴿ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمَيِّنُ ﴾ .

أى هذا امتحان قاس عليك - وكلمة المبين أى الذى يبين قوة عقيدة إبراهيم فى تلقى الأمر الصارم النفسى من الله - ومع ذلك يياشر تنفيذه دون أن يسأل ربه حكمته .

إن هذا الإبتلاء مركب أولا فقد ولده وموته  
ثانيا : يمكن أن يقتله غيره لا إنه يؤمر بقتله بيده .  
وهذا كله يأتى برؤيا منامية ، فيأتى الجزء على قدر عينات الابتلاء ؛ ولذلك  
كان تدخل السماء رحمة بهذا الشيخ الكبير وابنه .

وقوله : ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴾

والذبيح هو المذبح وهو الكبش العظيم .

إذن .. أمره الله أن يرفع يده لأنه نجح فى الاختبار هو وابنه ، وفداه بذبح  
عظيم وبعد أن كان سيموت ، جعله الله يعيش ، وأعطاه معه إسحاق أيضا  
رغم كبير سنه ، وبشره بأن من وراء إسحاق يعقوب ليس هذا فقط ، ولكن الله  
جعلهم أنبياء فنتيجة التسليم للابتلاء واحد جاءت بكل هذا الخير العظيم .  
إذن .. الإسلام لله خير كله يقول الشاعر :

سلم لربك حكمه فلحكمة يقضيه حتى تستفيد وتسلما

واذكر خليل الله فى ذبح ابنه إذا قال خالقه فلما أسلما

بعض الناس يقولون إن إبراهيم أخاف ابنه وفزعه أياما حين أخبره بأنه  
سيذبحه ، وكان يمكن أن يفاجئه بالذبح دون أن يخبره به ، نقول لهم :  
لا هذا كلام غير منطقى لأن إبراهيم كان لابد أن يفهم ابنه المسألة كلها ،  
لأنه لو فاجأه بالذبح دون أن يخبره بأن هذا أمر من الله ، فإن الولد سيكره  
أباه - فكان لابد أن يشرح له المسألة ، حتى يقتنع بها ويصبر حتى يكون  
الثواب لهما معا .



ولذلك يقول ربنا ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .

ومعنى ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى إبراهيم وإسماعيل أطاعا أمر الله

ومعنى ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أى وضع جبته على الأرض أو على التل .

إن المعركة بين الأديان فى مسألة إسماعيل وإسحاق ، المسلمون يقولون الذبيح إسماعيل ، وغيرهم يقول الذبيح إسحاق ، والقول بأن الذبيح هو إسحاق مردود عليه بأدلة كثيرة :

الأول : أن مسألة الذبح والفداء مكانها هناك فى الحجاز ولو كان الذبيح إسحاق لكان قد حدث فى الشام<sup>(١)</sup> .

الثانى : قول النبى ﷺ أنا ابن الذبيحين وهما إسماعيل الذى فداه الله بذبح عظيم وعبد الله الذى فداه عبد المطلب بمائة ناقة<sup>(٢)</sup> .

الثالث : إن الحق سبحانه وتعالى ذكر قصة الذبيح ثم قال بعدها ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

(١) روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبه قالت أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت أرسل رسول الله ﷺ لى عثمان بن طلحة وقال مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله ﷺ قال إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن أمرك أن تخمرهما فخرهما فإنه لا ينبغي أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى .

قال سفيان لم تزل قرنا الكبش « الذى ذبح فداء لإسماعيل عليه السلام » فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة .

(٢) روى ابن أبى حاتم عن معاوية أن رجلا قال لرسول الله ﷺ يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ .

وهذه الأدلة من عندنا ، فربما لا يصدقها الآخرون ، لكن من فضل الله أنه ترك في كتابهم التوراة مواضع ، يستخلص منها الإنسان الذى يؤيد مواقف الإسلام .

وهذه الأشياء أعماهم الله عنها ، حتى يظل فى هذه الكتب ما يدل على الحقيقة فيها سواء كان مخالفاً أو غير مخالف .

ولذلك جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين فى سفر الخروج :  
« وأوصى الله إلى إبراهيم أن أصعد بابنك الوحيد جبل الموريا وقدمه قرباناً لي »

ونحن هنا نسأل متى كان إسحاق وحيداً ؟  
مع أن إسحاق ولد وعمر إسماعيل أربعة عشر عاماً كما ورد ذلك فى الإصحاح ٤٢ حيث يقول :  
« وولد إسحاق وعمر إسماعيل ٤١ سنة » .  
فهذا دليل دامغ من عندهم ومن كتبهم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .



## نبي الله لوط عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] لم يقل الحق هنا وإلى قوم لوط أخاهم لوطاً وذلك لأن لوطاً ، لم يكن من هذا المكان . فلوط كان هو وإبراهيم من مدينة بعيدة ثم جاء إلى هذا المكان فراراً من الإضطهاد ، هو وإبراهيم وفي هذه الحالة يكون طارئاً عليهم . ولذلك لم يقل أخاهم ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة ، فعرفوا أخلاقه وصفاته وأنسوا به لفترة من الزمان جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض .

ماذا قال لوط ؟ سألهم مستنكراً ومقرعاً ، إن العقل البشرى الفطرى يستنكر هذه العملية القذرة ، وهذا شيء لم يسبقهم إليه أحد ، ولكنهم فعلوه للشهوة والشذوذ عن الطبيعة البشرية ، وكلمة فاحشة هي التزيد فى القبح أى أن الشيء ليس قبيحاً فقط ، ولكنه زيادة فى القبح . فالذى يأتى أنثى بدون زواج تكون فاحشة ولكن يمكن أن يتزوجها بعد ذلك وتصبح حلالاً ، أما إتيان الرجل ففاحشة بمعنى مركب لأنه ليس مخلوقاً لهذه العملية ولا يمكن أن يصير حلالاً أبداً . فهو فحش مركب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى من بداية ما يقال له أحد أى أنها بدأت بينهم وهذا إستنكار فظيع ، قال عمرو بن دينار : ما رؤى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . فالإنسان وهو خليفة فى الأرض يريد قوتاً ، ويريد إنجاباً ولذلك حين خلق الله الأرض قدر فيها أقواتها ليبقى الإنسان ، وخلق فيها الذكر والأنثى لبقاء النوع ، وعندما

توضع الشهوة فى مكانها يتم الإنجاب ، وإذا عزلت الشهوة عن مكانها ، كان ذلك سبباً فى عدم بقاء النوع ، إذن .. تكون قد أفسدت فى الكون لأنك عطلت الإنجاب ، وعطلت عمارة الأرض .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَأَتَّوْنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨١] .

والإسراف هو تجاوز الحد، والله وضع لنا مصرفاً للشهوة وهى المرأة ، وجعلها وعاء للإنجاب فهى تعطينا الشهوة وتعطينا الإنجاب ، ولكن إذا كانت هذه العملية مع الرجال فهى تجاوز للحد لأنها بُعد عما شرع الله ، وانقياد لشهوة الإنسان فى غير ما أحل الله ؛ لذلك فهم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من سورة الشعراء : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ [الشعراء] إستنكاراً لهذا الفعل الشائن الذى إنفرد به قوم لوط على سائر الناس ويقول لهم نبيهم لوط : لماذا تفعلون الفاحشة ، وعندكم حرثكم الذى أنعم به عليكم ربكم زوجاتكم .

فالله جعل للأزواج محلاً للاستنبات فى زوجاتهم ، قوم لوط تجاوزوا محل الاستنبات الحلال واستبدلوه بالموضع الحرام ، والعادى الذى شرع له شىء يقضى إربته وحاجته فيه فتجاوزه إلى شىء آخر حرام .

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : ٥٤] أى وأنتم تتعاملون بها وتتجاهرون مما يدل على أن الكل مجمع على هذه الفاحشة ، وأنه لم يعد هناك حياء أو أن المعنى : كيف تفعلون ذلك وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب

الفساد من عذاب وهلاك . ثم يقول بعد ذلك : ﴿ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً  
مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَٰجِلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥] فى ظاهر الأمر أنها تخالف  
قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ لأنهم ما داموا يبصرون ويعلمون ويرون فكيف  
يجهلون .

الجهل هنا ليس ضد العلم ، ولكنه مرادف السفه . فالناس يفهمون الجهل  
على أنه عدم العلم ، مع أن الأمية هى ألا تعلم والجهل أن تعلم قضية مخالفة  
للواقع . فالأمى خالى الذهن ، تقول له القضية فإخذها و كفى ، لكن الجاهل  
عنده قضية مخالفة فأنت تحتاج معه إلى عمليين : أن تنزع الباطل أولاً ثم  
تدخل له قضية الحق وهذا شىء يحتاج إلى جهد كبير ، فالذى يتعب العالم  
هو الجاهل لا الأمى .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا  
أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] قول لوط  
أشعر قومه بعقدة الذنب وفحش ما يحدث ، فقالوا : الحل أن نخرج لوطاً  
وقومه من القرية لأنه جاء ليفسد علينا شيئاً نتمتع به ، وحتى فى علة الإخراج  
لم يكن هناك أى منطق إلا أن لوطاً ومن معه يريدون أن يتطهروا من قذارة هذه  
القرية وما يحدث فيها . والحق فى آية أخرى يقول : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ  
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٧] أى إذا لم تكف عن لومنا ونهينا عن  
فعل الفاحشة ، لتكون من المطرودين خارج بلدتنا .

قال تعالى : ﴿ فَأَجْبِئْتُهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ﴾ [الأعراف : ٨٣] هذا دليل على  
أن الحق سبحانه وتعالى قد أنجى أهل بيت لوط وأتباعه الذين هم أهل كل  
رسول . فأهل الرسول هم أصحاب الأعمال الصالحة الذين يتبعون منهجه .

فزوجة لوط لم تدخل في الإنجاء ، لأنها كانت من الغابرين ، ومعنى الغابرين :  
أقام ، ومعناها : مضى ، وهذين المعنيين ملتقيان فما دامت لم تخرج مع لوط  
وبقيت في مكانها فقد بقيت في المكان الذي سينزل فيه العذاب . وما دامت  
قد بقيت في المكان الذي سينزل فيه العذاب فقد أصبحت من الماضين لأنها  
ستهلك . أصبحت تاريخاً .

كأن الله يخبر رسوله لوطاً بأن هذه الزوجة لم تكن أهلاً للزواج من نبي ،  
وخاتته في نبوته ، ستهلك مع العصاة المذنبين ، ستظل في الدار ولا تخرج  
معك ضمن من اتبعك من أهلك ، وسيجرى عليها ما يصيب غيرها من  
الهالكين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ  
وَأَمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا  
عَنَّهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [ النحر : ١٠ ]  
وخيانة امرأة لوط كانت النميمة فقد كانت تخبر الناس إذا نزل به ضيف  
تعطى إشارة لقومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال .  
فعرض النبي مُصان عن الزنا وغيره حتى لا يتبادر إلى الذهن المعنى القريب  
للخيانة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الرسول مع أنه مرسل من  
الله لا يستطيع أن يفرض إيماناً حتى على امرأته ، لأن حرية الإعتقاد وحرية  
العقيدة قد كفلها الله للإنسان ، ليكون الحساب عدلاً في الآخرة . فالله  
ضرب المثل برسولين من رسل الله لم يستطيعا أن يرغما زوجتيهما على الإيمان .  
وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ليرينا أن فرعون المتجبر مدعى  
الألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن به وتكفر بالله .

نبي الله لوط عليه السلام ١١٢

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْتَدِلَاتٌ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [مرد: ٧٤] هل كان إبراهيم يجادلهم في تعذيب قوم لوط ؟ ويطلب إعطاءهم مهلة عسى أن يؤمنوا لأن قلبه رحيم ؟ الحق تعالى قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [مرد: ٧٥] والحليم لا يعجل بالعقوبة ، وأواه يتأوه وهو من رقة القلب ، ومنيب أى يعود ويرجع ، فهو حليم لا يحب العجلة فى العذاب ولذلك يقول يارب اتركهم قليلاً عليهم يتوبوا ويؤمنوا ، ومتأوه لله سبحانه وتعالى يرجوه أن يرحمهم ومنيب أى عندما يعرف الحق يلجأ إليه ويلتزم به . ولذلك عندما قالت الملائكة : ﴿ يٰٓإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ [مرد: ٧٥] .

فقد انتهى الجدل تماماً وما دام أمر الله جاء فله حكمة ولم يجادل ، حيث أن العذاب الواقع بهم لا جدال فيه ولا شفاة ولا يرد ، لأنه أمر الله فلا يستطيع أحداً رده .

ويقال إن إبراهيم عليه السلام فى جداله مع الملائكة ، قال لهم : إذا كان فى قوم لوط خمسون يؤمنون بالله أتعذبونهم ! قالوا : لا ، قال وخمسة وعشرون قالوا : لا ، قال وعشرة قالوا : لا ، قال وواحد قالوا : لا قال إن لوطاً فيهم ، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] إلى هنا توقف الحديث بين إبراهيم والملائكة .

ويذهب الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط لتنفيذ مهمتهم ، ماذا حدث عندما وصلوا إلى لوط ؟ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَمَا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ [مرد: ٧٧] .

لماذا ؟ لأنه عندما رأت امرأة لوط هؤلاء الرجال قادمين صعدت إلى سطح البيت وأوقدت ناراً لتحدث دخاناً كثيفاً إشارة إلى القوم أن هناك ضيوفاً قد وصلوا ، وأنهم حسنوا المظهر ويستحقون أن يفعل بهم آل لوط ما يفعلونه بالرجال .

فلوط حين وصل إليه القوم ، قال : هذا يوم عصيب يعنى يوم صعب لأنه يلاقى فيه أذى كثيراً . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ٧٨] . فلا أحد يخشى أو يمتنع لأن ما يفعلونه مع الرجال من الفاحشة قد تعودوا عليه . أقبل قومه على بيته بسرعة وإندفاع وفى أعداد كبيرة وهو يعلم نيتهم من سوابقهم . فقال لهم : ﴿ قَالَ يَنْقُورِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] .

ومعلوم أنه لم يؤمن برسالة لوط عليه السلام إلا هو وبناته ، إذن .. فلم يكن المقصود بنتيه لأنهما لا يكفیان هذا العدد الكبير . إن لوطاً يحاول أن يهدى قومه ويدفعهم إلى الزواج ولذلك فقوله بناتى يعنى بنات القرية بدليل قوله : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أى أن زواجكم من البنات أطهر لكم مما ترتكبونه من فاحشة مع الرجال ، فالزواج شريعة الله والفاحشة مع الرجال إثم عظيم ، وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ الخزى هو الفضيحة أمام الناس وقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى رجل يقف مع الحق ويمنع هذه المهزلة . قوم لوط أرادوا أن يحاجوه بالباطل فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩] . يعنى أنت تعلم أنه ليس لنا حق فى بناتك وأنت تعلم أننا لا نريد البنات ولكننا نريد ضيوفك ذوى الهيئة الحسنة لنتركب معهم الفاحشة . فأحس لوط بالضيق الشديد والعجز فقال كما يقص نبي الله لوط عليه السلام



علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ زُكَيْنٌ شَدِيدٌ ﴾  
أتمنى أن أجد من الأقوياء من ينصروني عليكم فأوى إليهم ليدافعوا عني .  
عندما بلغ الضيق بلوط منتهاه ، تكلمت الملائكة ، فماذا قالت : ﴿ قَالُوا  
يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمُوكَ  
مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ  
الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ أطلعوه على الحقيقة ، وهى أنهم لم يأتوا ضيوفاً ولكنهم رسل  
من الله ، وأهل القرية لن ينالوا منهم شيئاً ولن يصلوا إلى لوط نفسه . ثم  
أبلغوه أوامر الله بأن يخرج بأهله ليلاً ، دون أن تتجه أنظارهم أو قلوبهم إلى  
ما تركوه إلا امرأته فإنه سينزل بها العذاب ، وأبلغو لوطاً عن موعد العذاب  
بأنه الصبح .

ماذا حدث بعد ذلك لقوم لوط ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٤] المطر  
عادة هو الذى يأتى بالخير والماء ولكن هذا المطر لم يكن خيراً ولم يكن ماء بل  
كان حجارة إنهالت عليهم من السماء ، فأعتبر يامن تسمع هذه القصة بما  
يحدث للمجرمين الذين يصادمون ويعاندون دعوة الله ويصرون على المعصية  
فينزل عليهم غضب الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِهَا  
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ ﴾ [هود : ٨٢] أى قلبت  
رأساً على عقب ، وكون هذا الإنتقام ، جعل عاليها سافلها فلا بد أنه كان  
إنتقاماً منظماً ومدبراً بدقة .

وقوله تعالى : ﴿ مُسَوِّمَةٌ ﴾ [هود: ٨٣] أى معلمة كل حجر ينزل على صاحبه مثل الصواريخ الموجهة كل صاروخ متجه لهدف معين بدقة لا ينحرف عنها .  
وقوله تعالى : ﴿ مَنصُورٌ ﴾ أى منظمة ولها أوامر خاصة بها من الله سبحانه وتعالى متى أمر إنهمرت معدة من قبل وموجودة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣] أى أن هذه الحجارة معلمة وموجهة ، ومساكن لوط قريبة من الكفار يستطيعون أن يذهبوا إليها ليروا آثار عذاب الله ، فليحذر كل ظالم ، فإن عقوبة الله ليست ببعيدة عنه ولا هو بمنأى عنها .



## نبي الله إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الصفات] .  
وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة ولما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجَلٍ حَنِيدٍ ﴿١١٥﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿١١٦﴾ وَأَمْرًا تُهْرَقِيمُ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿١١٧﴾ قَالَتْ يَوْنَيْتُكَ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١١٨﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ [مرد] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٠﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أُبَشِّرُقُمُونِي عَلَيَّ أَن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشَّرُونَ ﴿١٢٣﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفٰئِطِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الحجر] .

وقال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٢٦﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿١٢٧﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴿١٢٨﴾ فَفَرَّيْتَهُ لِيَتِيمٍ قَالَ إِلاَّ تَأْكُلُونَ ﴿١٢٩﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿١٣٠﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿١٣١﴾ قَالُوا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الذاريات] .





وهذا يدلنا على سلوك إبراهيم الإيماني ، عندما جاء الملائكة على هيئة بشر لم يطلبوا منه طعامًا ، ولكنه جاءهم بالطعام دون أن يطلبوه ، فإذا جاءك ضيف لا بد أن تأتيه بما يأكل وما يشرب ، فإذا امتنع عن الأكل تلح عليه كما قال لهم إبراهيم ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

قال أحد العارفين إنه عندما قال إبراهيم للملائكة ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قالوا لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمنه ، فقال إبراهيم مما علمه الله من حكمة النبوة : ثمنه أن تبدأوا ببسم الله وأن تنتهوا بقولكم الحمد لله ، فالثمن باسم الله أولاً والحمد أخراً فتكون قد أديت للطعام حقه .

وعندما رأى إبراهيم أيديهم لم تُمد إلى الطعام نكرهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠] .

لماذا وجل منهم ؟ لأنهم جماعة جاءوه وهو لا يعرفهم ، هذه واحدة

ودخلوا عليه بغير استئذان ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ [الحجر: ٥٢] .

فكانه لم يقل : ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴾ [الحجر: ٥٢] . إلا بعد أن أوجس منهم

خيفة - والوجل اضطرب في النفس وقلق فيها من خوف ما يتوقع من المكارة .

فعندما لاحظ إبراهيم عليه السلام ، أنهم لا يأكلون خاف منهم ، ولكن

هذا الخوف ظل حبيسًا من نفسه ، ولم يقم بأى فعل يظهر خوفه كأن يترك

المجلس ويمشى أو ينادى على اتباعه أو يفعل أى فعل آخر ، ولكن الملائكة

أحسوا بخوف إبراهيم فأرادوا أن يطمئنوه بأنهم لم يأكلوا - ليس لأنهم

جاءوا يقصدون الشر - ولكن لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون - جاءوا

لينفذوا مهمة كلفهم الله بها .



والبعل هو النخل الذى لا يحتاج فى زراعته أن يُسقى وإنما يكتفى بما يمنحه من الأرض وما ينزل من مطر السماء .  
والشئ العجيب هو الذى يقع على غير انتظار ويخالف سنة من سنن الكون .

وإبراهيم عليه السلام فى سورة الحجر لم يقل عن زوجته إنها عاقر أو عجوز بل قال : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا يُبَشِّرُونَ ﴾ [ الحجر : ٥٤ ] ولم يذكر أن زوجته عاقر وعجوز ، ولم يأت بسيرتها حتى لا يجرجها ، ولكن امرأته حينما تكلمت جاءت بسيرة زوجها فقالت : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ ﴾ .

ولكن الملائكة تبشرهم بسلام عليهم ؛ ولكن هل الغلام يوصف بأنه عليم ؟ لا يوصف بهذا وهو غلام ، ولكنهم يبشرونه بأنه سيصير إلى مرتبة أن يكون عليمًا ، فكأنهم أعطوه صفة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا يُبَشِّرُونَ ﴾ أى بشرتمونى بالسلام العليم مع أن الكبر مسنى فهنا ﴿ عَلَىٰ ﴾ بمعنى « مع » فالكبر مصاحب لى فكيف ستبشروننى ؟

ولذلك جاء القرآن بـ ﴿ عَلَىٰ ﴾ هنا ليدل على أن خلق الله أعلى من قانون التكوين ، لأن الكبر كان يوحى أنه لا إنجاب ، ولكن لما أراد الله سبحانه ذلك فلا راد لمشيئته ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [ إبراهيم : ٣٩ ] .

فكأن قانون الكبر لا يعطى ولدًا لكن هبة الله أعلى من هذا كله .



إن السيدة سارة هي التي زوجت هاجر لإبراهيم ، ولكن لما أنجبت هاجر ولم تنجب هي حدث في نفسها شيء مما يحدث للنساء في مثل هذا الموقف . وأخذت تلح على إبراهيم أن يدعو ربه أن يرزقه بغلام منها فاستجاب الله دعاءه وأعطاه الولد .

ولذلك ردت عليها الملائكة : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

أى أن ما سيحدث هذا من الرحمن ومن البركة لماذا ؟  
﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ .



## نبى الله شعيب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَتَقَوَّمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود] .  
ومدين هو اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام .  
وشعيب عليه السلام ، ككل رسول جاء إلى قومه أختير من أهله وعشيرته ،  
ليكون معروفاً لهم قبل الرسالة وبعد الرسالة .

وقوله تعالى : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ يعنى إياك أن تأخذ الأمر بـ « أفعل ولا تفعل » إلا من الله سبحانه وتعالى فلا تكليف من أحد آخر لأن هناك إلهاً واحداً .

وحينما جاء شعيب إلى قومه يطلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان ، فالذى يحكم البائع والمشتري هو المكيال والميزان ، فإنك إن كنت مشترياً فالمطلوب من البائع أن يعطيك حقه ، ومن جانبك عليك أن تعطيه حقه ، فالقضية ليست قضية كتل يوزن بها ولكنها قضية حقوق الناس فيما بينهم . وساعة ترى مجتمع أحتلت فيه قضية المكيال والميزان عليك أن تعرف أن المجتمع قد اتبع هواه ، وأنه أنصرف عن الحق . أى أنه مجتمع تضيع فيه حقوق الناس .

على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ لأن عندكم ما يكفيكم من مال لحياتكم ، وما يغنيكم عن سرقة غيركم ، فاكتفوا بالخير الذى أمركم الله به وليأخذ كل واحد منكم حقه .

وقوله تعالى : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أى عذاب يوم لن يفلت منه أحد فعذاب الدنيا من الممكن أن يحتال البعض للنجاة منه ، ولكن فى الآخرة لن ينفع شىء من هذا .

قوله : ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [مرد: ٨٤] إذن .. فقوله : ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا ﴾ و ﴿ أَوْفُوا ﴾ الاثنان مطلوبان لأنه ليس المقصود هو المكيال ، وإنما الكيل بإطلاقه ، وليس المقصود هو الموزون ، ولكنه الميزان بإطلاقه ، فأعدل ولا تنقص ولا تزد ، وقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَتِلْ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ أَلَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [المطففين] .  
إذن .. فالمطلوب لا إفراط ولا تفريط لا زيادة ولا نقص .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [مرد : ٨٥] .

البخس : هو الضرر إما بالنقص إذا كان للشىء حجم ، أو كم ، أو كيل ، وإما بإنقاص القيمة المعنوية للشىء وهذا من الظلم بل هو الظلم بعينه وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهى عنه فى الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فالإنسان مطالب بعمارة الأرض وإصلاحها ، وأقل الصلاح أن تترك الصالح على صلاحه ، فإن استطعت أن ترقى به فأفعل .

وقوله : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، أى : إن كنتم تؤمنون بأن الله رقيب عليكم ، وأن الله قيوم ، وأنكم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً دون أن يراكم ، فراقبوا الله فى أعمالكم ، وأقنعوا بما آتاكم حلالاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : ٨٦] أى : أنا لا أستطيع أن أحافظ عليكم من النار ، بل كل واحد يحافظ على نفسه ؛ ولذلك فإن كل عمل عمله لا تنظر إلى قيمته الدنيوية ، بل احرص على قيمته فى الآخرة . وما دمت قد رضيت ببقية من الله لها بركة فهذا خير لك من الحرام الذى لا يأتى إلا بالشر ، ولا يعطيك إلا كل ما يؤذيك فى الدنيا وفى الآخرة .

ماذا كان داء قوم شعيب ؟ الداء الذى كان منتشرأ فيهم علمناه من قول الله

تعالى : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٧٧﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الشعراء : ١٧٦-١٧٨] . اجعلوا ما تكيلون به صحيحاً ، ولا تغشوا فيه ، ولا تكونوا من الخسرين ، والخسر هو الذى يخسر الذى يقابله إن كان يشتري فهو يزيد فى وزن السلعة التى يشتريها ، وإن كان يبيع فهو يجعلها أنقص من وزنها الحقيقى ، ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى : اجعلوا للناس أشياءهم .

إذن .. كل شىء ينقص بالأخذ منه أو بغصبه ، أو بالتصرف فيه عن غير رأى وإذن صاحبه ، كل ذلك يسمى بخسأ للشىء .

بماذا رد قوم شعيب على ما قاله شعيب لهم ؟ قالوا كما يقص علينا القرآن

الكريم : ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [الشعراء : ٨٧] وكلام قوم شعيب هنا على شكل

تهكم ساخرين مستهزئين رداً على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل ، فى المعاملات وترك عبادة الأوثان التى توارثوا عبادتها عن آبائهم . وإنما خصوا

نبي الله شعيب عليه السلام

الصلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التي دعاهم إليها ، لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، ولأنهم يغمزونه في صلاته بأنها وسوسة خاطر وليست من السماء ، وينكرون بهذا التهكم كل ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسائر الفضائل .

بماذا رد شعيب عليه السلام على قومه ؟ وماذا قال لهم ؟ : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلِكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [ هود : ٨٨ ] أى يا قوم إن كنت على يقين وحجة ومنهج صادق من ربى ، وأعطانى الخير كله من علم ورزق وأعطانى قبل ذلك كله النبوة ، ثم جاء شعيب بالحجة الدامغة فقال : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلِكُمْ عَنْهُ ﴾ ذلك أن صاحب المنهج المعوج والرسالة غير الصادقة ، يأمر الناس أن يفعلوا شيئاً وهو يفعل عكسه ، فشعيب يقول الله سبحانه وتعالى اصطفانى بالنبوة وتلقيت الوحى منه وكلفنى بإبلاغ المنهج ، وسأكون أول مطبق له ، ولن تجدونى أفعل أبداً ما أنهاكم عن فعله .

ثم يقول لهم : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى : لا أريد إلا الإصلاح .. صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتى والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفى فى العمل ، فقد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة لله ، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق ، لأن الأعمال بالنيات وبالإخلاص لله .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ غير قوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فإذا قلت توكلت على الله ، قد تعنى أنك توكلت على الله وعلى فلان . ولكن قولك : عليه توكلت أى لا أتوكل على أحد غيره . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى : أرجع إليه فالله سبحانه خلقنا من عدم فى البداية ، ثم إليه مرجعنا جميعاً فى النهاية . وما دامت المسألة أن التوفيق بيد الله ، وعليه التوكل وإليه العودة ، فأنت غير محتاج إلى غير الله عز وجل ، فاللهم إني أستغفرك من كل عمل قصدت به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك أى دخلت فيه الدنيا ولو قليلاً .

يقول شعيب لهم : ﴿ وَتَقْوِيرَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩] أى لا يجعلنكم تجرمون ، وتحملكم عداوتكم لى ، واختلافكم معى ، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم لوط من النعمة والعذاب . ويحذرهم : ﴿ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ أى أن قوم لوط قريبون منكم زمناً ومكاناً ولو أنكم فكرتم قليلاً لعدتم إلى الله تعالى .

ثم يقول شعيب لقومه : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠] أى رغم كل ما فعلوه فإن باب التوبة مفتوح ، ولا يتطلب منكم إلا أن تستغفروه من الذنوب التى سبقت ، وتوبوا إليه فلا تعودوا لهذه الذنوب أبداً ، والله تبارك وتعالى رحيم ودود ، لا يرد من يقف ببابه ، رحمته سبقت عذابه ، ومغفرته تسع الذنوب جميعاً ، وهو سبحانه رحيم واسع المغفرة وودود محب لعباده .

عندما لفت شعيب قومه إلى أن الله سبحانه وتعالى رحيم ودود وطلب منهم أن يستغفروه ليغفر لهم ويتوبوا إليه .. ماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَحِمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١] ، أى : نحن لا نفهم ما تقوله ، والحقيقة إنهم لا يريدون أن يفهموا ، ونحن نرى أنك ضعيف لا تتحمل وقوفاً أمامنا ، ولولا أهلك لقتلناك رجماً بالحجارة ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ، أى : أنت لا تعز علينا فليس لك منعة عندنا ولا عزة ، فنستطيع أن نأتى بك فى أى وقت وأن نفعل بك ما نشاء وذلك علينا هين .

قال شعيب عليه السلام يذكر قومه بمن هو أقوى منهم : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيَّكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : ٩٢] أى أنكم تخافون عائلتى ، وهم عدة أفراد فتمتنعون عن إيذائى خوفاً منهم ، ولكنكم لا تخافون الله القادر على أن يهلككم ، بينما أنا رسول الله يحمينى الله بقوته وقدرته .

وقوله : ﴿ وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ أى لم تحسبوا له حساباً ولم تخشوه ، ثم يلفتهم إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل ما يفعلونه ظاهراً وباطناً ، فيقول : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أى يعلم ما تفعلونه علم إحاطة لا يخفى عليه شىء ، ولكنكم أنتم نسيتموه وخفتم بعض خلقه أو رهطاً من خلقه .

ثم يقول لهم شعيب كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَيَقَوَّمِرْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوَّاف تَعْمَلُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] تلاحظ هنا أن شعيباً قد

أخذ لهجة التهديد .. لماذا ؟ لأنهم خافوا من أهله ونسوا الله ، فأراد أن يعلمهم أنه مستند إلى أقوى قوة ، وهى قوة الله تعالى خالق كل شىء ، وهو بكل شىء محيط .

أى اعملوا أنتم على قدر إمكاناتكم ، وعلى قدر ما تستطيع الدنيا أن تعطىكم بأسبابها ، وأما أنا سأعمل على إبلاغ منهج الله ، ولن أسكت عن الدعوة وسوف تعلمون قريباً من يأتيه العذاب والحزى فى الدنيا والآخرة . سيئين لنا الزمن المستقبل من الذى سيأتيه العذاب والحزى ، ومن الذى سيكون له النصر .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثُوِّعِدُونَ وَقَصِدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبِعُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف : ٨٦] معناه لا تقدموا الغواية بطرق مختلفة الى الناس ، مستخدمين فى ذلك الغواية أو التهديد ، وكل قصدكم من ذلك هو أن تقنعوا الناس بعدم إتباع شريعة الله . كأن يأتى إنسان ليقول لك : لماذا حرم الله الخمر ؟ مع إنها تجعلك مسروراً ومنسجماً ويظل يزين لك الخمر حتى تقع فى المعصية ، أو يقول لك إن الربا يزيد مالك وينميه ، فلماذا حرمه الله ؟ وهكذا يحاول الشيطان أن يبين للناس أن الطرق المعوجة هى التى فيها فائدتهم ، وينفر الناس من الطريق المستقيم ، مع أن سبيل الله هو الذى فيه الخير وكل ما حرمه الله هو شر كبير للإنسان . وفى لفته أخرى يقول الله تعالى : ﴿ وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] الناس صالحين لعمل الخير وعمل الشر بحكم الإختيار المخلوق فيهم من الله . إذن فلا بد لأى منهج أن يرغب فى الخير ويرهب من الشر . والحق سبحانه وتعالى يذكر هنا الناس ويرغبهم فى الخير فيذكرهم بنعمة الله أنهم كانوا قليلين فى العدد فكثرتهم .

نبى الله شعيب عليه السلام ١٣٠







ماذا قال الكافرون من قوم شعيب : ﴿ وَقَالَ الْكٰفِرُوْنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ لِيْنِ  
 اَتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا اِنَّكُمْ اِذَا لَخٰسِرُوْنَ ﴾ [الأعراف : ٩٠] والخطاب هنا من أئمة الكفر  
 لأتباعهم لما رأوه من قوة وشجاعة وثبات الذين مع شعيب . أى لئن أطعتم  
 شعيب فدخلتم فى دينه وتركتم ملة آبائكم ، إنكم حينئذ لخاسرون دينكم  
 الذى أنتم عليه ، وخاسرون دنياكم بفقدان مزاياكم التى تتمتعون بها بينما من  
 المساومة والتبادل التجارى والرضا عنكم والإخلاص لكم وفقدان المكاسب  
 التى تحصلون عليها بالبخس وتطفيف الكيل والميزان وغير ذلك .

بعد أن فصل شعيب لقومه ما هو مطلوب منهم ماذا كان ردهم على نبيهم ؟  
 قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوْا اِنَّمَا اَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِيْنَ ﴾ ﴿ وَمَا اَنْتَ اِلَّا  
 بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَاِنْ نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِيْنَ ﴾ ﴿ فَاَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ اِنْ  
 كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ [ الشعراء ] .

فهناك اتفاق فى اتهام الرسل فى شيئين : بأنهم مُسْحَرِيْنَ ، وأنهم مثلهم ،  
 وما دام مسحرا فلن يسمعوا له لأنه مجنون ، وما دام بشر مثلهم فلماذا يتميز  
 عليهم بالرسالة ؟ وأنت بشر مثلنا وما نظنك إلا من الكاذبين ، وإن كنت  
 صادقاً فيما تقول فأسقط علينا قطع العذاب من السماء ، فهم يستعجلون  
 نزول العذاب عليهم ، وهذا دليل على حماقتهم لأنهم لو كانوا عقلاء لقالوا :  
 اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا إليه ووفقنا لإتباعه ، ولكن  
 استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب واستعجلوا العقوبة .

ولكن ماذا كان رد نبي الله شعيب عليهم ؟ ﴿ قَالَ رَبِّ اَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴾  
 أى ربي يعلم أحوالكم ، ومطلع على سرائركم ، فإن الله سبحانه وتعالى يعلم  
 أن فى قلوبكم خيراً ، وأنكم ستندمون وتتوبون إليه ، سيؤخر عنكم العذاب

ويحفظكم منه ، وإذا علم أنكم مستمرين على كفركم وعنادكم فسينزل عليكم العقاب الذى تستحقونه من عذاب الهلاك والإستئصال . فأنا لا أعلم ما سيفعله بكم ربى ، ولكنى أكل الأمر لصاحب الأمر الذى يعلم أمرى وأمركم . مضى كل جانب يرتقب .. شعيب والذين آمنوا معه يرتقبون نزول العذاب والحزى بالكافرين . والذين كفروا ينتظرون الفرصة المواتية ليقضوا على شعيب ومن آمن معه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ وكلمة ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ معناها معالجة أى أنه كان محشوراً فى العذاب فقضى الله له بالرحمة ، والرحمة هى : ألا يصيبك مكروه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ [١٥] كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ... [١٥] [مرد] أى كأنهم لم يوجدوا فيها . تمر على هذه الديار فلا تشعر أنهم كانوا يعيشون فيها من قبل .

وقوله : ﴿ كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ [مرد: ٩٥] أى أن الذى أخفى ثموداً ، وما فعلت ، وما حدث لها ، يخفى قوم شعيب ويعددهم عنا فى الدنيا والآخرة .

ويقول الحق تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١] والرجفة : هى الهزة العنيفة التى ترج الإنسان رجاً ، وجاثمين : أى جالسين على ركبهم وقد ماتوا على هذه الهيئة إمعاناً فى إذلالهم فهم استكبروا فى الأرض فأراد الحق أن يميتهم أذلاء .

وقول الحق : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٢] أى : أن القرية التى كانت غنية بمن

كذبوا شعيباً أى أقاموا فيها مدة طويلة ، كانوا هم الخاسرون ، أى : خسروا كل شىء ، جاه الدنيا ونعيم الآخرة .

ماذا فعل شعيب بعد أن أخذ الله الكافرين بالعذاب ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَنَوَلَّيْنَا عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُمْكُمْ بِرِيسَالَةٍ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِكَيْفٍ عَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٣] فكان شعيباً قال للكافرين بعد أن أخذتهم الصيحة : أنه قد أبلغهم رسالة الله ونصح لهم وألح عليهم أن يعودوا إلى رشدهم ، فهو لم يقصر فى حقهم . ولذلك فهم لا يستحقون الشفقة لأنهم أصروا على الكفر .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٨] الأيكة مفرد أيك والأيك هو الشجر الكثير الملتف والمثمر ، ثم يقول الحق : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٩] وشعيب إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة فكانوا مثل ضاحية بينهم ؛ وكذلك جاءت التثنية فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ فقد ضم إليها أهل مدين أيضاً وقوله ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى طريق واضح ، هذا الطريق الواضح يأتى به السائر ليصل إلى بر الأمان باتباع منهج الله .

وقد قال سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] لما استمر القوم فى تكذيبهم لرسولهم وتمسكوا بضلالتهم وكفرهم ، عاقبهم الله بعذاب يوم الظلة ، وهو عذاب مشهور حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، وحجز عنهم الريح إلا بمقدار ما يمسك رمق الحياة ، فصارت حياتهم لا تطاق من شدة الحر ، فالتمسوا غمامة تظلمهم رأوها قادمة فى الجو فهرعوا نحوها مسرعين ، فلما اقتربوا منها أنزلت عليهم ناراً أحرقتهم وأبادتهم .



## نبي الله يعقوب عليه السلام

هو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام ، ومن نسله جاء أنبياء  
بنى إسرائيل (١) .

فالنبوة كانت فى ذرية إبراهيم من ولديه إسماعيل وإسحاق كما قال تعالى :  
﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [ العنكبوت : ٢٧ ] .

(١) قال ابن كثير : ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج من « رفقا » بنت بتوايل فى  
حياة أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت  
غلامين توأمين : أولهما أسمه : « عيصو » وهو الذى تسميه العرب « العيص » وهو  
والد الروم . والثانى خرج وهو أخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل  
الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل .

قالوا : وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما رفقا  
تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر .

وقد دعا إسحاق ليعقوب أن يكون أكبر أخوته قدرا ، وكلمته عليهم وعلى  
الشعوب من بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .

ودعا إسحاق ليعصو أن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم .  
وذكروا أن عيصو تواعد يعقوب بالقتل إذا مات أبوهما . فلما سمعت أمهما  
ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان »  
الذى بأرض حران وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه وأن يتزوج من  
بناته ، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل .

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء فى  
موضع فنام فيه ، فرأى فى نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء ، وإذا الملائكة  
يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له : إني سأبارك عليك  
وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك . =

نبي الله يعقوب عليه السلام ١٣٦

.....  
= فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لمن رجع إلى أهله سالماً ليبنن في هذا المكان معبداً لله عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشرة . ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهناً يتعرفه به وسمى ذلك الموضع « بيت إيل » أى بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك .

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان : اسم الكبرى « ليا » واسم الصغرى « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما وقد تزوج الكبرى ثم بعد ذلك تزوج الصغرى وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة وهذا وحده دليل على وقوع النسخ .

وقد ولدتا له أولاد كثيرة خلال فترة إقامته عند خاله والتي امتدت إلى عشرين سنة فطلب من خاله فى نهاية هذه المدة أن يسرحه ليمر إلى أهله وكان ذلك بوحي من الله تعالى أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعد به بأنه سيكون معه .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم . وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة رجل فخشى يعقوب من ذلك ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن له وناشده عهده ووعدته الذى وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص وأعد لأخيه هدية عظيمة .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة رجل فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان وكان مشروعاً لهم . فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى . ورجع العيص ولحقه يعقوب بأهله قاصدين جبل « ساعير » ثم فر على أورشليم فضرب هنالك فسطاطة وابتنى فسماه « إيل » إله إسرائيل وأمره الله ببناؤه ليستعلن له فيه وهو بيت المقدس اليوم الذى جددته بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التى عملها بوضع الدهن عليها من قبل .

والقرآن نص على نبوة يعقوب ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ  
وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ  
وَالْأَسْبَاطِ ﴾ [ النساء : ١٦٣ ] .

وأثنى الله عليه بقوله : ﴿ وَأذْكَرَ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي  
وَالْأَبْصَارِ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَإِنَّمَا عِندَنَا لِيَمَنَ  
الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [ سورة ص ] .

ونبى الله يعقوب الذى ابتلاه الله كثيرا فحاول أبناؤه قتل أخيهم يوسف ،  
وتعذب يعقوب كثيرا وصبر على ابتلاءات الحق ؛ لأنه يعلم أن الابتلاء كان  
طريقا ليصطفيه الله .

ولقبه إسرائيل وهى مأخوذة من كلمتين من العبرية « إسر » يعنى عبد  
مصطفى مختار و « إئيل » يعنى الله ، أى : أن الكلمة بترجمتها هى صفى الله  
أو عبد الله ، وقد أخذ نبى الله يعقوب هذا الاسم ؛ لأنه ابتلى . بلاء كبيرا  
استحق به أن يكون حفيا لله .

ولم يذكر القرآن شيئا عن حياة يعقوب الخاصة سوى ما ذكره عن فقدان  
ابنه يوسف وما جرى فى ذلك من أحداث سنعرفها كلها فى قصة يوسف  
عليه السلام .

---

= وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية « حبرون » التى فى أرض كنعان  
حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه أبناه  
العيص ويعقوب مع أبيه الخليل إبراهيم فى المغارة التى اشتراها من قبل .

قصص الأنبياء لابن كثير [٢٥٩-٢٦٤] .



لقد أشار القرآن الكريم إلى وصية يعقوب لأبنائه لتكون علمًا لبنيه على مر الزمان والأيام ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [ البقرة : ١٣٢ ] .

إن الوصية : هي أمر يطلب شيئًا نافعًا يطلبه الإنسان في آخر وقت له في الدنيا . لماذا ؟

لأن آخر وقت للإنسان في الدنيا هو وقت الصدق لأن الإنسان قد يغش الناس جميعًا طوال عمره ، لكن لحظة الاحتضار فإن الإنسان لن يغش أحدًا ، لأنه مقبل على الله سبحانه وتعالى ؛ لذلك فإن الإنسان يقول في وصيته كلمة الحق .

لأن الوصية حين يوصى بها الإنسان وهو في حضرة الموت ، إنما تكون خلاصة لتجاربه العقيدية في الإيمان ، يعطيها في آخر فرصة من فرص الحياة لمن يحب .

ولذلك يوصى إبراهيم بنيه ويعقوب بالإسلام وأن يحافظوا عليه حتى الموت ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، فمعنى ذلك أن الأبناء عليهم أن يفهموا أنه ليس باستطاعة أحد أن يضمن عمره ، فالموت ميعاده ليس في يد أحد . إن النهي عن الموت ليس في مقدور أحد ، أما النهي عن عدم الموت إلا وهم مسلمون ، فمعنى ذلك أنه أمر بالأب لا يفارق أحدهم الإسلام .

إذن .. وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهم بعدم الموت إلا بعد أن يكونوا مسلمين ، معناه ألا يفارقوا الإسلام لأن إبراهيم ويعقوب لا يملكان من أمر الموت شيئًا ، لذلك فهذا الأمر إلى أبنائهم معناه : أن يصطحبوا الإسلام طوال الحياة .

وبعد ذلك نجد يعقوب يسأل أبناءه عن عبادتهم بعد موته . ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] . إن ذلك هو إقرار من الأسباط من بنى يعقوب إنه لله واحد ، إنها الملة التي أرادها الحق سبحانه للخلق ملة واحدة هي ملة الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .



## أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام من الأنبياء الذين قص الله علينا قصصهم في القرآن ، وقد ذكر اسمه في القرآن الكريم أربع مرات قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [ النساء : ١٣٦ ] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ الأنعام : ٨٤ ] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٨٣ ] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ نِصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ سورة ص : ٤١ ] .

﴿ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أى دعاه لأن النداء بالنسبة لله دعاء .  
والضرر : ابتلاء فى جسده بمرض أو غيره - وقالوا إن الأنبياء لا يمرضون مرضاً ينفر الناس منهم .

ومعنى الضرر هو الإيذاء فى الجسد أما الضرر فهو أى إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد .

أيوب لما أصابه الضرر صبر - ولكن ألم المرض جعله يدعو ربه أن يكشف عنه ضره ، لأن الإنسان لا يتشجع على الله ، أى لا يعمل نفسه فتوة أمام الله ؛

ولذلك الإمام على لما دخل عليه واحد يعودوه وهو يتألم من المرض ويتأوه ويقول آه - قال له الرجل أتتوجع وأنت أبو الحسن ؟ قال له : أنا لا أتشجع على الله .

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

المس هو الإلتقاء إلهين الخفى ربما دون اللمس .

وقالوا فى قصته إنه مرض مرضًا أثر فى إهابه أى جلده فكان كما قالوا : الشيطان يحوم حوله ويقول له : إن الله قد بعثك رسولاً ، ثم فعل بك هذا ، ثم تركك وهو يستطيع أن يشفيك بـ ﴿ كُن ﴾ وهو يعذبه هذا الألم الجلدى وهو اجس الشيطان ، هل الشيطان يحس ؟ لا الذى يمس ويصنع كل شىء هو الله فكيف يكون هذا ؟ لأن هناك سبب ومسبب فكيف مسبه الشيطان بعذاب ؟ ذلك بوسوسته له فجعل خواطره تنشغل شيئًا بالوسوسة فكان الحق سبحانه وتعالى أراد من أيوب أن يتنبه أن هذه الوسوسة ما كان لها أن تمر بخاطره ، فلما نادى ربه ودعاه حتى يقطع عن نفسه وسوسة الشيطان وهى تحتاج لمدافة ، والمدافة تحتاج لقوة ، وقوته مرهونة بمرضه الذى هو فيه فهو لا يريد أن تضعف قوته بالوسوسة ، فيكفى المرض .

استجاب الله له حين ناداه وكشف عنه الضر ﴿ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا

بِهِ مِنْ ضُرِّهِ ﴾ [ الأنبياء : ٨٤ ] .

فهو كان يشتكى من الضر فأمره الله تعالى ﴿ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ

وَشَرَابٌ ﴾ [ سورة ص : ٤٢ ] .

فالمسألة تحت قدميك مثلما تقول لشخص هذا الأمر تحت رجلك .

والركض : هو القذف بشدة وسرعة مثلما تقول ركضت الفرس أى ضربته  
برجلى من أسفل حتى يجرى .

فلم يقل فركض فخرج له الماء ، كل هذا انطوى بمجرد الأمر طلع الماء هنا  
مغتسل وفيه شراب ، لأن مرضه كان مرضًا جلديا ترك بثورًا فى جلده البثور  
لها تشويه فى الجلد .

فالأطباء حاليا أول ما يعالجون البثور بالمراهم وغيره ، ونقول له إنك عاجت  
ظاهر المرض ولم تعالج سببه ، فالله قال له فى الركضة الواحدة ستشفى البثور  
الظاهرة ، والأسباب التى جعلت البثور تأتى عندك .

فالمغتسل البارد للظاهر وهو البثور والشراب ينهى الأسباب التى جعلت  
البثور تظهر<sup>(١)</sup> .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ [ ص : ٤٣ ] .. قيل يبدو أن بعض الأهل عندما رأوا  
حاله هكذا ابتعدوا عنه فأعدناهم إليه عندما رأوه صحيحًا فجأة ، فهى مسألة  
معجزة .

أى أتينا معهم آخرين بعددهم وهم الذرية والأتباع وغيرهم ﴿ رَحْمَةً مِنَّا  
وَذِكْرَى لِبُأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

ذكر : يدل على أنه لما صبر أتاه الله بالفرج بأن يكون جسمه سليمًا ،  
وأسباب المرض الذى عنده وأهله يعودون إليه ثلاثة أشياء الجسم يصبح سليمًا  
- الباطن يخلو من الأسباب التى تظهر البثور - وأهله الذين ابتعدوا عنه عادوا

(١) أخرج البخارى [٩٧٢] وابن حبان فى صحيحه [٩٢٤٦] وأحمد فى المسند  
[٤١٣/٢] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عريانا فر عليه  
جراد من ذهب فجعل يحثى فى ثوبه فنادى ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟  
قال بلى ياربى ولكن لا غنى عن بركتك » .

أيوب عليه السلام ١٤٣

له مرة أخرى ، والله سبحانه يحب من العبد أن يدعوه ليكشف عنه الضر .  
إذن .. فلماذا يتليه ؟

حتى يجأر إلى الله بالدعاء - ولذلك تقول الملائكة : يارب عبدك ضج من  
الدعاء لك وأنت لم تجبه ، فيقول إن من عبادى من أحب دعاءه فأنا أبتليهم  
ليقولوا يارب ما وضع الرحمة ولماذا ؟ رفقا بعواطفه فرجما عز عليه أن من كان  
حوله تركه فأعدنا له أهله لأن له سابقة ود وحب وحنان .

﴿ وَخَذَ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ ص : ٤٤ ] .

« الضغث » هو الحزمة من الحشيش أو الحزمة من شماريخ النخل « البلح »  
وكلمة ﴿ فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ تلفتتا إلى أن هناك يمين .

قالوا إن الشيطان ذهب إلى زوجته ، وقال لها أطلبي من أيوب أن يقول أنا  
شفانى الشيطان وسأشفيه حالا ، ولأنها مستشرفة إلى أن يبرأ قالت له لقد  
جاءنى خاطر بكذا فقال لها إنه من الشيطان استمعينه ثم تأتى لتقوله لى ؟  
والله الذى لا إله إلا هو لأجلدك مائة .

إذن .. يوجد يمين وهو يريد أن يبر به ويضربها مائة .

فقال الله له خذ حزمة من الحشائش فيها مائة عود أو مائة من شماريخ البلح  
واضربها بها ضربة واحدة فهذه تجعلك تبر فى اليمين .

﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ سورة ص : ٣٠ ] أى : الذى عملناه له جزاء له  
على صبره ، ولأنه رجع إلى ربه حتى جعل الله له شيئاً يرضيه بأنه خفف عنه  
حتى الألم الذى يورثه فى الغير ، أى الذى سيصيب زوجته ليبر بقسمه فلم  
يتركه يجلدتها ، ولكن خفف عنها بأن يضربها بحزمة الحشيش مرة واحدة .



## نبي الله يوسف عليه السلام

هو : الكريم بن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» (١) .

وسئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال : « أتقاهم » فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» (٢) .

الحق سبحانه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] . ورؤيا يوسف تتميز بإعجاز ، فقد رأى الشمس والقمر يجتمعان معاً ، مع أن القمر والنجوم لا يجتمعون مع الشمس فالشمس بضوئها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا ، وشيء آخر في هذه الرؤيا أن يوسف رأى أحد عشر كوكبا وعرف عددها وميزها من دون الكواكب التي تملأ السماء ، وهذا هو الإعجاز الثاني في الرؤيا ، وهو قد رآها أولاً ثم رآها مرة ثانية وهي تسجد له ، وهو سجد تكريم وليس سجود عبادة .

ولكن الأب الممتلىء قلبه حناناً خاف على ابنه من حقد إخوته وهو يعلم شعورهم نحوه ؛ لذلك أسرع يقول له : ﴿ يَبْنَؤُ لَا نَقُصُّ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] .

(١) أخرجه البخارى [٣٣٩٠] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما .

(٢) أخرجه البخارى [٣٣٠٣] ، ومسلم [٢٣٧٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنهما .

رد يعقوب عليه السلام وهو يقول : ﴿ يَبْنَىٰ ﴾ يوضح العاطفة وتحس بعاطفة الأب القوية تجاه يوسف خاصة وهو صغير السن ، ومن قبل قال يوسف لأبيه يعقوب : ﴿ يَتَأَبَّى ﴾ وكلا القولين دليل على قوة العاطفة التي تربط بينهما ، وكلما أصاب الإنسان شيء مفرع أسرع إلى من يحبه ليقص عليه ما حدث .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ ، أى يعقوب يقول ليوسف : أنا مأمون عليك ، ولكن إخوتك ليسوا مأمونين عليك إذا رويتها لى أرسدك للصالح فيه وإذا رويتها لأخوتك حقدوا عليك ، ولو أن يوسف رواها لأخوته لعرفوا تفسيرها ولزاد حقدهم عليه وكرهيتهم له . وقوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ ﴾ معنى الكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مواجهته . إذن .. فلا يكيد إلا الضعيف أما القوى فإنه يواجه .

والله سبحانه وتعالى قال عن النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] ، ومعنى ذلك أن كيد بعضهن أعظم لأن ضعفهن أعظم ، ولذلك فالضعيف إذا تمكن من خصمه قضى عليه .

والله تعالى قال : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ ﴾ إذا قلت يكيدوك أى يفعلوا بك شراً وإذا قلت فيكيدوا لك أى أنهم سيفعلون شراً من جهتهم ولكنها ستكون خيراً لك ولمصلحتك ولذلك يقول الحق : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، أى لصالحه ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] والعداوة بين الشيطان والإنسان معروفة منذ خلق الله آدم .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ





فمن أمثلة الآيات الكونية قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْتُلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالْقَمَرُ ﴾ [ فصلت : ٣٧ ] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ الحج : ٥٠ ] والآيات الكونية هي الرصيد الموجود فى الإيمان ساعة تراها تلفتك إلى عظمة الخلق ودقة صنع الله تعالى وتجعلك تؤمن ان هذا الكون لا يمكن إلا أن يكون خالقه إلهاً عظيماً قادراً حكيماً . إنها الطريق الأول للإيمان بالتأمل فى عجائب الكون وما خلق الله فيه من إعجاز .

أما الآيات التى يؤيد الله بها رسله فهى آيات تخرق قوانين الكون ، مثلاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَنْزِلُ كُوْفِي بَرْدًا وَسَلْمًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [ الأنبياء : ٦٩ ] والله سبحانه وتعالى هو خالق النار وهو الذى أعطها خاصية الإحراق ، فعندما يشاء يسلبها هذه الخاصية فلا تحرق وينجى إبراهيم من النار ، وهذه الآيات التى أيد الله سبحانه وتعالى بها رسله دليلاً على صدق بلاغهم عن الله . أما آيات القرآن الكريم فاقراً قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [ آل عمران : ٧ ] هذا معنى الآيات فى القرآن الكريم يحملن منهج الله إلينا .

قول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّالِفِينَ ﴾ والآيات الموجودة فى قصة يوسف من آيات العجائب التى تثبت القدرة لله تعالى وأنه سبحانه الخالق والفاعل المسيطر ، فيوسف ألقى فى الجب لينتهى أمره ، ولكن إلقاءه فى الجب جعله الله سبباً لكى يأخذه عزيز مصر ليربى فى أعز بيوت مصر ثم يصير له شأن فى الحكم .















## اللَّهُ ينجي يوسف

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ [يوسف : ١٩] ، ﴿ سَيَّارَةٌ ﴾ معناها : قافلة تحترف السير من مكان إلى مكان ولذلك فهي تعرف دروب الصحراء وتعرف مواقع المياه وتعرف أن هناك جباً فيها ماء . والوارد هو الذى يرد الماء ليأتى به لبقية القافلة . والدلو : هو الجردل ، و « أدلى » أى ربطه فى حبل وأنزله إلى مستوى الماء وهذا لقوله : ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ وارد الماء حين ألقى دلوه وجده ثقيلاً بشكل غير عادى فنظر داخل البئر ليرى ماذا حدث ؟ فوجد غلاماً قد تشبث بدلو الماء ، غلام جماله يلفت الأنظار فما كان منه إلا أن قال : ﴿ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامًا ﴾ [يوسف : ١٩] ، فهو يريد من أفراد القافلة أن يأتوا ليشاهدوا بشرى حسنة إنه غلام .

ثم يقول الحق : ﴿ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً ﴾ [يوسف : ١٩] أى أخفوه وسط أمتعتهم خوفاً من أن يكون أهله يبحثون عنه فيأخذونه منهم ولذلك أخفوه كأنه بضاعة وقرروا أن يبيعوه كالبضاعة . ويقول الحق : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : ٢٠] شرى تأتى بمعنى باع وأخذ الثمن والمعنى أنهم باعوه بثمان بخس والبخس هو النقص ولماذا باعوه بثمان بخس ؟ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة خوفاً من أن يأتى ذويه وأهله ويأخذوه منهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ أى لم يكونوا يرغبون فيه ولا فى الإبقاء عليه .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف : ٢١] من هنا نعلم أن سبب الشراء أن الرجل لم

يشتره لنفسه بل اشتراه لامرأته ربما لأنها لم تكن تنجب ، وكانت هذه المسألة تحزنها . وعندما نعلم أن الرجل اشتراه لامرأته ، تعطينا لقطة كبيرة عن دخول الفساد فى البيوت مع التبنى والخدم الذين بلغوا الحلم سواء من الرجال أو النساء وهم وراء هذا الفساد ، فبمجرد أن يكبر المتبنى أو العبد لابد أن يفصل بينه وبين النساء فى البيت لأنه قد كبر وأصبحت له شهوة .

فعن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء » فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أفرايت الحمى قال ﷺ : « الحمى الموت » (١) والحمى : هو قريب الزوج أو قريب الزوجة مما لا يشك فى دخوله . قول الذى اشتراه من مصر لامرأته : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ ، المثوى هو : الإقامة أى أعد له مكاناً طيباً ليقيم فيه فسيكون فيه منفعة عندما يكبر أو نتحذه ولداً وهذا دليل على أن الزوجة لم يكن لها ولد قال : ﴿ عَسَوْا أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْفَعَهُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٢١] أى بعدما كان ملقى فى الجب بدون قميص يلبسه وإخوته له كارهون أخذه عزيز مصر وقال لزوجته أكرمي مثواه وقوله : ﴿ مَكَّنَّا ﴾ أى أكرمناه وهيأنا له بيت عزيز مصر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : ٢١] وتأويل الأحاديث هى الرؤى التى يراها النائم وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر . هذا الحديث يرينا أن الإنسان لا يصلح حكماً على الأحداث : فأخوة يوسف أرادوا به شراً فألقوه فى الجب ولكن الله جعل هذا

---

(١) أخرجه البخارى [٥٢٣٢] ، ومسلم [٢١٧٢] .

الشر الظاهري من أسباب الخير العميم الذي سيصيب يوسف ويجعله عزيز مصر . ولو علم اخوته أنهم بسبب إلقاءهم له فى الجب سيرتفع شأنه ما ألقوه أبداً ، ولذلك يقال : لو علم الظالم ما أعدده الله للمظلوم لظن عليه بالظلم . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : ٢١] لأنه لا قوة فى الأرض ولا فى هذا الكون تستطيع أن ترد أمراً لله تبارك وتعالى .

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] . لا يعلمون ماذا ؟ لا يعلمون أنهم لا قدره لهم فى هذا الكون ولا قوة لهم إلا بما شاء الله . فالله سبحانه وتعالى الذي لا إله إلا هو قال للأرض كوني فكانت وقال للسماء : كوني فكانت وقوله سبحانه : كن نافذ فى كونه . ويقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ والبلوغ هو الوصول إلى الغاية وقوله : ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ﴾ يعنى وصل إلى غايته من النضج والاستواء فكان مهمة الإنسان فى الكون تبدأ حين يبلغ أشده ويصبح صالحاً أن ينجب مثله ويقول تعالى : ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ما هو الحكم ؟ هو الفصل بين قضيتين ، بين خصمين متعارضين حق وباطل ، وما دام الله أعطاه العلم فهو يقدر أن ينقل ما تعلمه لغيره .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ إذن .. فكل إنسان يدخل فى مقام الإحسان أى يعبد الله كأنه يراه يعطيه الله ثمرة إحسانه بأن يمهده بحكمة وعلم والحق يقول ذلك فى معرض الحديث عن نبي فالحكم ليس له خصوصية للرسول ولكنه عام لكل محسن فمن أحسن يعطيه الله حكماً وعلماً لأنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وصف يوسف عليه السلام بأنه بلغ أشده معناه أنه أصبح في كامل فتوته وآتاه الله الأخلاق والعلم ، وكانت امرأة العزيز تنظر إلى جماله وهو صغير نظرة إعجاب ثم لا شيء لأنه صغير السن ، ولكن عندما بلغ أشده أبتدأ خيالها يسرح في أكثر من اتجاه وهذا هو النزوع . فكل عملية شعورية يتعرض لها الإنسان العاقل لها إدراك ووجدان ونزوع ، وامرأة العزيز وصلت إلى عملية النزوع . فالإنسان إذا نظر للشيء وأدرك جماله فهذا إدراك وإعجاب ثم ، يحدث الوجدان وهو أن تجد نفسك مشدوداً إلى جمال هذا الشيء ثم بعد ذلك تأتي عملية النزوع بأن تمد يدك لتأخذ هذا الشيء ، حينئذ يتدخل الشرع ويقول لك لا هذا ليس من حَقِّكَ .

هذا بالنسبة لجميع المخلوقات ما عدا المرأة والرجل ، فالله سبحانه وتعالى رحمة بنا جاء من أول الأمر ، ومنع النظر لأن النظرة تؤدي إلى الإعجاب ، والإعجاب يؤدي إلى النزوع ، والنزوع يؤدي إلى المعصية قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور] وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴿٦١﴾ [النور] وامرأة العزيز نظرت إلى يوسف وأعجبت به وبجماله ، هذا الإعجاب قادها إلى النزوع فراودته عن نفسه ، ولو أنها أمتنعت عن إدراك الشيء أولاً أى أنها لو كانت محجوبة عنه أو هو محجوب عنها ما حدث كل هذا .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأُبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : ٢٣] ما هي المرادة ؟ هي المطالبة برفق وليس في خداع يستر ما تريده ممن تريده منه فإذا كانت المسألة سهلة فالمرادة تنتهي إلى شيء وإذا كانت المرادة غير سهلة كأن تراوده وهو يتأبى أى يمتنع تنتهي إلى مقاومة ومشاجرة . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّقَتْ

الْأَبْوَابَ ﴿﴾ معناها أنها غلقت باباً وراء باب مما يدل على أنها مدركة تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح ؛ ولذلك فهي حريصة على أن تخفى ما ستفعل .  
 وقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى أنها تهيأت له فانتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح فى الطلب ، يوسف عندما رأى هذا قال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّكُمْ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَىٰ إِنَّكُمْ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [ يوسف : ٢٣ ] والمعاذ هو ما تستجيره وأنت لا تستجير إلا إذا كان الأمر فوق قدراتك وطاقاتك فتستجير بمن ينجذك ممن هو أقوى منك . وكلمة « معاذ الله » عند المؤمن إذا قالها فلا بد أن الأمر عصيب .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّكُمْ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَىٰ ﴾ إذن .. فيوسف لم يوافق على ما تريده ، وطلب المعونة من الله وقوله : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَىٰ ﴾ أى نجاني من الجب ومن شر إخوتي وهيألى مكاناً رغداً لأعيش فيه فلا أكافهه بأن أعصيه ، وأن أجعل نعمه على وسيلة لمعصيته خصوصاً أن زوجها - العزيز - قد أكرم يوسف .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى أن الله تعالى يجازى على الإحسان بالإحسان وعلى الظلم بالسوء فلا يفلح من ظلم .

قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [ الرحمن : ٦٠ ] وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [ الشورى : ٤٠ ] .

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ الهَمُّ : هو حديث النفس بالشئ قد يفعل الإنسان أو لا يفعل والعبارة جاءت فى أمر المراودة هى راودته وهو ممتنع إذن فهناك مفاعلة : اثنان يتصارعان على شئ أحدهما امرأة العزيز ﴿ هَمَّتْ يَوْءُ ﴾ والطرف الأخر وهو يوسف ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فبالنسبة لامرأة العزيز حدثتها نفسها أنها تريده

وعندما تكلم الحق عن يوسف قال : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ،  
لو حللنا هذه العبارة تكون ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمم بها ولو  
حرف امتناع للوجود .

نقول : لولا زيد عندك لأتيتك فأنا لم آتتك لوجود زيد عندك . بالنسبة  
ليوسف نقول : لولا أن رأى برهان ربه لهمم بها ولولا معناها : أنه لم يهمم بها  
والامتناع حدث لأنه رأى برهان ربه فكأن العبارة : لقد همت به ولولا أن  
رأى برهان ربه لهمم بها ؛ ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمم بها وتنتهى المسألة .  
الحق سبحانه وتعالى : يقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ولم يقل :  
ولقد همت به ولم يهمم بها . نقول أن الله سبحانه يريد أن يثبت فحولة  
يوسف وأنه لم يمتنع عنها لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف . فيوسف كامل  
الرجولة يمكن أن يهمم بها ولكن الذى جعله لا يهمم بها أن برهان ربه فى  
داخله وهذا البرهان هو الذى جعله لا يهمم بها .

وإذا نظرت إلى القصة تجد أبطالها امرأة العزيز ويوسف والنسوة اللاتي  
دعتهن عندما لنها . والشاهد الذى شهد أنها هى التى راودته والعزيز نفسه  
كل هؤلاء شهدوا أن يوسف لم يفعل شيئاً .

أما يوسف فقال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف : ٢٦] وهى اعترفت بعد  
ذلك أنها راودته عن نفسه وقالت : ﴿ أَلَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ  
وَلَئِنَّمْ لَمِنَ الْعَادِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف : ٥٢]  
أى أنا التى راودته عن نفسه فاستعصم من الخطيئة ولم يقع فى المعصية .  
وتقول كذلك أنى لم أقل عليه كلاماً يخالف الواقع ولقد جاءت آيات الله  
كلها تبرئ يوسف فهى التى همت به وشهدت بأنها هى التى راودته عن  
نفسه وأنه أستعصم ولم يقع فى الخطيئة .

والنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ،  
والله تعالى صرف عنه كيدهن وما دام الله قد صرف عنه كيدهن فالشيطان  
لا يستطيع أن يوسوس له لأن الشيطان لا يدخل في معركة مع عباد الله المخلصين  
ولا يقترب منهم . وقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا  
عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ [ ص ] ، أى الذى يعبد الله مخلصاً له الدين  
لا يقربه ولا يغويه ولقد قال الله تعالى عن نبيه يوسف : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ  
عَنهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ﴾ [ يوسف : ٢٤ ] .

وهناك الشاهد الذى شهد لمصلحة يوسف وقال : ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ  
مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ  
مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [ يوسف ] .

والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ  
مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ﴾ [ يوسف : ٢٤ ] والفحشاء هى الزنا ، فما هو السوء ؟  
السوء هو : المرحلة السابقة للفحشاء هى فكرة الهم وما يصاحبها إذن فامرأة  
العزير راودته عن نفسها وبمجرد أن راودته أسرع إلى الباب فجرت خلفه لعلها  
تسبقه وتمنعه من فتح باب الحجرة . وفى ذلك يقول الحق : ﴿ وَأَسْتَبَقَا  
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ [ يوسف : ٢٥ ] ثم حسم الله تعالى القضية  
حتى لا يكون هناك مجال لاجتهادات بشرية فقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا  
الْمُخْلِصِينَ ﴾ تدل على أن الشيطان لم يكن يستطيع إغواء يوسف على  
المعصية لأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أى أن كل واحد منهما يريد أن يصل  
إلى الباب قبل الآخر ، والسؤال هنا : أن كل واحد منهما يريد أن يسبق

الآخر إلى الباب لماذا ؟ هي المرادة فلماذا تريد أن تسبقه إلى الباب ؟ لتمنعه من الخروج وهو يريد أن يسبقها إلى الباب ليهرب .

هنا ستأتى قضية الشاهد وكيف أستنبط الحقيقة .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقًا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ أى من الخلف وهذا دليل على أنه سبقها يحاول الهرب إذن فهو يريد الخروج . وهى تجذبه بقوة من قميصه لتعيده فقطعت القميص من الخلف . امرأة العزيز حين رأت زوجها أمامها عند الباب وكل الشواهد تؤكد أنه كانت هناك مرادة بينها وبين يوسف أرادت أن تبرىء نفسها وتلصق التهمة بيوسف وبأنه هو المذنب وبأنه هو الذى أراد أن يغيرها على الفاحشة وهى التى صدته لذلك قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥] فهى من غيظها من رفض يوسف لمرادتها له وفضحها أمام زوجها تريد أن تعاقبه بأنه يسجن أو يعذب .

وهنا رد يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف : ٢٦] ، إذن .. فهى ادعت أنه حاول أن يعتدى عليها وهو قال إنها هى التى حاولت أن تغريه على المعصية وعرضت عليه نفسها . العزيز هنا لم يتصرف تصرفاً أهوج بحكم العاطفة وكان من الممكن أن يفعل ذلك فى ثورة غضب ويقتل يوسف ولكنه استمع لشاهد من أهل زوجته حتى لا يظلمها ليفصل فى هذه المسألة ويقول الحقيقة .

الحق يقول : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أى من قرابتها وقيل أنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره وكان من قرابة المرأة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [٦٦] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٦٧] .

الله ينجى يوسف



وبدأ الشاهد بالاحتمال الأول وهو صدق امرأة العزيز وكذب يوسف ، فهو فى هذه الحالة يكون هو المقبل عليها وهى التى تحاول الفرار منه والدفاع عن نفسها . فهى إما من المقاومة تقطع له القميص من الأمام ، أو هو قد يكون من الاستعجال والمقاومة بحيث يطأ هو نفسه على قميصه من الأمام فيمزقه . إذن .. فالاحتمال الوحيد لأن يكون يوسف هو الذى حاول الاعتداء عليها ، أن يكون قميصه ممزقاً من الأمام ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى إن كان قميصه ممزقاً من الخلف فلا بد أنها هى التى راودته عن نفسه ، وأنه حاول أن يهرب منها فأمسكت بقميصه من الخلف فتمزق ، ولا يمكن والقميص ممزق من الخلف أن يكون هو الذى يحاول الاعتداء عليه وهى تدافع عن نفسها .

هذه هى الحجة التى قدمها الشاهد لتفصل بين قولين متعارضين : قول يوسف وقول امرأة العزيز ، إذن .. فالشاهد أصدر حكمه أولاً قبل أن يرى القميص وأعطى الافتراضين ، والدليل على كل منهما ورتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على آخر .

ثم كان الحكم : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك فى الخفاء وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم .

حينما عرف العزيز أن امرأته أرادت أن تخونه مع يوسف وأن يوسف صادق وامرأته كاذبة قال كما قص علينا القرآن : ﴿ يَٰٓيُوسُفُ اعْرِضْ عَنَّا هَذَا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ لِذُنُوبِكُ إِنَّكَ كُنتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٢٩] أى أن العزيز

طلب من يوسف ألا يتحدث في هذا الأمر أبداً حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس . وقال لزوجته : لقد أذنت و كنت من الخاطئين فاستغفرى لذنبك .

لكن كيف خرج الخبر من القصر ؟ ربما يكون الخدم في القصر حينما سمعوا الضوضاء تصنتوا فعرفوا القصة هذا احتمال واحتمال كبير ، وأياً كان الأمر المهم أن الخبر خرج من القصر قصر العزيز إلى نساء المدينة بطريقة ما وأبلغ إليهن . وأقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٠] ، ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ قال العلماء إنهن خمسة : وهن امرأة ساقى العزيز . وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه .

قصة واقعية تتناولها النسوة فيما بينهن في بيوتهن وأن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه أنها بفعلها هذا في ضلال مبين . أدركت حينئذ أن هذا مكر بها وأن قول نساء المدينة ليس غضبة للحق ولا كرهاً في الضلال الذي وقعت فيه إنهن أردن شيئاً آخر هو إذلال كبرياء امرأة العزيز ونشر فضيحتها بأنها وهى امرأة الحاكم تراود من يخدمها عن نفسه . امرأة العزيز تتذلل إلى خادمها وتقدم له نفسها وهو يرفض إنها عملية صعبة ومهينة ، وحين تسمعها امرأة العزيز لا يمكن أن تسكت ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] ،

(١) فى حديث الإسراء الطويل الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : « ... فإذا أنا بيوسف عليه السلام إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير » أخرجه مسلم [١٦٢] .

إنها أرسلت لهن دعوة بالحضور إلى القصر في ضيافتها ، وأعدت لهن المتكأ وهو الشيء الذى يستند إليه الإنسان فى الجلسات الطويلة . وأتت كل واحدة منهن سكيناً وهذا يعنى أنها خططت أن ترد على المكر بمكر أشد . والإنسان حين يستخدم السكين لا بد أن يكون منتبهاً إلى ما يفعل ، لأنه لو ضاع إنتباهه أو انتقل إلى شىء آخر فستقطع السكين يده ، وهذا ما كانت تهدف له امرأة العزيز .

كانت امرأة العزيز تهدف إلى أن يأخذ يوسف بجماله وحسنه انتباه النسوة فيقطعن أيديهن<sup>(١)</sup> . ولذلك قالت ليوسف : ﴿ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَمَا رَأَيْتَهُ أَكْبَرَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [ يوسف : ٣١ ] يقال أكبرت الشىء بأن تكون قد تخيلته قبل أن تراه على صورته ، ولكن حين تراه تجد أن الرؤية أكبر كثيراً من التخيل ، بمعنى أنك تخيلته فى صورة حلوة ووجدته آية من آيات الجمال .

يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أى وجدن صورته فوق كل تخيل بحيث أصابتهن حالة من الانهيار والذهول ، مما رأين أمامهن فنسين أن فى أيديهن سكاكين يقطعن بها الطعام فقطعن أيديهن بدلاً من أن يقطعن الطعام . وقلن : ﴿ حَسَّ لِلَّهِ ﴾ أى تنزيه لله أن يخلق مثل هذا الجمال الأخاذ فى ، يوسف ثم بعد ذلك يجعله يرتكب ما يغضب ربه .

وقولهن : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ لأنه خرج عن كل صور الجمال ، فكأنهن قلن لم نر مثل هذا بين من نراهم من بنى آدم فلا بد أن يكون هذا ملكا . فالإنسان عندما يرى بشراً فيه من صفات الجمال والكمال الكثير فإنه يقول هذا ليس إنساناً هذا ملك . هكذا رآته نساء المدينة فوجدت امرأة العزيز الفرصة لتبرر ما فعلته وترد على كيدهن فقالت كما يقص علينا القرآن

الكريم : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ ﴾ [ يوسف : ٣٢ ] أى فذلك الذى وجهتن إلى اللوم أننى راودته عن نفسه وها أنتن ترين ماذا فعل جماله فى نفوسكن . يقول الحق حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فبعد أن كانت تنكر الحقيقة وتحاول أن تخفيها وتدعى عكسها ، بأن يوسف هو الذى راودها عن نفسها اعترفت بالحقيقة لماذا ؟ لأنها فى المرة الأولى كانت فى وضع الاستنكار ، ولكن بين النسوة اللاتي قطعن أيديهن وقلن هذا ملك كريم ، وجدت المبرر لفعاليتها ، لأنها لم تسمع لوماً أمام الانبهار الذى استقبلت به النسوة يوسف .

ولذلك قالت : ﴿ فَأَسْتَعْصِمُ ﴾ أى فعصم نفسه عن الخطيئة وكلمة استعصم تدل على التكلف والمشقة فى حجز النفس فهل وجد يوسف مشقة ؟ نقول إن الله تبارك وتعالى يريد أن يثبت أن فحولة يوسف ورجولته غير ناقصة وأنه لم يمنعه الإيمان . ولذلك جاهد نفسه ليمنعها .

ولكن امرأة العزيز تجاوزت هذه المرة كل الحدود فقالت : ﴿ وَكَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ لَيْسَجَنَّ وَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ [ يوسف : ٣٢ ] هنا امرأة العزيز تخلت عن حيائها وتحفظها تماماً وقالت : لئن لم يفعل ما أمره به فسأسجنه وأجعله من الصاغرين أى ذليل مهين . فهى توجه كلامها للنساء . أنتن أكبرتن يوسف وأنا سأجعله ذليلاً مهاناً إذا لم يفعل ما أمره به أى : إذا لم يوافقنى على ما أطلبه منه . ويلاحظ أنها قالت ستسجنه وتجعله ذليلاً ولم تقل أنها ستطرده مثلاً أو تبيعه لغيرها لأنها تريد أن تعرف كل الحاضرات أن يوسف لن يخرج من القصر وأنه لن يراه أحد إلا هى فلو أنها قالت أنها ستطرده أو ستبيعه لسارعن لشرائه وأخذه .

يوسف لم يجد في هذا الموقف الذى اتفقت فيه جميع النساء الحاضرات إلا أن يستغيث بالله قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] ونجد يوسف هنا أنه استعان بالله منهن جميعاً فهن لم يراودنه لأنفسهن إذا كان غير ممكن وهو عند المرأة فى بيتها لكن قد يكن أعزُّ المرأة على مطلوبها .

يوسف يناجى ربه قائلاً : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يوسف دعا الله باسم الربوبية ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ ثم استغاث بالله من بشريته فهو بشر تملؤه الرجولة ، وهو فى سن خطيرة سن البلوغ والرجولة ولذلك فهو يستغيث بالله بأن يصرف عنه كيد النسوة ، لأنه إن لم يصرف عنه كيدهن وبقية مما يردن به سيميل إليهن فى هذه الحالة ، ويكون من الجاهلين .

الله تعالى استجاب له ، لأنه لجأ إليه مضطراً لأنه ليس أمامه من الأسباب ما يمكن أن يأخذ به ، فإما أن يصرف الله سبحانه وتعالى عنه كيدهن ، وإما أن يقع فيما لا رغبة فيه لذلك يقول الحق : ﴿ فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّاعِيَةُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٤] سميع لدعوات الداعين له والعليم بأحوال المتنجسين إليه .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٥] .

عندما عرفت النسوة أنه لا فائدة من يوسف تأمرن عليه ليدخل السجن وكان دخول يوسف السجن دليلاً على استبقاء حركة الحب له فى نفوس

(١) أخرجه البخارى [٥٠] ، ومسلم [٩] .

النسوة . فلم يقلن اقتلوه لأنه كان لديهم أمل في أن يقيدن حركته في السجن  
سيجعله يفكر في أن يقبل ما سبق أن رفضه ، وربما الذل الذي سيراه في  
السجن بعد العز الذي كان يعيشه في قصر العزيز يلين من عناده .

ثم تنتقل اللقطة إلى يوسف وهو في السجن ، يقول الحق سبحانه وتعالى :  
﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ  
الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثْنَا بِنُورِ اللَّهِ إِنَّآ  
نُرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ يوسف : ٢٦ ] .

وفي السجن تقرب النفوس من بعضها ، الفتيان رأى كل منهما رؤيا ،  
وطلب أن يفسرها له يوسف ، وهنا نعلم أنهما قد مكثا مع يوسف فترة طويلة  
لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة ، بل لا بد من طول العشرة التي  
جعلتهم يلجأن إلى يوسف في كل أمر يهمهما ، لأنهما رأيا في يوسف  
الإنسان السوي حسن الخلق .

فكل منهما رأى حلمًا ، أحدهما رأى أنه يعصر خمرا ، والثاني رأى أنه  
يحمل فوق رأسه خبزا تأكل منه الطير ﴿ إِنَّا نُرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هي  
سبب سؤالهما له في الرؤيا التي رأياها ، وهذا يدل على أن الإحسان ظاهر في  
يوسف عليه السلام والإحسان هو : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن  
تراه فإنه يراك » . ولأن يوسف إنسان على منهج مستقيم وجد أن هذين  
الشخصين عندهما بداية إيمان ؛ ولذلك قرر أن يعطيها حاجتهما قبل أن  
يأخذ حاجته منهما أولا .

ونلاحظ هنا أن يوسف لم يتحدث عن الرؤيا التي رآها السجينان ، لقد  
أخذ يوجههما إلى الطريق المستقيم دون أن يجيبهما على ما سألاه لأنه

لو أجابهما أولاً لانصرفت أذهانهما عن الانتباه إلى ما يقول من ترغيب فى الإيمان وتنفير من الكفر ، وقال لهما كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ [ يوسف : ٣٧ ] .  
وكانه يقول لهما إنه يعلم أشياء كثيرة غير التى يشاهدها ظاهرة عليه ، ثم أراد أن يأخذهما إلى اللفتة الإيمانية فقال : إن هذه ليست من عندى ولا خصوصية لى ، لأن هذه علمها عند ربى لأنى تركت ملة من لا يؤمنون بالله واتبعت ملة آبائى المؤمنين الموحدىن ؛ إبراهيم ، وإسحاق ؛ ويعقوب ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىْٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِىَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... ﴿٨﴾ ﴾ .  
يقول الحق تعالى : ﴿ يَصْلِحِىَ السَّجِنَ ءَأَزَابٌ مُّتَّفَرِّقَاتٌ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ يوسف : ٣٩ ] . لقد نقلهما يوسف من حاجتهما الشخصية إلى قصة التوحيد وعبادة الإله الواحد ، فهل خير لكم أن تعبدوا آلهة متفرقين أم أن تعبدوا إلهاً واحداً هو الله سبحانه وتعالى ؟! والحق سبحانه حين يضرب لنا المثل على وحدانية الألوهية بالنسبة لعيده يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَحْمَدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [ الزمر : ٢٩ ] .

الله سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً لعبد مملوك لمجموعة من الرجال ، وعبد مملوك لسيد واحد ، العبد الذى له عدة أسياد ليسوا متفقين ، بل هم متشاكون هذا يأمره بشىء وهذا يأمره بضده ، وهو محتار لا يعرف يرضى من ، أو يسمع كلام من أو يتبع من ، والعبد الذى له سيد واحد يكون مرتاحاً لأنه لا يوجد إلا هو الذى يقول فيسمع له ، ويأمر فيطاع ، والله سبحانه وتعالى المثل الأعلى .

وقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَتَيِّتُوهُمَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا  
 أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، ﴿ سَتَيِّتُوهُمَا ﴾ أى اتخذتموها أنتم ،  
 أى أنتم صنعتم هذا الكفر . إذن .. فلم يكن هناك آلهة على الإطلاق وهم  
 أطلقوا أسماء على غير مسميات .

إذن .. فكفرهم تقليداً لآبائهم ﴿ مِمَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أن الله لم  
 يطلب منكم ذلك وليس لكم حجة ، ثم يقول : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ آمَرَ  
 إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] أى لا حكم فى هذا الكون إلا لله ،  
 وما يبلغه الرسل من أحكام يبلغونها عن الله ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَيْتُمْ ﴾ ، أى الدين  
 الحق .

ثم كان تأويل الرؤيا أن قال لهما : ﴿ يَصْجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى  
 رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ [يوسف : ٤١] .  
 هذا تفسير الرؤيا التى قصها الرجلان على يوسف : أحدهما تظهر براءته  
 ويعود إلى القصر ويسقى سيده خمرًا ، أما الآخر وهو خباز فتثبت عليه التهمة  
 فيصلب وتأتى الطير لتأكل من رأسه . ويقال أن أحدهما كان ساقى والآخر  
 خباز والذى سبيراً هو الساقى .

وتتابع حكاية يوسف مع صاحبيه فى السجن إذ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي  
 ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : ٤٢] . قال العلماء عن  
 هذه الجملة إنها جعلت يوسف يبقى فى السجن بضع سنين لأن الأنبياء  
 عملهم مع الله مباشرة لا بواسطة الخلق وما دام يوسف مستقبلاً عن الله فلا بد  
 أن يتجه إلى الله مباشرة ولا يطلب الوساطة من البشر ولذلك حينما قال ذلك ماذا  
 حدث ﴿ فَأَنسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾



والبضع من ثلاثة إلى عشرة وقد حددها العلماء بأنها سبع سنين . فلما ظن يوسف أن الساقى ناج قال له اذكر قصتي عند ربك وهو الملك فنسى أن يذكر مولاه الملك بذلك .

يُعلمنا ربنا كيف يُجرى الأحداث لتتم أقداره دون أن يشعر أحد ماذا حدث ؟ الذى حدث أن الملك رأى فى منامه رؤيا أفزعته فجمع الملك حاشيته وقص عليهم منامه الذى رآه فماذا قال ؟ قال : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتُنونَ فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [ يوسف : ٤٣ ] الرؤيا المنامية تتعارض مع الفكر السليم فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين ؛ لذلك طلب الملك أن يفسروا له رؤياه ماذا قال وجهاء قومه ؟ ﴿ قَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴾ ومعنى ﴿ أَضْغَثٌ أَحْلَمٌ ﴾ أى : أخلط وقالوا أى مختلفة مع بعضها البعض والاضغث هو حزمة حشائش مختلفة الأجناس . والمعنى أنه يوجد اضطراب فى الرؤيا ولا علم لنا بالتأويل .

قال الحق تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [ يوسف : ٤٥ ] ، إذن .. الساقى الذى قال له يوسف إنك ستسقى الملك خمرأ سمع وهو يسقى الملك عن الرؤيا التى رآها الملك والحيرة التى عليها القوم وتذكر بعد فترة قصته مع يوسف وقال ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يعنى : ابعثونى إلى من سيروى لنا معنى هذا الحلم وأرسلوه وأسرع إلى يوسف فماذا قال ؟

قال كما يقص علينا القرآن : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [ يوسف : ٤٦ ] وقوله : يوسف أيها الصديق تدل على أن الله ينجى يوسف

على أنه جربه في مسائل متعددة وكان فيها صادقاً ، وأنه صادق في كل أقواله فكأن الصدق يلزم يوسف في أقواله وأفعاله . وقوله : أفتنا أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحكم كى ننقله إلى الملك لأنه أنزعج . والفتوى المطلوبة فى أن البقر الهزيل يأكل السمين وهذا ضد طبيعة الأشياء وهذه الفتوى التى جاء يطلبها ليست لنفسه ولكن لمن أرسلوه وهو الملك وحاشيته لذلك قال :

﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لماذا قال : ﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ ﴾ ولم يقل : لأرجع لأن الساقى وقد أثر فيه كلام يوسف عن التوحيد والعبودية لله يعلم أن الأمور ليست بيده وهو ليس متيقناً أنه سيعود إلى الملك فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ، فكأن الصدق يلزم يوسف فى أقواله وأفعاله . وقوله : أفتنا أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحكم كى ننقله إلى الملك لأنه أنزعج . والفتوى المطلوبة فى أن البقر الهزيل يأكل السمين وهذا ضد طبيعة الأشياء وهذه الفتوى التى جاء يطلبها ليست لنفسه ولكن لمن أرسلوه وهو الملك وحاشيته لذلك قال :

﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لماذا قال : ﴿ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ ﴾ ولم يقل : لأرجع لأن الساقى وقد أثر فيه كلام يوسف عن التوحيد والعبودية لله يعلم أن الأمور ليست بيده وهو ليس متيقناً أنه سيعود إلى الملك فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ، وذلك إيمان منه بقدر الله مع الإنسان واحتياط أخر منه فى الأداء يقول : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فهب أنه رجع إليهم فمن يضمن له أنهم سيستمعون إليه ويستوعبون ما يقول ؟ وأقر قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأَىٰ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿١٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [ الكهف ]

وساعة تقول إن شاء الله تكون قد لزمت قدرك وأعطيت المسألة لمن يملك الأمر حقيقة (١) .

يوسف عليه السلام أبلغ الساقى تفسير الرؤيا فماذا قال له : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف] . يوسف ذلك سبع شداد يا كلن ما قدمتم هئن إلا قليلا مما تحصنون ﴿ ﴾ [يوسف] . يوسف عليه السلام قال : أنهم سيزرعون سبع سنين يواصلون خلالها الزراعة ﴿ دابًّا ﴾ أى لا يوجد كسل . ونتائج هذا الزرع أتركوه فى سنبله أى لا تتصرفوا فيه بالتجارة ولا المبادلة ولا بأى شىء آخر وخذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام على أن يكون ذلك أقل ما يمكن بقدر الإمكان . ثم يأتى من سنوات الزرع والرخاء سبع شداد أى جذب وقحط سبع سنوات كلها شدة لا تعطىكم شيئاً من القمح فإن لم يكن عندكم من الحصيلة الأولى بقية فستموتون جوعاً .

وقوله تعالى : ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ ﴾ أى من العرق والعمل فى المحاصيل وما حفظتموه فى سنوات الرخاء .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ كلمة حصن معناها الامتناع وهنا بمعنى الإحراز يقولون : بنوا حصناً ليحتموا فيه إذا هاجمهم الأعداء ، بحيث يمتنع على أعدائهم النصر وتمتنع عليهم الهزيمة وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصِنَاتُ ﴾

(١) عن أبى هريرة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة غلاماً يقاتل فى سبيل الله فقال الملك : قل إن شاء الله فلم يقل ونسى فأطاف بهن ولم تلد إلا امرأة نصف إنسان ، قال النبى ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته » أخرجه البخارى [٤٢-٥٢] واللفظ له ، ومسلم . [١٦٥٤] .

مِنَ النِّسَاءِ ﴿ [النساء : ٢٤ ] أى الممتنعات عن الفجور . ويقول تعالى ﴿ أَلْتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [الحرم : ١٢] أى امتنعت عن التفريط فى عرضها ، كل هذا معناه الإمتناع والإحراز .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴾ ، هذا خارج عن الرؤيا لأن الرؤيا ﴿ سَبَّحَ بِقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبَّحٌ عَبَافٌ وَسَبَّحٌ سُبُلْتِي خُضِرٍ وَأُخْرَ يَأْسِنَتِي ﴾ [يوسف : ٤٦] انتهت الرؤيا عند هذا الحد . كلمة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي ﴾ هذه نبؤة من يوسف ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ أى ينزل عليهم الغيث والمطر وهو من الإغاثة والغوث ﴿ يَعَصِرُونَ ﴾ أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب والسَّمْسَمِ والزيتون وقيل : أراد حلب الألبان وقيل هى من العصرة وهى الملجأ والمناجاة .

يقول الحق : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِدُونِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَسْأَلُهُ مَا بِأَلِ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠] وهكذا رفض يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن الذى هو فيه إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها أهل المدينة جميعاً بما فيهم الملك وطلب يوسف أن يسأل الملك النسوة كيف راودن يوسف عن نفسه ، فبراءة الساحة أمرهم بالنسبة لكل إنسان وما دام بريئاً فلا بد أن تعلن براءته ويعرفها الجميع ، لم يرد يوسف أن يخرج من السجن وتلاحقه الإشاعات الكاذبة رغم أن الله سبحانه وتعالى يعلم براءته لكنه أراد أن يعرفها الناس جميعاً لأنه رسول والرسول قدوة سلوكية ولكى يودى رسالته ويتبعه الناس لا بد أن يكون قدوة سلوكية لا تشوبها شائبة .



## اعتراف النسوة ببراءة يوسف

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْتُ حَشَشَ لِيَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ [ يوسف : ٥١ ] والخطب : هو الحدث الهام الذي يتناقله الناس . وكان الملك حين خاطب النسوة بلهجة شديدة لأنه اعتبر أن مراودتهن يوسف عن نفسه عملية خطيرة تدل على انعدام القيم ، فأسرعن ينفين التهمة عن أنفسهن فقلن : ﴿ حَشَشَ لِيَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ونلاحظ هنا أنهن يتحدثن عن مسألة مراودتهن يوسف ، أى برأن يوسف ولم يبرثن أنفسهن : ﴿ حَشَشَ لِيَّهِ ﴾ تنزيهاً ليوسف من أن يفعل ما يغضب الله وقلن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ يعنى يوسف كريم الخلق لا يفعل سوءاً أبداً بالنسبة لهؤلاء النسوة أو غيرهن .

وكانت امرأة العزيز جالسة مع هؤلاء النسوة ولم يشر إليها القرآن إلا عندما تكلمت وقالت ﴿ أَلَيْسَ خَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ حصحص الحق بيان الحق بعد كتمانها أى ظهر وبرز . امرأة العزيز قالت : إنه لم يعد هناك مجال للستر أنا راودته فعلاً وهو صادق . مما يدل لنا على أن الجذوة الإيمانية تتوهج ، وأنه قد ينسى الله ولكن عندما ينتهى الخاطر السىء يعود إلى توازنه الكمالى ، وربما جعل من الزلة الأولى وسيلة للإحسان فيما هو آت .

تقول امرأة العزيز : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [ يوسف : ٥٢ ] يعنى حتى يعلم يوسف أننى فى غيبيته دافعت عنه وقلت وأن الجريمة لا تفيد ولا بد أن يعرف الناس الحقيقة ولو بعد حين .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يعنى أنا لا أريد أن أبرئ نفسى كذباً لأن النفس على إطلاقها تأمر بالسوء ولكن يوسف نفس ولذلك قال القرآن الكريم ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ومعنى غفور : أى للذنوب ، ورحيم : أى يمنع الإنسان بعد ذلك من الوقوع فى الذنب .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ ﴾ من تمام قولها أم لا ؟ بعض العلماء قالوا : إنه من قول يوسف عليه السلام عندما أبلغ أن امرأة العزيز قالت كذا وكذا وهو من باب هضم النفس وعدم التزكية بها ، مع أنه علم هو وغيره والناس أنه برئ وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ ۗ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۗ ﴾ [يوسف : ٥٤] أى أجعله خالصاً لى دون غيرى وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفسية لهم دون غيرهم ولما التقيا قال له الملك ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤] أقالها الملك بمجرد وصول يوسف إلى القصر ؟ لا لا بد أنه جلس وتحدث معه ووثق من علمه ووثق من أمانته وحفظه ولذلك يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ دليل على أن الملك اختبر يوسف مرة وربما مرات ووثق فى علمه وأمانته . ومعنى ﴿ مَكِينٌ ﴾ أى ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك ، ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من امره ، أو على ما يكله إليه من ذلك .

حينما سمع يوسف هذا الكلام وعرف أنه حاز ثقة الملك قال : لو طلبت منه الآن شيئاً لأعطانيه وأنا سأطلب منه ما يتعلق بتفسير الرؤيا ، سأطلب أن أكون على خزائن الأرض لأنقذ الناس من المجاعة ، وأحفظ لهم حياتهم فقال : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] وكان الطلب تأكيداً لثقة يوسف في أن رؤياه ستتحقق في سبع سنين رخاء ، وسبع سنين جدباً . وأنها محتاجة إلى حكمة في إدارة شؤون البلاد في سنى الخصب ، تضمن ألا يحدث إسراف في الاستهلاك ، وفي سنوات الشدة تضمن أن كل محتاج سيجد طعامه ، وهذه تحتاج إلى علم يعطيك حكمة التصرف وأمانة تعطيك العدل بين الناس وخبرة تضع كل شيء في موضعه تماماً ؛ لذلك طلب يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم .

وطالب الولاية في الإسلام لا يولى ولكن الظروف الاستثنائية تتطلب أن من له الحكمة أو الخبرة أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر ، ومثال ذلك قائد سفينة تلاعبت بها الأمواج وقائدها لا يعرف ماذا يفعل فيأتى واحد من الركاب ويقول له : اترك الأمور لى فأنا خبير فى هذه الناحية ، حينئذ لابد أن يتركها له حتى تنتهى العاصفة ويعود الهدوء ويترك إدارة السفينة لقبطانها . إذن .. فالإنسان لا يطلب الولاية إلا إذا أحس أنه يعرف وجه الخروج من الأزمة وفى طلب يوسف شجاعة فكونه يتقدم إلى العزيز ويطلب الولاية هذه شجاعة منه .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ [يوسف : ٥٦] مكننا ليوسف كيف ؟ بأن الله تعالى علمه تأويل الأحاديث ، ثم جعل الملك يرى رؤيا تزعجه لم يفسرها إلا يوسف ، ومكنه بأمانته وحسن خلقه ، ومكنه بأن أبطل كيد أخوته الذين تأمروا عليه وألقوه

اعتراف النسوة ببراءة يوسف

فى الجب لىباع عبداً لىس هذا فقط بل إن يوسف ابتلى من كل من أحبه عمته وأبیه وامرأة العزیز . و حکایة عمته إنها كانت تحبه جداً، وربته وهو صغیر بعد أن ماتت أمه ، وأراد أبوه أن يأخذه منها ، ولكنها لم تصبر على فراقه ، ففكرت كیف تبقى على يوسف عندها ، وكان هناك حزام يتحزم به إبراهيم ، اسمه منطقة إبراهيم ، والحزام كان عند عمه يوسف ، وكان المبدأ أن من يسرق شيئاً يعاقب بأن یصبح عبداً لمن سرقه . عمه يوسف ألبسته منطقة إبراهيم تحت ثوبه وعندما جاءوا لىأخذوه قالت إنه سرق .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ .  
تدل على سعة مساحة الأرض التى مكن منها يوسف ويتبوا منها حيث يشاء :  
أى يتخذ من أرض مصر منزلاً حيث يشاء . أى يصنع فى الدنيا ما يشاء لتفويض الأمر إليه ، وهذا التمكين هو رحمة للناس لأنه فى كل منطقة سيذهب إليها سيرف المشاكل على حقيقتها أو على الطبيعة ويحلها . هذا بالنسبة لأمر الدنيا أما بالنسبة لجزء الآخرة قال سبحانه : ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .  
يعدل ميزان حركة الحياة الذى لا يستقيم بالحديث عن الآخرة فقط دون أن يعطى للحياة قوامها الذى يضمن سير الأمور فيها على نحو تحقيق مصالح الخلق ، ويقول له إن أجرك فى الآخرة سيكون خيراً من أجرك فى الدنيا .  
نعود إلى أخوة يوسف فمنذ أن ألقوه فى الجب لم نعرف ماذا فعلوا ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ . جاء أخوة يوسف لطلب القوت لأنها مجاعة ولا يوجد طعام



إلا فى خزائن يوسف ولا يصرف منه إلا بأمر يوسف ؛ يوسف عرفهم لأنهم لم يتغيروا ولكنهم لم يعرفوه لماذا ؟ لأنه كان صغيراً وأصبح رجلاً ولأنه كان على خزائن الأرض فكانت هذه تعطيه هبة ولأن كل همهم الحصول على الطعام فلم يدققوا فيه .

يقول الحق : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْعَامِكُمْ مِنَ آيَاتِكُمْ أَلَّا تَرَوْنَ آيَاتِي أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [ يوسف : ٥٩ ] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ ﴾ الجهاز هو ما يحتاج إليه ومنه جهاز المسافر والقمح هنا هو ما جاءوا للحصول عليه .

وقال لهم يوسف : ﴿ أَتُنُونِي بِأَنْعَامِكُمْ مِنَ آيَاتِكُمْ ﴾ ، وكان العقل يقتضى أن يقولوا : من الذى أعلمه أن لنا أحمأ من أيننا ؟ لم يتنبهوا إلى هذا لأن المجاعة والحصول على الطعام كان هو همهم الأكبر .

قول يوسف عليه السلام : ﴿ أَلَّا تَرَوْنَ آيَاتِي أَوْ فِي الْكَيْلِ ﴾ أى أعطيتكم حنكم فى الكيل وزيادة ولو جئتم بأخيتكم من أيكم فسأزيد الكيل لكم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ إخبار يؤكد أن أخوة يوسف هم الذين نزلوا عنده ، وأن الله سبحانه وتعالى جعلهم يأتون وينزلون عنده ، ليقول لهم أحضروا إلى أخاكم من أيكم . ثم يتبع ذلك بقوله : ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا فُقْرُونَ ﴾ [ يوسف : ٦٠ ] أى إن لم تأتونى بأخيتكم من أيكم فلا يوجد لكم كيل عندى ولا تقربوا هذه الناحية أبداً لتحصلوا على الطعام .

المسألة بالنسبة للأخوة ليست سهلة فهو خيرهم بين أن يأتوا بأخيتهم أو لا يأخذون الكيل وهم يعرفون أن أباهم لن يثق فيهم بعد ما فعلوه اعتراف النسوة ببراءة يوسف

يوسف حتى يسلمهم أخاه الصغير لذلك قالوا : ﴿ سَتَرُوْهُ عَنْهُ اٰبَاؤُهٗ وَاِنَّا لَفٰعِلُوْنَ ﴾ [يوسف : ٦١] ستراد : أى ستفاهم مع أينا لأن هذه مسألة صعبة والمرادة أخذ ورد ، أنت تقول وهو يرد عليك ثم ترد عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاِنَّا لَفٰعِلُوْنَ ﴾ يعنى سنذهب ونحضره معنا .

ماذا فعل يوسف ؟ ﴿ وَقَالَ لِفِتْيٰنِهٖ اجْعَلُوْا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُوْنَهَا اِذَا اَنْقَلَبُوْا اِلَىْ اٰهْلِيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴾ [يوسف : ٦٢] البضاعة هى ما جاءوا به ثمناً للقمح يوسف قال لرجاله : أعطوهم القمح وأعيدوا إليهم الأثمان التى أتوا بها وضعوها فى رحالهم بحيث لا يرونها إلا إذا عادوا إلى دار أبيهم لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴾ ليردوا ثمن ما أخذوه .

الحق سبحانه يقول : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوْا اِلَىْ اٰبِيْهِمْ قَالُوْا يٰٓاَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَاَرْسِلْ مَعَنَا اَخَانَا نَكْتَلْ وَاِنَّا لَمُرُّ لِحٰفِظُوْنَ ﴾ [يوسف : ٦٣] منع منا الكيل : أى فى المستقبل بعد هذه المرة لأن العزيز قال لنا : إن لم تحضروا أحاكم ﴿ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِيْ وَلَا تَقْرُبُوْنِ ﴾ أى إذا أردتنا أن نأتى لك بالقمح فالكيل لنا ممنوع إلا إذا أخذنا أخانا معنا . ورد الأب الملتاع قائلاً : ﴿ قَالَ هَلْ اٰمَنُكُمْ عَلَيْهِ اِلَّا كَمَا اٰمَنُكُمْ عَلٰى اَخِيْهِ مِنْ قَبْلُ فَاَللّٰهُ خَيْرٌ حٰفِظًا وَهُوَ اَرْحَمُ الرَّحِيْمِيْنَ ﴾ [يوسف : ٦٤] قول يعقوب : ﴿ فَاَللّٰهُ خَيْرٌ حٰفِظًا وَهُوَ اَرْحَمُ الرَّحِيْمِيْنَ ﴾ دليل على موافقة يعقوب على أن يذهب أخو يوسف معهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوْا بِضَعَتَهُمْ رُدَّتْ اِلَيْهِمْ قَالُوْا يٰٓاَبَانَا مَا بَغٰى هٰذِهِ بِضَعَتُنَا رُدَّتْ اِلَيْنَا وَنَمِيْرُ اَهْلِنَا وَنَحْفَظُ اَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيْرٌ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيْرٌ ﴾ [يوسف : ٦٥] وجدوا القمح ووجدوا بضاعتهم التى أخذوها معهم ثمناً للقمح ردت إليهم فقالوا : ماذا نريد ؟ هذه

بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل وكانوا قالوا لأبيهم : قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته .  
يقول الحق سبحانه على لسان يعقوب : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف: ٦٦] أى لن أرسله معكم حتى تحلفوا لى بالله إنه لن يحدث له شىء وسيعود معكم ثم جاء الاحتياط من يعقوب ، أى أن تحدث ظروف خارجة عن إرادتكم ، وفى هذه الحالة فقط سيكون ما حدث قدراً لايد لكم فيه . وقبل أولاد يعقوب الاحتكام إلى الله وفعلاً أخذ منهم العهد والميثاق وأشهد الله عليهم كما يقص القرآن الكريم علينا : ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

جاء موعد الرحلة والسفر إلى مصر وبحنان الأبوة وقف يعقوب يودع أبناءه ويزودهم بنصائحه قال يعقوب : ﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧] يعقوب أراد أن يقى أولاده من شر الحسد <sup>(١)</sup> فقال لهم : لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة .

---

(١) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » . أخرجه مسلم [٢١٨٨] . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق » .  
أخرجه البخارى [٥٩٤٤] ، ومسلم [٢١٨٧] .

وأطاع أبناء يعقوب أمر أبيهم ودخلوا من أبواب متفرقة : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ  
حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مِمَّا كَانَتْ يُعْطِيهِمْ مِنْ أَلَدِهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي  
نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٨] أى أنهم حينما أطاعوا أمر يعقوب لم يكن ذلك  
لينجيهم أو يمنع عنهم قدراً من أقدار الله ، فالأمر كله لله ، ولكن خاطراً ورد  
على نفس يعقوب فقضاها وهو أنه خاف أن يحسدوهم ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا  
عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى ما قاله لأولاده كان عن علم علمه الله له ، علم خاص بيعقوب .  
﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن أكثر الناس يعزلون الأسباب  
عن المسبب ويعتقدون أن الأسباب تعمل بذاتها وهذا ما يتعب الدنيا .

يقول الحق تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَأَوْسَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ  
إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩] كان يوسف  
متشوقاً إلى أخيه الذى لم يره منذ سنوات طويلة وقد كان شقيقه من أب  
واحد وأم واحدة . وأراد يوسف أن يطمئن أخاه لأنه لم يكن يدرى شيئاً عن  
قصة يوسف والبئر لأنه كان صغيراً ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ دليل على أنهم كانوا يعاملونه معاملة مهينة ، حقداً منهم  
عليه كما حقدوا على يوسف لحب أبيه له .

= وعن عائشة رضی اللہ تعالیٰ عنہا قالت : « أمرنى رسول اللہ ﷺ أن نسترقى من  
العين » . أخرجه البخارى [٥٧٣٨] ، ومسلم [٢١٩٥] .  
وعن أسماء بنت عميس رضی اللہ تعالیٰ عنہا قالت : يا رسول اللہ إن ولد جعفر  
تسرع إليهم العين أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته  
العين » . رواه الترمذى [٢٠٥٩] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٦٨٢] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُيَرُّ إِتَّكُمْ لَسَّرِقُونَ ﴾ [ يوسف : ٧٠ ] أى أنه أعطاهم ما يريدونه من القمح والطعام وكل ما طلبوه وجعل السقاية فى رحل أخيه . والسقاية والصواع هو الوعاء الذى كان يشرب فيه الملك وكان إناء من فضة ، وكانوا يكيلون به الطعام . ثم أذن رجل من الحاضرين : إنكم لسارقون بصوت عال وهذا معنى أذن . لقد كانوا جالسين بعيدين عن الإبل فلما سمعوا المنادى تنبهوا وأقبلوا يسألونه ماذا ضاع ؟ ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ [ يوسف : ٧١ ] ﴿ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعًا الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ [ يوسف : ٧٢ ] والذى سيأتينا به لن نعاقبه بل سنعطيه حمل بعير زيادة .

والسرقة اتهام قبيح ، ولذلك أسرع أخوه يوسف يقسمون بالله إنهم لم يسرقوا شيئاً ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ فهم أمناء لا يسرقون وما جاءوا من بلدهم إلى هنا للسرقة . فأحتال يوسف ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [ يوسف : ٧٤ ] وهذا قصد يوسف أن يترك أخوته يحددون العقوبة على أخيهم ويكون الحكم برضاهم ولا يمكن أن يتراجعوا فيه ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

ماذا فعل يوسف ؟ أمر رجاله أن يبدأوا أولاً بأمتعة أخوته والإبل التى جاءوا بها . يقول الحق ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ . لأنه لو بدأ بوعاء أخيه أولاً : لانكشفت الحيلة لكنهم أحر ما فتشوا كان وعاء أخيه ثم يقول الحق : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ

كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿﴾ ، أى أن الله سبحانه وتعالى حقق ليوسف الأمل الذى تمناه فى أن يكون شقيقه معه وأعطاه من العلم ما جعله ينتصر على أشقائه ، أى علمه سبحانه الكيد لصالحه وما كان له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ﴿﴾ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴿﴾ يقصد به شقيق يوسف حيث سيعيش عيشة رغدة مع أخيه وفى نفس الوقت سيكون مع نبي الله يوسف فيزداد علواً فى الآخرة بتطبيق منهج الله الصحيح .

قال الحق سبحانه وتعالى على لسان أخوه يوسف : ﴿﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿﴾ [ يوسف : ٧٧ ] قالوا : إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر !! لماذا ؟ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل « أم يوسف و أخيه » لقد سرق أخوه الأكبر من قبل وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذى يخاطبونه . فأتار هذا الاتهام فى نفس يوسف انفعالات ولكنه كتمها داخل نفسه . ورسول الله ﷺ يقول : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » (١) ولقد حدث يوسف فى نفسه بهذا الكلام ﴿﴾ تَصِفُونَ ﴿﴾ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف وأنه لا حقيقة فى ذلك .

قال الحق حكاية عن أخوة يوسف : ﴿﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾ [ يوسف : ٧٨ ] حاولوا استعطاف يوسف وقالوا : إن لهم أباً شيخاً كبيراً ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم بدلاً منه فخذ أحدهنا مكانه بجريمة السرقة التى حدثت واتركه يعود إلى أبيه .

(١) رواه أبو داود [٤٧٨٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٠٠٠] .

رد عليهم يوسف : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ ۚ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴾ [ يوسف : ٧٩ ] أى لا أريد إلا الحق ولو أخذت إنساناً بذنب إنسان آخر أكون من الظالمين حينئذ علموا أنه لن يجدى النقاش ولا الرجاء مع يوسف .

الحق تعالى يقول : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۗ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ۗ ﴾ ، فلما يأسوا من نقاش يوسف جلسوا فى مكان ليس معهم فيه أحد وبدأوا يتهمسون وقال كبيرهم أنكم عاهدتم بموثق من الله أن حكاية يوسف لن تتكرر . ثم قال كبيرهم : ﴿ فَلَنْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ فكبيرهم قال : إنه سيقى فى المكان الذى فيه أخوه حتى يأذن له أبوه أن يعود بعد أن يقتنع ببراءته أو أن يحكم الله له بأن يسلموه أخاه فيأخذه ويعود لأبيه فإذا لم يحدث هذا فسيقى فى هذه الأرض حتى يموت والله هو خير الحاكمين .

ثم قال لأخوته : ﴿ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ [ يوسف : ٨١ ] أى قولوا لأبيكم : إن ابنك سرق وهذا ما حدث وما كنا لنعلم أنه يسرق .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسئِلِ الْقَرْيَةَ الَّتى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [ يوسف : ٨٢ ] والقرية التى كنا فيها وهى مصر والمعنى : اسأل أهل القرية والقافلة التى كانت معنا حتى الجماد أو الحيوان إليهم ذلك لأنه نبي والأنبياء قد سخر لهم الجماد والحيوان بما يحدث فيهم من المعرفة . وأولاد يعقوب أخذوا يكررون أنهم صادقون لأنهم كذبوا من قبل ذلك بالنسبة ليوسف وكان هذا موجوداً فى عقل يعقوب ولذلك لم يصدقهم بل قال :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف: ٨٣] ، و ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ بمعنى سهلت ويسرت وزينت ، ﴿ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ أى تخفون شيئاً دبرتموه ولا أعرفه ثم يقول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، أى ييوسف وأخوه بنيامين والأخ الكبير . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ العليم الذى لا يغيب عن علمه سبحانه شىء . والحكيم فيما يجرى علينا من أقدار .

لما جاء أولاد يعقوب وقالوا له ما قالوا ، ماذا كان موقفه منهم ؟ ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْتَاسِفَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] تولى عن أولاده أى تركهم ولم يواصل معهم الحوار ليخلوا بنفسه لأنه يتحسر على يوسف وأخيه وهو لا يريد أن يظهر الحزن والأسى لأحد من خلق الله لأنه قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] وساعة تسمع : يا أسفا ويا ويلتاه فهى تعنى أشد الحزن والتندم وقوله تعالى : ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾ الإنسان إذا امتلأت عيناه بالدموع تحدث غشاء على سواد العين فيبدوا أبيض وقوله تعالى : ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبيته .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥] وهم أولاد يعقوب قالوا : ستظل تذكر يوسف وتحزن عليه حتى تموت ؟! والحرض : هو الأشراف على الهلاك أى أنهم قالوا : إن يعقوب من حزنه على يوسف سيسرف على الهلاك ثم يكون من الهالكين فعلاً . وهنا رد يعقوب عليهم : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦] أى لا شأن



لكم بي واطركونى لحالى ، فهو يعرف أن التضرع إلى الله فى وقت الضرر والأزمة عبادة .

ثم يقول يعقوب لأولاده : ﴿ يَبْعِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ وَلَا تَأْتِسُوْا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِنَّكُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرُوْنَ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ فَتَحَسَّسُوْا ﴾ أى استقصوا ونقروا واستخدموا كل حواسكم من بصر وسمع وغيره لتصلوا إلى نبأ أو حقيقة من أمر يوسف .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْتِسُوْا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ ﴾ أى لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه للكرب . وقال الأصمعى : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، وقيل الروح : الفرج وقيل : الرحمة ﴿ اِنَّكُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرُوْنَ ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعته وخفى الطافة .

﴿ اِنَّكُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرُوْنَ ﴾ أى الذين لا يؤمنون بالله لأن هؤلاء لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية فإذا ما تخلت عنهم هذه الأسباب يملأ قلوبهم اليأس فينتحرون أو يصابون بالجنون أما المؤمن فيقول : لى رب هو خالق الأسباب سيفتح لى طريق الخلاص ، فالأسباب أعطها لنا الله ولكن بقى خالق الأسباب يفعل ما يشاء فيأتى لك الشىء بلا أسباب ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ... وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجًا ﴿١٠٠﴾ وَرِزْقًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴿١٠١﴾ ﴾ وقد تسعى فى شىء وتفشل فيأتيك شىء آخر من غير حساب . فالمؤمن إذا أتته المشاكل التى لا يجد لها حلاً فإنه لا ييأس لأن هناك إلهاً هو فوق هذه الأسباب كلها يستطيع أن يقول للشىء كن فيكون .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨] أى أصابنا الجوع والحاجة ويقولون أنهم جاءوا ببضاعة مزجاة : أى مدفوعة الثمن ويزجى : يعنى يدفع ولكن هذه البضاعة رغم أنها مدفوع ثمنها إلا أنها رديئة ليست جيدة . وهم يستعطفون يوسف ألا يعطيهم ثمناً قليلاً مقابل هذه البضاعة المزجاة .

فيقولون له : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أى لأنهم يعانون المجاعة يطلبون كيلاً وافياً من القمح ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ فإن لم يكن هذا الكيل يساوى البضاعة التى يحملونها فليكن الباقي صدقة . وإنك لن تأخذ الجزاء منا حتى نقول : لا تملكون شيئاً لتعطونه ولكنك ستأخذ الجزاء من الله سبحانه وتعالى . والبعض قال هؤلاء أولاد نبي فكيف يأكلون الصدقة ؟ نقول هذه خاصة بآل محمد ﷺ (١) .

يوسف عندما سمع هذا الكلام ابتسم وضحك فظهرت ثناياه ، وكانت مميزة بحيث أن كل من يراها يعرفه فلما رأوا ثناياه بدأوا يدركون الموقف : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : ٨٩] بمجرد أن قالها ﴿ قَالُوا أَيْ تَأْكُلُ لَأَنْتَ يَوسُفُ ﴾ [يوسف : ٩٠] أى أنهم أعلنوا شخصية يوسف بعد أن وثقوا منها ، ولم ينكر يوسف عليه السلام بعد أن رأى الحال الذى وصل إليه اخوته ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ ورغم أنهم عرفوه إلا أنهم فوجئوا باعترافه وبنبهم يوسف إلى أن اخاه دخل معه فى

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : أخذ الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما عنهما تمر من تمر الصدقة فجعلها فى فيه ، فقال النبى ﷺ : « كخ كخ » ليطرحها . ثم قال أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة « أخرجه البخارى [١٤٩١] .

النعمة ثم أعطاهم حيثيات النعمة ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، أى حيثيات النعمة هى أن الإنسان يتقى الله دائماً ولا يفعل ما يغضب الله ويجعل نقمة الله تحل به ، فإذا ابتلاه الله فإن عليه التقوى والصبر ، فإذا ما اتقى الإنسان وصبر فلا بد أن تكون عاقبته أحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة ولذلك فإنه لا يوجد إنسان يقابل الأحداث بالتقوى والصبر إلا جازاه الله بالفرج والخير العميم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩١] أى أن الله تعالى قد ميزك علينا جميعاً ﴿ وَإِنْ كُنَّا ﴾ أى حالنا وقت أن فعلنا ذلك كنا خاطئين . وهناك فرق بين خاطئين ومخطئين . والخاطيء : هو الذى يعلم منطقة الصواب ويخطيء عن علم وعمد . أما المخطيء : فهو يقصد الصواب لكنه يخطيء . ﴿ قَالُوا تَأَلَّوْا ﴾ وهذا قسم مثل والله ، وبالله ﴿ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى فضلك علينا ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾ اعتراف بالذنب .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] التثريب : معناه اللوم العنيف وقالوا فى هذا المعنى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عفو جميل ﴿ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ﴾ بعدما أعترفتكم بذنوبكم وتبتم ورجعتم إلى الله . ثم قال : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] . إذن .. فلا بد أنه عرف أن أباه يربط عينيه من الحزن . ويقال إن الأخ الأكبر قال ليوسف : أيها العزيز إننى أنا الذى حملت إلى أبى قميصك وجئت عليه بالدم الكذب فدعنى أكفر عن ذنبى وأحمل القميص الذى فيه الشفاء إلى أبى .

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ أى يأتى إلى يوسف وقد زال عنه  
الضر والمرض ويأتيه مبصرا .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ  
يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [ يوسف : ٩٤ ] . قوله ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾  
تدل على أن شيئا كان متصلا وفصل ، وقوله : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾  
أى أنه شم الرائحة التى كانت فى القميص ، وقوله : ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾  
أى تنهمونى بالتحريف لكبر سنى . وعندما سمع أولاده قوله بأنه يشم ريح  
يوسف ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ عَظِيمٍ ﴾ [ يوسف : ٩٥ ] أى من  
حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى  
لهم أن يقولوها لوالدهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا  
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [ يوسف : ٩٦ ] أنظر  
إلى دلائل النبوة ؛ وكيف أن النبى يحس بالأشياء قبل الناس ، ثم يأتى الواقع فيؤيد  
ما يقول . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [ يوسف : ٩٧ ]  
كان ذنوبهم كثيرة وهم معترفون بخطئهم ماذا قال يعقوب : ﴿ قَالَ سَوْفَ  
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [ يوسف : ٩٨ ] لم يقل :  
سأستغفر الآن إنما قال سوف أى بعد مدة . وتكلم العلماء كثيرا حول :  
﴿ سَوْفَ ﴾ والراجع أن يعقوب آخر بنيه إلى وقت السحر وقت إجابة الدعاء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ  
أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١١٠﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ  
وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ... ﴿١١١﴾ ﴾ وقول الحق : ﴿ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبَوَيْهِ ﴾ دليل على

حرارة اللقاء لأن الفراق استمر عمراً طويلاً ، يوسف مشتاق إلى أبيه ، والأب مشتاق إلى أبنه .

وقوله : ﴿ أَبَوَيْهِ ﴾ رغم أن أم يوسف ماتت ذلك إن العادة كانت إذا ماتت الأم يدعون الخالة أما ويجعلونها في مقام أمهم . ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ السجود هنا هو شكر لله لأنه جمع شملهم وهداهم ، أو هو اعتذار ليوسف على ما بدر منهم نحوه ونحو أخيه ، أو هو تعبير عن الفرحة بجمع الشمل ، أو أن هذا كان من شريعتهم ثم حرم أو نسخ ؛ المهم أنه لم يكن سجود عبادة الذى لا يكون إلا لله وحده . وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى أجلسهم فى مكان مجلسه الدائم الذى يصرف منه كل أمور الدولة .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَى مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، يسترجع يوسف البداية يوم رأى وهو طفل الشمس والقمر والكواكب تسجد له فأسرع يقص على أبيه هذه القصة ، فقال الأب هذه الرؤيا تدل على أنه سيكون لك شأن عظيم فلا تقصها على أخوتك . وهكذا يعيدنا فى آخر القصة إلى أولها . ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ لأن رؤيا الأنبياء واقع يحدث . قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى .

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ وهذا إحسان إلى أخوة يوسف بعد أن عاشوا فى البدو وجاء بهم إلى قصر العزيز حيث مصر ذات الحضارة العريقة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ،  
 الشيطان هو الذى وسوس لأخوة يوسف وأن الوسوسة كانت نزغاً وليست  
 استقراراً على سوء . فكأن الشيطان شىء سطحي سريع الزوال خاصة إذا  
 انتبهت وطلبت العون من الله ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ  
 بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ، ثم يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ ﴾  
 لطيف : يعنى هو المدبر الذى لا يخفى عليه شىء واللطافة هى أن يكون  
 الشىء دقيقاً جداً رغم أن له حيز .

ثم يتوجه يوسف إلى ربه ويقول : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ  
 تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي  
 مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] يوسف عليه السلام يقول :  
 ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ ﴾ أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى يوسف  
 الملك ولا يمكن لأحد أن يعطى ملكاً فى الأرض قهراً عن الله سبحانه بل حتى  
 الظالم والمفسد لا يصل أحدهما إلى الملك إلا بإرادة الله تبارك وتعالى .  
 ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ لأن الله علم يوسف أن يفسر الرؤى ففسر  
 لمن معه فى السجن وفسر للملك والله سبحانه وتعالى حين يعلم يوسف ذلك  
 فهذه ليست عجيبة لأنه سبحانه فاطر السموات والأرض أى أنه خالق كل  
 شىء ويعلم أسرار خلقه ﴿ وَوَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى ناصرى ومعينى  
 لأنه نصره على كل العقبات التى واجهته فى حياته ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ لأن  
 الدين عند الله الإسلام ﴿ وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ ﴾ أى بأهل الجنة أو بأبائه  
 إبراهيم وإسحاق ويعقوب .



## نبي الله أيوب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ الأنبياء : ٨٧ ] .

وقوله : ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ أى دعاء لأن النداء بالنسبة لله دعاء ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ .

والضرر إبتلاء فى جسده بمرض أو غيره وقالوا إن الأنبياء يمرضون مرضاً ينفر الناس منهم . ومعنى الضر : هو الإيذاء فى الجسد . أما الضرر : فهو إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أعطى له إجابة دعائه وزاده أشياء لم يطلبها فى دعائه وهذا كله رحمة من الله وذكري لكل عابد لأن العابد الذى يخلص عبادته لله ، عليه أن يعلم أنه إذا أصابه مكروه ولجأ إلى الله يرفع عنه هذا المكروه ويعطيه نعماً فوق ما طلب (١) .

(١) ورد ذكره عليه السلام فى أربع آيات من القرآن الكريم :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [ النساء : ١٦٣ ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ الأنعام : ٨٤ ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٨٣ ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ ص : ٤١ ] .

وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثاً وتسعين سنة ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عرياناً ، خر عليه رجل جراد من ذهب =





## نبى الله ذى الكفل عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [٤٥] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ .

وقال الله تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة « ص » ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [٤٥] إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴿

فالظاهر فى ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً ، وإنما كان رجلاً صالحاً ، وحكماً مقسطاً عادلاً . وتوقف ابن جرير فى ذلك .. فالله أعلم .

وروى ابن جرير عن أبى نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الجماهر أنبأنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتاده ، عن كنانة بن الأحنس قال : سمعت الأشعري ، يعنى أبا موسى

---

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير [٧٤/١٧] وابن أبى حاتم كما فى الدار المنثور [٦٦١/٥] .



## نبي الله يونس عليه السلام

هو يونس بن متى نبي الله عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل نينوى من العراق إلى مائة ألف أو يزيدون وكان قومه يعبدون الأصنام فبعثه إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوبة إلى الله من كفرهم وتوحيده (١) . وسميت السورة باسم يونس لأن قومه هم الذين آمنوا قبل أن يروا مقدمات العذاب فأنجاهم الله سبحانه وتعالى ، وأسمع إلى قول الحق : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان وضرر تركه وتأخيره وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب (٢) ، ومعناه أنه لو كانت هناك قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب لنجاها الله كما نجا قوم يونس ، ولكن لم يوجد قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب إلا قوم يونس هم القرية المستثناة من العذاب (٣) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] . والنون هو الحوت ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْضِبًا ﴾ أي صاحب الحوت وهو يونس بن متى سماه الله ذا النون لأنه حبسه في جوف الحوت الذي التقمه ، وقيل مغاضبا لربه ، وقيل مقاضبا لقومه ، والأول أصح (٤) .

(١) تاريخ الطبرى [١١/٢-١٢] .

(٢) تفسير القاسمى [٣٣٢٠/٩] .

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسى [١٤٣/٣-١٤٤] .

(٤) لسان العرب [٦٤٨/١-٦٤٩] .



من المؤمنين ، فأى مؤمن يقع فى كرب أو يصيبه هم فيقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » فإن الله تعالى يفرج عنه ما هو فيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكل من يصيبه غم ثم يتجه إلى الله ويقراً هذه الآية لا بد أن يذهب الله غمه لأنه سبحانه قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى مثل هذا الإنجاء ننجى المؤمنين .

عندما غضب يونس عليه السلام غادر القرية واستقل سفينة ليذهب بها إلى بلد آخر ، ربما يكون أكثر قبولا لدعوته ، وحينئذ رأى قوم يونس عواصف ورياحا شديدة وانقلابا فى الطبيعة فذهبوا إلى علمائهم فقالوا لهم : إن هذه بداية عذاب سيصيبهم به الله سبحانه وتعالى لما فعلوه مع نبي الله يونس . وقالوا لهم : اذهبوا لترضوا يونس قبل أن يحل عليكم العذاب فآمنوا وبدأوا يردون المظالم إلى أهلها حتى قيل إن الرجل كان يهدم جدار بيته لأن به حجرا سرقه من جاره ويعيد لجاره الحجر .

أما قصة الحوت ؛ فعندما ركب يونس السفينة وتلاعبت بها الأمواج قالوا : لا بد من تخفيف الحمولة حتى تنجو السفينة من الغرق وأجروا القرعة فحددت القرعة يونس عليه السلام فألقوه فى البحر والتقطه الحوت ولفظه الحوت على الشاطئ ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٢١﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الصافات] . أى أن الذى نجاه هو كثرة تسبيحه وكثرة ذكره لله سبحانه وتعالى ، وأنبت عليه شجرة على الشاطئ لتخيمه من حرارة الشمس .



## نبي الله موسى عليه السلام<sup>(١)</sup>

يقول تعالى ﷻ سورة القصص : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ القصص : ٣ ] . هذه السورة اختصت بموسى وفرعون ، ولم تتعرض لأحد غيرهما إلا قارون ، مع أن السور الأخرى جاءت فيها مواكب أنبياء ؛ وذلك لأن هذه القضية تعرضت لمسألة القمة ، والقمة هي ادعاء الألوهية ، فجعلها الله سورة وسماها سورة القصص ، وقال فيها الحق سبحانه : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴾ لم يقل : نتلوا عليك من خبر موسى أو من أمر موسى ولكن قال : ﴿ مِنْ نَبَأِ مُوسَى ﴾ ؛ لأن النبأ أمر مهم ، وهل هناك أهم من أن يأتي موسى ليرد واحد عن ادعاء الألوهية ؟ فهي مسألة مهمة حقا ، قال الله فيها سنتلو عليك بالحق ، وسماه الله القصص ، لماذا ؟ لأن القصص من قص الأثر ، فقد كان العرب قديما يتبعون آثار الأقدام ، فإذا حدث شئ وأرادوا أن يبحثوا عن الفاعل ، يسيرون وراء أثر القدم ، ويعرفون إلى أين ذهب ، وكذلك يعرفون إن كانت هذه القدم قدم طفل أو شاب أو امرأة الخ<sup>(٢)</sup> .

(١) نبي الله موسى هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن ، والفرعون هو : الوليد بن مصعب ملك مصر ، وفى اللسان : فرعن : الفرعنة : الكبر والتجبر .

(٢) وقد اهتدى أعرابى من قصاصى الأثر على وجود الله القدير حينما أعمل عقله وقال : البحر يدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، ألا يدل هذا الكون على إله خالق قدير .



والبشر أخذوا القصص وأدخلوا فيه الخيال والحبكة والرواية والعقدة والبطل وهذا ليس قصصاً ؛ لأن القصص هو الشيء الحقيقي .  
ولذلك يسميه ربنا أحسن القصص ؛ لأنه مطابق للواقع .  
إذن .. ما هو هذا القصص ؟

هو فى قول الحق سبحانه تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَخِيهٖ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> [ القصص : ٤ ] .

وفرعون استعلى على رعيته وعلى من هم فوق الرعية ، من وزراء ومسؤولين . ليس هذا فقط ؛ بل أنه علا حتى على ربه والعباد بالله وأراد أن يكون إلهاً ، فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحد ؟! ومادامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوى ، فيستخدمها فى إذلال رعيته فهو لم يستعل فى الأرض فقط؛ بل أنه جعل أهلها شيعاً مع أن المفروض فى شرع الله أن الرعية كلهم سواء ، فلا تستأثر طبقة بحظوة عن طبقة أخرى ، لكن فرعون جعلهم شيعاً وسلط بعضهم على بعض .

ومصر فى ذلك العصر كانت مسكونة بالقبط ، وبعد ذلك فى أيام يوسف عليه السلام دخلها بنو إسرائيل ، وسكنوا فيها وتناسلوا وكان المفروض أنهم

(١) قال القاسمى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى تكبر وتجاوز الحد فى الطغيان ، فى أرض مصر ، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى فرقا وأصنافا فى استخدامه وطاعته ، ﴿ يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، ﴿ يُدِّعُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَخِيهٖ نِسَاءَهُمْ ﴾ وذلك إماتة لرجالهم ، وتقليلاً لعدددهم ؛ كيلا يكثرُوا فينازعه الملك ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى المتمكنين فى الإفساد وقهر العباد .

تفسير القاسمى [١٣/٤٦٩٥] .



يدويون فى المجتمع القبطى . والناس يفهمون أن كلمة قبطى معناها نصرانى ، وهذا خطأ ؛ لأن القبطى معناه المصرى القديم ، لكن لما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية ، فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس ، ولكن ما هو السبب فى أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة الرعاة الذين أزاحو حكم الفراعنة ، وتولى الملك ملوك الرعاة ، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل ، وكان من عادة الحكام أنه حينما يتولى حاكم ينظر إلى أنصار من كان قبله ويضطهدهم فلما انقرض ملوك الرعاة بدأ اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل لماذا ؟ لأن بنى إسرائيل كانوا يخدمون ملوك الرعاة .

هنا نجد إعجاز القرآن أنه حينما تكلم عن ملوك مصر فى القديم والحديث سماهم فرعين ، فهناك الآية التى نقرأ فيها قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ وهنا فى قصة موسى عليه السلام قال عن حاكم مصر : فرعون ، لكن فى قصة يوسف عليه السلام لم يأت ذكر للفراعنة ، ولكن ذكر لقب الملك ، وهذا من إعجاز القرآن ؛ لأنه فى أيام يوسف كان الذى يحكم مصر هم ملوك الرعاة ، لكن قبلها وبعدها كان الحكام فراعنة فمن الذى أخبر محمداً ﷺ بذلك ؟ إنه سبحانه الذى علمه ما لم يكن يعلم ، وأخبره بما لم يكن يدرى .

فمعنى هذا أن فرعون استعلى على الناس وجعلهم شيعاً تستبد شيعه بشيعه أخرى ، فشيعه الأقباط استبدوا ببنى إسرائيل ؛ انتقاماً لما فعلوه من مساعدة الرعاة الذين احتلوا مصر ، واستولوا على الحكم فيها ، وساعة يفرق فرعون بين الناس ويقسمهم إلى شيع متنافرة ، فهذا العمل منه ينفى أن يكون إلهاً ؛ لأن الإله يكون المخلوقون كلهم بالنسبة له سواء ، لكن الذى يحرض طائفة

٢٠٣

نبي الله موسى عليه السلام

على أخرى ليس ياله ، بل هو شئ مذموم ، يقول الله فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾<sup>(١)</sup> [ الأنعام : ١٥٩ ] لأنهم لو كانوا متمسكين بالدين لكانوا شيعة واحدة أو طائفة واحدة ؛ لأن الدين واحد ، لكن لأن كل واحد من الذين فرقوا دينهم يريد لنفسه سلطة زمنية ، تجده يكون لنفسه طائفة أو جماعة أو طريقة ؛ ليكون كبيرا عليها . فساعة ترى جماعة اختلفت وتفرقت إلى عشرين جماعة فاعلم أنهم مخطئون . لماذا ؟ لأن الإسلام - كما قلنا سابقاً - كالماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، والكل محتاج إليه فحين يتلون بلون يصبح مثل العصائر ، وتتفرق الرغبات فأنت تحب المانجو وهذا يحب الفراولة وذاك يحب التفاح أو البرتقال ، وتتفرق الأمة ويضيع الدين فمادام أصبح للدين لون فلا فائدة فيه ، ولذلك لما أخبر محمد ﷺ أن الأمة ستختلف على كذا طائفة وسألوه : فأيهم على حق ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي<sup>(٢)</sup> فالطائفة التى على الحق واحدة ، وهى التى تقتدى بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه .

(١) نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى ، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث النبى ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث النبى ﷺ أنزل عليه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفا له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أى فرقا ، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه . تفسير ابن كثير [١٩٦/٢] .

(٢) روى ابن ماجه عن أنس عن النبى ﷺ : « إن بنى إسرائيل اختلفت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنين وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة ، وهى الجماعة » . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٢٢٧] .

نبى الله موسى عليه السلام ٢٠٤











﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾<sup>(١)</sup> [ق: ٣٨] فمن عدل الله سبحانه وتعالى أنه من على المستضعفين بفضله ، فلم يرفع العذاب والظلم عنهم فقط ، ولكن جعلهم أئمة ، وليسو أئمة في مكان آخر غير الذي كانوا مستضعفين فيه ولكن في نفس المكان بعد أن أورثهم من كان يظلمهم فرفع عنهم العذاب وجعلهم أئمة على الذين ظلموهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ نُزُجًا فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> [القصص: ٦] كلمة نكمن ، نحن نعرف أن الأرض مكان والمكان هو الذي يحدث فيه الحدث ؛ لأن كل حدث يحتاج إلى مكان يحدث فيه وزمان يقع فيه ، فمعنى نكمن أى نجعل الأرض مكانا لممكن فى الأرض وقد كان فرعون ممكناً فى الأرض ، يتصرف فيها تسلطاً ويأخذ خيرها والله سبحانه أعطانا ذلك فى لقطات متعددة من القرآن الكريم ،

(١) قال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع ، وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أى من إعياء ولا تعب ولا نصب .  
تفسير ابن كثير [٢٢٩/٤] .

(٢) ﴿ وَنُزُجًا فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ بأن يكون هذا الغلام الذى احتزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيته وتدله وتتفاده ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلى ، هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .  
تفسير ابن كثير [٣٨٠/٣] .



فنبى الله يوسف ففسر الرؤيا للملك وفرح به وأخرجه من السجن ثم قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ أَلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤] فمعنى مكين هنا أى لك مركز ثابت ، ولا ينال أحد منك شيئا .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٥٦] أى : أعطيناه سلطة فيأخذ خير الشئ ويصرفه للآخرين .

ومعنى : ﴿ وَرَبِّيَ فِرْعَوْنًا وَهَمَكْنَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أن هامان هو وزير فرعون ، وكلمة : ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ تدل على أنه كان لكل منهما جنود وحرس خاص ، أو أن المعنى أن هامان يزاوِل سلطانه من باطن فرعون لأن فرعون لا يزاوِل سلطانه إلا بواسطة وزرائه ، فالجنود يأخذون أوامرهم من هامان ، فالمسألة واحدة . أو أن المقصود أن يجعل لهامان سلطة فرعون ؛ لأن هامان كان مركز قوة فى بلاط فرعون ولذلك كان هامان قوى الشخصية أمام فرعون ، ويرفع رأسه أمامه ، ونحن نسمع المثل الشعبى الذى يقول : « حتعمل ده على هامان »<sup>(١)</sup> أى أنك لا تستطيع أن تضحك على هامان لأنه مثلك ، فالله تعالى أراد أن يرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هؤلاء المستضعفين . يريهم الشئ كانوا يحذرونه ويخافونه . ما هو هذا الشئ ؟ الذى كانوا يحذرونه ويخافونه هو النبوءة التى جاءتهم إما بواسطة الرؤيا أو بواسطة الكهنة أنه رأى نارا تأتى من بيت المقدس وتتسلط على القبط فقط وتترك بنى إسرائيل ، فلما عبروا له الرؤيا قالوا : أنه سيأتى أحد من جهة بيت

(١) مثل شعبى : يضرب لمن لقي مثله فى خصلة من الخصال .

والمثل العربى : على أختك تطردين ، وقيل فى فرس عادات لرجل فركب أختها يطلب عليها .  
المستقصى فى أمثال العرب [٤١٢/١] .

المقدس ويقضى على فرعون ويستولى على الملك أو أن الكهنة قالوا لفرعون :  
إن طفلا سيولد هذا العام يكون ذهاب ملكك على يديه<sup>(١)</sup> .

فالحق سبحانه أراد أن يرى فرعون وجنوده ما يحذرونه منه من هؤلاء  
المستضعفين ، ويرون هذا الذى يحذرونه بأعينهم ، وحين ننظر فى المسألة نجد  
أن فرعون عرف برؤيا منه بواسطة الكهنة ، أنه سيأتى وليد سيكون ذهاب  
ملكه على يديه ، فخاف على ملكه وأخذ حذره واحتياطاته فقرر أن يقتل  
الغلمان الذين يولدون والذى يأمر بقتل الغلمان يجلس على شط النهر ، فىرى  
تابوتا عائما وفيه طفل فيأخذه جنوده إليه ، ويقوم بتربيته دون أن يخطر على  
باله أن هذا الوليد يمكن أن يكون هو قاتله والمتسبب فى زوال ملكه ، ودون  
أن يفكر لماذا ألقى أهل هذا الطفل به فى هذا التابوت ووضعوه فى ماء النيل ،  
فكيف ينسى كل هذه الأشياء مع أنه يدعى الألوهية وأنه يعرف كل شئ ؟  
إذا كان الكهنة قالوا له : إن ذهاب ملكه سيكون على يد طفل يولد من  
بنى إسرائيل فى عام كذا ، فمعنى ذلك أن هذا الطفل سينجو من القتل ويكبر ،  
ثم يكون على يديه زوال ملك فرعون ، فلماذا أتعب نفسه وقتل الأبرياء ، مع  
أن الرؤيا أخبرت أنه سيكون وسينجو من القتل ، فهو سيقتل غير الذى

---

(١) وهذا مما تلقاه القبط من بنى إسرائيل ، من أنه سيوجد منهم غلام يكون سبب  
هلاك وذهاب دولة فرعون على يديه ، فقد كان بنو إسرائيل يدرسون ذلك من قول  
خليل الله إبراهيم عليه السلام ، حين ورد مصر وجرى له مع جبارها ما جرى ،  
حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ومنعها بقدرته وسلطانه ، فبشر  
إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من ذريته من يكون هلاك مصر على يديه .  
وكانت القبط تحدث بها عند فرعون .

تفسير ابن كثير [٣/٣٨٠] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢١٢



ومن النواهي : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ ، وهناك خبران وبشارتان :  
﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

آية واحدة جمعت بين أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين ، وفي إجاز معجز .  
هل هذا الأمر يتقبله العقل ؟ لا . لأنه لا توجد أم يمر على ذهنها أو تفكيرها  
مثل هذا الخاطر أن تلقى بابنها في البحر خوفا من خطر يهدده . لا توجد أم  
تتقبل فكرة نجاة الابن من موت محتمل إلى موت محقق ، بل ومؤكد ، لكن  
أم موسى أخذت الوحي بكامله ، أرضعت الابن ثم ألقته في البحر وصدقت  
وعد الله بأنها سوف تسترد الابن ويكون موسى نبيا لأن الوحي هو الخاطر  
المقذوف في قلب الإنسان ولا يجد له الإنسان معارضا من ملكات النفس ،  
لكن لو وجد الإنسان ما يعارضه من ملكات النفس فإن هذا الوحي غير وارد  
من الله وإنما من الشيطان .

ومعنى ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ أى : من مدة أمانك عليه أما إذا خفت عليه من أى  
شء فألقيه في اليم .

أم تلقى ابنها في اليم الذى يأتى على بالها فى هذه اللحظة أنه سيضيع  
أو يغرق ، أو يتعرض للخطر ؛ فلذلك طمأنها ربها وقال لها : ﴿ وَلَا تَخَافِي  
وَلَا تَحْزَنِي ﴾ ، أى : لا تخافى عليه لأنه سيذهب إلى تربية خير من تربيتك  
أنت فى هذا البيت الفقير لأنه سيتربى عند الملوك ، ولا تحزنى للفراق ، فأنت  
مطمئنة إلى أنه سيعيش أحسن عيشة وسيتربى أحسن تربية ، ولكن لأنه بعيدا  
عنك فلا تحزنى على فراقه لأن هذا الفراق سيعوضك خيرا ويعوض الدنيا  
كلها خيرا لأنه سيقضى على طاغية ويحيى منهجاً لخلق الله فى الأرض .

ظلت أم موسى ترضعه عدة أشهر في أمان بعيدًا عن العيون وكان قد رأى واحد من رعية فرعون قابلة - داية - خارجة من بيت أم موسى فوق في ذهنه أن أحدًا بالبيت في حالة ولادة فأبلغ رجال فرعون وجاءوا ليفتشوا البيت . فلما أحست أمه بالخطر خافت عليه فلفته في قطعة قماش ، ولم تجد ما تخبئه فيه إلا الفرن وكان مسجورًا - مشتعلًا - بالنار ومن لوعتها وخوفها عليه لم تنتبه إلى أن الفرن فيه نار إلا بعد انصراف الجند ولم يجدوا شيئًا فتذكرت أنها وضعت في الفرن فارتجفت عليه وذهبت لترى ما حدث له فوجدت النار بردًا وسلامًا عليه ولم يحدث له مكروه . فاطمأنت إلى أن الله حافظ هذا الوليد ولن يحدث له سوء وأن وعد الله حق .

وقصة الوحي إلى أم موسى قد وردت في القرآن مرتين .. فظن البعض أن القرآن يكرر الآيات بدون داع لذلك ، وقصدوا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٦٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ ... ﴿٦٩﴾ ﴾ [ طه ] .

والوحي هنا جاء في وقت الخوف ، وكلمة : ﴿ أَقْذِفِيهِ ﴾ دليل على الاستعجال واللهفة لأنه ليس هناك وقت للعواطف .. ثم أمر الله سبحانه البحر أن يلقي التابوت إلى الساحل أمام قصر فرعون ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ ﴾ ، فكان الوحي في الآية الأولى تمهيد لما يحدث لتستعد نفسيًا للعمل ، لكن الآية الثانية جاء وقت الحادث كأنه يقول لها أسرعى وضعى الولد في التابوت واقذفيه في اليم .

بعد ذلك قال سبحانه : ﴿ يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لِمِّي ﴾ [طه : ٣٩] عدو لي ؛ لأنه ادعى الألوهية ، وعدو له ؛ لأنه سيقف أمام دعوته ويناصبه العداة وكون فرعون يأخذ موسى ويرببة في قصره ، فهذا دليل على أن الله تعالى إذا أراد شيئاً ، جعل أعداءه والكافرين به يقومون بهذا الشيء ، ويساعدون فيه دون أن يدروا ، وهم على تغفيلهم وجهلهم ، وإلا فهل يتصور أحد أن فرعون الذي كان يقتل الأطفال ؛ لأنهم قالوا له : إنه سيولد غلام يكون هلاكك على يديه ، بعد ذلك يجد طفلاً يقذف به البحر إلى قصره ، فيأخذه دون أن يفكر من الذي وضع الطفل في البحر ، ولماذا لم يفكر أن هذا الطفل هو الذي سيقنتله ؟ ولكن هذا مراد الله وليس مراد البشر وتجد زوجة فرعون تقول له كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَكِدًا ﴾ [القصر : ٩] ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِيُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْفَى ﴾ [طه : ٣٩] فلما رآه فرعون ورأته امرأته ، وقع في قلبيهما حبه ، فهناك محبة بأسباب الله ، ومحبة بدون اسباب ، ولكن الله أرادها .

واقراً إن شئت قول الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] فقلب الإنسان يريد أن يفعل شيئاً ولكن الله لم يرد ذلك ، فيحول بين مراد القلب وينقله إلى شيء آخر ، وهذا ما حدث مع فرعون ، فهو وامرأته أخذوا موسى ؛ ليكون لهما قرّة عين وأحبابه واهتما بتربيته ، فهذه محبة وليست عداوة ، ولكن في النهاية آل الأمر إلى أن يصبح هو العدو . ففرعون مع أنه ادعى الألوهية ، إلا أنه لم يعرف أنه يربى عدوه الذي سيقضى عليه ؛ لأنه كان مغفلاً . بعض الذين لا يفهمون القرآن يقولون : القرآن يقول : ﴿ يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لِمِّي ﴾ ثم يكررها فيقول :  
 نبي الله موسى عليه السلام

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [ القصص : ٩ ] مع أنهم التقطوه ليكون لهم ابنا وليس عدوا ، وهؤلاء يجهلون أن الآيتين ليستا مكررتين ؛ لأن إحداهما تصف جانباً من عداوة فرعون لموسى ولربه؛ فالعداوة هنا من فرعون ﴿ يَاخُذْهُ عَدُوًّا لِي وَعَدُوًّا لِمَنْ ﴾ لكن فى الآية الأخرى ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فهنا العداوة من موسى . فمرة تكون العداوة من فرعون ومرة تكون من موسى؛ لأن العداوة حين تكون متبادلة من الطرفين ، تكون عداوة شرسة وتستمر ، ويحاول كل طرف التغلب على الطرف الآخر ، ولكن إذا كانت العداوة من طرف واحد سريعاً ما تهدأ وتنتهى؛ لأن الطرف المعادى يستفز الطرف المسالم فيتحملة ويصبر عليه ، فلا بد أن يخجل بعد ذلك ويسكت ، لكن العداوة تكون شرسة حينما تكون موجودة عند الطرفين ، عداوة من فرعون لله ولموسى ، وعداوة من موسى لفرعون ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ أى ليست موجبات ذاتك يا موسى ولكنها تفضل منى عليك .

ومعنى ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْتٍ ﴾ <sup>(١)</sup> أن الذى يريه فرعون ، ولكنه يريه على عين الله ، فإن تعرض لشيء فى تربيته يتدخل الحق سبحانه لإصلاحه ، ولذلك

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْتٍ ﴾ وقرأ أبو جعفر : ﴿ وَلِئَصْنَعَ ﴾ بسكون اللام والعين والإدغام . قال أبو عبيدة : على ما أريد وأحب . قال ابن الأنبارى : هو من قول العرب : غذى فلان على عيني ، أى : على المحبة منى .

وقال غيره : لتربى وتغذى بمرأى منى ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا رباها؛ وصنع فرسه : إذا داوم على علفه ومراعاته ، والمعنى : ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْتٍ ﴾ .  
 زاد المسير [١٩٨/٥] .

مرة كان فرعون يداعب موسى وهو صغير فجذبه موسى من لحيته ، فغضب فرعون وكاد أن يقتله وتوجس فيه شرا ، فأخذته منه امرأته وضمته إلى صدرها وقالت له : إنه طفل صغير لا يعقل ولا يعرف التمرة من الجمرة ، فلم يقتنع فرعون وجاء لموسى بجمرة وتمرّة فجعل الله يد موسى تمتد إلى الجمرة ؛ حتى يصرف فرعون عن مراده ، فأخذ موسى الجمرة ووضعها على لسانه فأصابته بلثغة (١) فيه تسببت في عقدة لسانه (٢) ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِصْنَعِ عَلِيِّ عَيْبٍ ﴾ أى أن فرعون وحاشيته سيربون موسى ولكن لو حدث منهم أى اعوجاج أو تصرف مخالف فى هذه التربية ، فإن الله سيحفظه ويرعاه .

(١) اللثغة : أن تعدل الحرف إلى حرف غيره . والألثغ : الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل : هو الذى يجعل الراء غيناً أو لاماً ، أو يجعل الراء فى طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاء ، وقيل : هو الذى يتحول لسانه عن السين إلى الشاء ، وقيل : هو الذى لا يتم رفع لسانه فى الكلام وفيه ثقل ، وقيل : هو الذى لا يبين الكلام .  
لسان العرب [٤٤٨/٨] .

(٢) لما جاء موسى إلى قصر فرعون قالت امرأة فرعون : خذه ﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَكَأَنَّ ﴾ قال فرعون : هو قرّة عين لك ولا لى . قال عبد الله بن عباس : لو أنه قال وهو لى قرّة عين إذا لآمن به ، ولكنه أبى ، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها ، فقال فرعون على بالذباحين هذا هو ، قالت آسية : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَسْتَحِذُ وَكَأَنَّ ﴾ إنما هو صبى لا يعقل ، وإنما صنع هذا من صباه ، وقد علمت أنه ليس فى أهل مصر امرأة أحلى منى ، أنا أضع له حليا من الياقوت وأضع له جمرا ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذهب ، وإن أخذ الجمر فإتما هو صبى ، فأخرجت له ياقوتها فوضعت له طستا من جمر ، فعجاء جبرائيل فطرح فى يده جمرة ، فطرحها موسى فى فيه ، فأحرق لسانه ، فهو الذى يقول الله عز وجل : ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِّنْ لِّسَانِي ﴾ يَقْفَهُرًا قَوْلِي ﴿ [ طه ] .

تاريخ الطبرى [٢٧٤/١] .



ثم يقول تعالى : ﴿ إِذ تَمْشِي أُنْتَك فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَمَّتَ سِينِينَ ۖ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٠] أم موسى حينما ألقته فى اليم ، قالت لأخته : قصيه - أى تتبعى أثره - فلما حملة البحر إلى قصر فرعون المطل على النيل ، والتقطه آل فرعون ، حرم ربنا سبحانه وتعالى عليه المراضع .

قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلَ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] فكلما أتوا له بمرضعة رفض أن يرضع .

فقالته أخته لهم : أنا أدلكم على مرضعة ترضعه لكم . فوافقوا وجاءت أمه لترضعه وبذلك أعاده الله إلى أمه .

فقول الله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِیًّا ۖ إِن كَادَتْ لَتَنْبِیْئِهِ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَی قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠] أى بلغ من فراغ قلبها أنها كادت أن تقول : هذا ابنى . لولا أن ربط الله على قلبها ، فالله ربط على قلبها لتكون من المؤمنین ؛ لأن الإيمان يمنعك من الضار ويجلب لك النافع ؛ وإن كان الضار فيه شهوة عاجلة لك ، فهذا ابنك حقا ، وأنت ملهوفة عليه ، لكنك لو أظهرت ذلك لفرعون أو أحد من حاشيته سيقتلونه فى الحال ، فالله لا يريد منك ذلك حتى يظل ابنك حيا ، ولكن أم موسى مع تثبيت الله لها ، وصبرها على فراق ابنها ، لم تطق أن تترك وليدها فى الماء تتقاذفه الأمواج ، فأمرت أخته أن تراقبه من بعيد حتى تأتيا بالخبر .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) [ القصص : ١١ ] . قصية أى : تتبعى خط سيره ، وانظري أين يذهب ؟ وماذا يحدث له ؟ وقوله تعالى : ﴿ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ ﴾ دليل على سرعة الحدث ، فلم يقل : إنها قالت لها قصيه فلما قصته بصرت به . لا ، بل قال : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ ﴾ وهذا هو الإيجاز المعجز ؛ لأن المتحدث هو الله ، وكلمة « بصر » مثل « رأى » ولكنها أقوى منها . ومعنى ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : أنها رأته دون أن يراها أحد أو يعرف أنها رأته .

واقراً قول الله تعالى فى قصة السامرى : ﴿ قَالَ بَصَّرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [ طه : ٩٦ ] ، فـ « بصر » أى : رأى شيئاً دون أن يعرف أحد أنه رآه ، وتتجلى حكمة وذكاء أخت موسى فى أن أمها قالت لها : قصيه ، ولم تقل لها : إياك أن يراك أحد ، أو توارى عن الأنظار ، ولكن هى من نفسها قدرت الموقف ، ولم تعط فرصة لأحد أن يراها وهى تتبعه ، وفى هذا يقول الشاعر :  
إذا كنت فى حاجة مرسلأ فأرسل حكيمأ ولا توصيه  
فأخت موسى لم تكن محتاجة إلى من ينصحها أن تتوارى عن عيون القوم وهى تتبع أثر أخيها ، عرفت ذلك من نفسها .

(١) قال القاسمى : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى اتبعى أثره لتتالى خبره . ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ يضم النون وسكونها . أى : عن بعد ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : أنها تتعرف حاله .

محاسن التأويل [١٣/٤٦٩٨] .

يقول تعالى : ﴿ فَأَلْقَطَهُمْ آءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ  
 وَهَمْلَكَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ ﴾ [ القصص : ٨ ] « اللقط » أو « اللقطة » (١) :  
 هي أن تجد شيئاً بدون طلب له ، أن تكون سائراً في الطريق مثلاً وتجد شيئاً  
 دون أن تبحث عنه ، فاللقطة أن تجد شيئاً لم تطلبه ، و « اللقيط » هو الرضيع  
 الذى تجده ملقى فى أى مكان فى الشارع ... إلخ . فآل فرعون التقطوا موسى ،  
 أو وجدوه أمام قصرهم على الشاطئ فأخذوه .. لم ؟ قالت زوجة فرعون :  
 ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلكَ ﴾ [ القصص : ٩ ] وجاءت بحيثية أخرى وهى أنهما ليس  
 عندهما أولاد ذكور ، فيكون لهما ولدان مع ابنتهما الوحيدة .

إذن .. علة الالتقاط عندهم يكون قرعة عين لامرأة فرعون ، ويصبح ولدان  
 يسند البنت . هذا علة الالتقاط عندهم ، فهل علة الالتقاط ظلت وبقيت كما  
 أرادوها هم ؟ لا ؛ لأن الله أراد شيئاً آخر ، فهم فى الحقيقة التقطوه ،  
 لا ليكون لهم قرعة عين أو يكون لهم ولدان ، ولكن التقطوه ليكون لهم عدوا ،  
 فهم أرادوا شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ، فقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَطَهُمْ آءَالَ فِرْعَوْنَ  
 لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فالحزن - بفتح الحاء والزاي - معناه ، مثل العدم  
 والعدم ، وسقم وسقم ، وبخل وبخل ... إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ ﴾ [ القصص : ٨ ]  
 فقد أخطأوا فى أخذ موسى وتربيته ليكون لهم قرعة عين ، مع أنه سيكون

(١) اللقط : أخذ الشيء من الأرض . واللقطة : اسم الشيء الذى تجده ملقى فتأخذه .  
 لسان العرب [٣٩٢/٧] .

واللقيط لغة : ما يلقط من الأرض . ثم استعمل للصبى المطرود .  
 وفى الشرع : مولود طرحه أهله خوفاً من الفقر ، أو فرار من التهمة بالزنا .  
 تيسير القديرى فى الفقه الحنفى [٦٣] .



لا ترضع الآن ، فالذهول عن التي ترضع أى أن طفلها يكون ملتقماً ثديها وتذهل عنه .

فلما رأت أخت موسى أنه لا يرضع من أحد قالت لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ فلما قالت ذلك ، سمعها هامان فسألها إن كانت تعرف شيئاً عن هذا الطفل ، قالت : لا ، ولكنهم ناصحون ، محبوبون للملك ومخلصون له (١) .

فرده الله إلى أمه ، قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ القصص : ١٣ ]  
فرده الله سبحانه إلى أمه كى تفرح وتقر عينها به ولا تحزن على فراقه ، ولتعلم بجزئية بشرها الله بها فتحققت ، وأن ما بشرها الله به سيتحقق كما تحقق جزء منه ، حينما امتثلت لأمر الله بوضعه فى التابوت ، وإلقائه فى اليم . ووعدها سبحانه برده إليها وجعله من المرسلين ، فوفى الله بما وعد به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَتْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ القصص : ١٤ ] الأشد : هو القوة ، وهو أن يصل الإنسان إلى قمة نموه ونضجه الجسمى ، وهو ما بين ثمانى عشرة سنة إلى عشرين سنة ،

---

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس : لما قالت لهم ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم ، فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخاصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً .

تفسير ابن كثير [٣/٣٦٨] .

أما الاستواء : فهو نضج العقل ، فلما بلغ سيدنا موسى قمة النضج الجسمي والعقلي ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وكذلك يجزى الله المحسنين . والمحسن : هو من يزيد في طاعة الله وعبادته من جنس ما افترضه الله عليه<sup>(١)</sup> .

ثم تمضى الأحداث فيقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴾ [ القصص : ١٥ ] ﴿ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ ﴾ أى : فى وقت القيلولة؛ لأن قوم موسى كانوا مضطهدين ، وهناك بعض المدن يمنعون من دخولها؛ لأن بها أكثرية من أعدائهم ، وكان موسى واحدا منهم ، ولكن الله جعل موسى يعزم على دخول المدينة - وهى « منف » - فأراد أن يدخلها وقت غفلة من أهلها ، واختار وقت القيلولة لأن الناس يقيمون فيه فى بيوتهم ، فلما دخلها وجد فيها رجلين يتشاجران أحدهما من شيعته أى من بنى إسرائيل ، والآخر من القبط .

ومعنى استغاث : أى طلب العوث ، فاستغاثه الإسرائيلي على القبطى فوكزه موسى ، أى ضربه بجمع يديه ، فجاء قدر القبطى مع الوكزة ، فلم يمت من الوكزة ، ولكنه مات عندها لا بها فجاء أجله ؛ ولذلك يقولون : فلان قضى لى المصلحة ، وذهب إلى المسئولين ، وقضى حاجتى ، مع أن الواقع أنه لم يفعل شيئاً ؛ لأنه لا يقضى فى الأرض حتى يقضى فى السماء ، ولكن

(١) قال الشوكانى فى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى مثل ذلك الجزء الذى جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله ، وألقت ولدها فى البحر ، وصدقت بوعد الله ، نجزي المحسنين على إحسانهم . والمراد : العموم .

فتح القدير [٤/١٥٨] .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٢٤



لما أصبح موسى في المدينة خائفا يترقب انفعالات الناس المقبلين عليه؛ خشية أن ينتقموا منه ، وجد الرجل الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس يستصرخه .  
كلمة استصرخ من الصراخ ، ونحن نعرف أن الصراخ استنجد؛ ليخلصك من مأزق ، فمثلاً لو أن إنسانا كان في بيته ، وفاجأه لص أو شب حريق في بيته ، تجده يصرخ طالبا النجدة ، فالصراخ استنجد لمن ينقذه؛ ولذلك نجد في قول الحق سبحانه وتعالى عن إبليس وأتباعه : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ .

لما وجد موسى الرجل الذي طلب نصرته بالأمس يستصرخه قال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨] أنت تريد أن تغويني لأكرر خطأ الأمس ، ومع ذلك حن لنصرته ولم يترك خصمه يفتك به ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا يُسُوفُ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا يَا لَأَمْسٍ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩] .

وعندئذ جاء الرجل المؤمن من آل فرعون من آخر المدينة يسعى إلى موسى ليحذره ، وقال له : ﴿ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠] ، فكان الرجل ينصحه بالهرب قبل أن يقتله فرعون وقومه ، ولم يجد موسى بدا من الخروج ، ولكن كان ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٢١] أي خرج من المدينة متخفياً ؛ خشية أن يراه أحد ؛



لأن قوم فرعون كانوا يضطهدونهم دون أن يفعلوا شيئا ، فما بالك إن اعتدوا وقتلوا منهم واحداً ؟ أراد موسى أن يهرب من مصر كلها ، ويتوجه إلى بلاد مدين ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [ القصص : ٢١ ] .

كلمة ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ ﴾ أى : جهة ، ولكنه أراد الهرب ، خشية أن يفتك به فرعون وملؤه ، فسلك هذا الطريق فقادته إلى بلاد مدين ؛ لأن الله أراد له ذلك ؛ لأنه لو كان يقصد بلاد مدين بالذات لما قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ فكأنه رأى أمامه طريقا فسار فيه ؛ لأنه لم يكن عنده وقت التفكير إلى أى بلد يذهب ، وأى طريق يسلك .

والقضية التي تشغل العالم الآن هي قضية الجنسين : الرجل والمرأة ، وهذه القضية هي رأس الحربة التي توجه دائما للإسلام ، لماذا؟ لأنهم يريدون أن تظهر المرأة مفاتها وتختلط بالرجال ، في سن المراهقة أقوى أوقات ثورتها ، فيشغلون الناس بها ، القرآن أتى ليوضح هذا في قصة موسى ، وهو مهاجر من مصر هربا من القتل ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [ القصص : ٢٣ ] فموسى عليه السلام عندما وصل البئر التي يشرب منها أهل مدين ويسقون أنعامهم ، وجد عندها عددا من الرجال يسقون أنعامهم ، ووجد بعيدا عنهم امرأتين تذودان .

فمعنى قوله : ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى تمنعان الماشية أن تقترب من الماء ، وهي عملية لفتة للنظر؛ لقد جاءت لتسقيا ، فلماذا تمنعان الماشية عن الماء ؟ كان طبيعيا أن يسألها موسى ما خطبكما ؟ يعنى ما حكايكما ؟ ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۚ ٢٢٧ ﴾





خصوم الإسلام يريدون أن يجعلوا المرأة نصف المجتمع ، ولا بد أن تخرج وتشارك الرجل ، مع أن هناك مؤتمرا عقدته نساء أمريكا أوصى بأن تعود المرأة إلى بيتها . فنساء أمريكا يطالبن بعودة المرأة إلى بيتها ، ونساؤنا - هنا - يقلن : لا بد أن تخرج المرأة لتبنى المجتمع . ومع أن المرأة تبنى المجتمع وهى فى بيتها مع زوجها وأطفالها أفضل مما تبنيه وهى فى أرقى المناصب ؛ فطفولة الإنسان هى أطول طفولة بين المخلوقات - حوالى خمس عشرة سنة - وهذه الطفولة طوال هذه السنوات تؤثر فيها الأم فى كل شئ ، فى الدين ، فى القيم ، فى الأخلاق ، فى الأمانة ، وفى كل خلق كريم .

ولذلك عندما تقول المرأة : أريد أن أخرج للعمل ، نقول لها : أنت أم فاشلة ؛ فالأمهات اللاتى خرجن للعمل ووصلن إلى أعلى المناصب لم يخرجن لنا عظيما واحدا ، وكل عظماء الدنيا من الأمهات اللاتى جلسن فى البيوت لتربية أولادهن .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَدُوعٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [ القصص : ٢٩ ] الأجل هو الثمان سنوات أو العشر . والحق سبحانه أطلق على الزوجة : أهل الرجل ، ونحن نقول إن أهلى معى ، أو أن الجماعة معى ؛ وذلك لأن الزوجة تقضى للرجل ما لا يقضيه غيرها وتزيد شيئا لا يصح أن يقضيه غيرها ، فقامت مقام الأهل أو الجماعة .

ومعنى : ﴿ آنَسَ ﴾ أبصر ورأى ، أو أحس بشئ يؤنس ، من الأنس . ﴿ الطُّورِ ﴾ هو جبل الطور بجنوب سيناء ، ومعنى : ﴿ امْكُثُوا ﴾ أى انتظروا فى هذا المكان .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٣٠

وقوله : ﴿ إِنِّي ءَأَنْتُّ نَارًا ﴾ معناه أنه يخبرها ، وأنها لم ترها ، ولو كانت نارا مادية من صنع البشر لاستوى الأهل معه فى الرؤية ، فكأن هذه حالة خاصة به .

وكلمة ﴿ لَعَلِّي ﴾ تفيد الرجاء ؛ لأنهما كانا تائهين لا يعرفان أين يذهبان ؟ ولا أين الطريق ؟ فهذا هو الخير الذى يسألان عنه ، وكان الجو باردا يستلزم البحث عن جذوة من النار يستدفئان بها ، فمأرب موسى وأهله فى تلك اللحظة شئ يهديهما الطريق ويعرفهما أين هما ، وشئ يدفئهما من البرد ، فجاءهما الحق سبحانه بهذين الأمرين معا برؤية هذه النار .

فى هذه الآية موسى آنس النار بذاته ، ولكن فى الآيات الأخرى يخبر أهله بأنه آنس هذه النار ، فهذا ليس تكرارا للقصة ؛ لأن موسى عليه السلام آنس بذاته نارا بجانب الطور ، وبعد ذلك قال لأهله : ﴿ إِنِّي ءَأَنْتُّ نَارًا ﴾ ، ومرة يقول لهم : ﴿ أَمْكُثُوا إِنِّي ءَأَنْتُّ نَارًا ﴾ ، وهذه عملية منطقية لابد أن تحدث ، فهو وزوجته يسيران فى ظلام الصحراء ، والجو بارد ، والطريق غير واضح المعالم ، فهو يريد أن يهتدى إلى الطريق ، ويحتاج إلى نار؛ ليستدفئ بها . فلما رأى النار ، وأخبر زوجته أنه سيذهب يستطلع الخير ، لابد أنها ستطلب أن تذهب معه ؛ خشية أن تظل وحدها فى هذا الجو الخفيف ، ولكنه سيمنعها من الذهاب معه ويأمرها أن تنتظر حتى يذهب هو ، ويستطلع الأمر أولا ؛ ولذلك جاءت الآية الأخرى بلفظ : ﴿ أَمْكُثُوا ﴾ ؛ أى : انتظروا .  
ففى البداية آنس هو النار ، فأخبر أهله بذلك ، وبعد ذلك أمرهم أن يمكثوا ولا يأتوا معه إلى النار ، فالآية قد وردت ثلاث مرات :  
الأولى : آنس ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ .



أو جمرات ، يحمل منها شيئاً إلى أهله ليستدفنوا بها ، والعلة في الحالتين أن يدفع أهله .

﴿ لَقَلَّكُمْ تَصَلُّونَ ﴾ والإصطلاء هو التدفئة ، فهو بذلك جاء بكل الاحتمالات .

إذن .. كل تكرار له معنى ، وله سبب ، فكل قصة لها لقطات متعددة تكمل معناها أو أحداثها .

قول الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ إذا كان النبي موسى وزوجته في الرحلة ، فكيف يسميها القرآن أهله ؟ بعض العلماء قالوا : ربما كان معها الخدم ، أو الرعاة وهذا كلام طيب ، ولكن كلمة أهل هنا لها معنى ، فالإنسان منا يحتاج إلى أشياء كثيرة في حياته ، قد تتكامل هذه الأشياء بتعدد الناس ، فهذا يطبخ الطعام ، وهذا ينظف البيت ، وهذا يصنع له القهوة والشاي ، وهذا يكوى الملابس ، وهذا يقود السيارة ، وهذا يشتري الخضار ولوازم البيت من السوق .. إلخ ، فهو يحتاج في خدماته إلى مجموعة من الناس ، لكن هناك شيئاً واحداً لا يستطيع أحد أن يعطيه له إلا زوجته فهو لا يتمتع إلا بها ، ولا ينبج ذرية إلا منها ، وقد تقوم هي بكل هذه الأعمال وتغنيه عن هؤلاء الناس جميعاً ، فكأن الزوجة تغني عن الأهل كلهم .

فكلمة « الأهل »<sup>(١)</sup> هنا تعنى الزوجة . وفي اللغة العامية لغالب المصريين تجد الناس يقولون : « فلان حضر هو وجماعته » هنا كلمة جماعته مقصود بها

(١) ابن سيدة : أهل الرجل عشيرته وذوو قرياه . وأهل المذهب : من يدين به ، وأهل الإسلام : من يدين به . وأهل الأمر : ولاته . وأهل البيت : سكانه . وأهل الرجل : أخص الناس به وأهل بيت النبي ﷺ : أزواجه وبناته وصهره ، يعنى علياً ، وقيل : نساء النبي ﷺ .

لسان العرب [٢٩/١١] .

٢٣٣ 

---

 نبي الله موسى عليه السلام

زوجته ، وفي هذا احترام للزوجة ، فهو لم يذكر اسمها ، وذكر لها صفة طيبة ، وهي أنها تقوم بمهام كثيرة لا تقوم بها إلا جماعة من الناس .

ومعنى : « أنس »<sup>(١)</sup> : أى شعر وأحس بشئ يؤنسه ، وهي ضد التوجس ؛ لأن التوجس معناه الإحساس والشعور بشئ مخيف ، قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ ﴿٧٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٧٨﴾ ﴾ [طه] فى هذه الآية كلمة « أنس » أفادت أنه أبصر ورأى .

ومعنى : ﴿ سَتَاتِكُمْ مِّنْهَا يُخْبِرُ ﴾ أى : خبر يخرجنا من حالة الضياع وعدم معرفتنا الطريق .

ومعنى : ﴿ ءَاتِيَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ الشهاب : هو النار المشتعلة .

ومعنى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودَىٰ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ نودى من النداء ، والنداء : طلب إقبال أحد ، فتقول : يا فلان فيأتيك ، وبعد ذلك تأمره بما تريد .

وهنا النداء لم يذكر فيه اسم نبي الله موسى ، مثلما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ... نُودَىٰ يَمْوَسَىٰ ﴿١١﴾ إِيَّيْنَا أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] ولكن فى هذه الآية لم يقل : يا موسى ، بورك من فى النار ، فليس هذا نداء . فالنداء يطلق ، ويراد به مجرد الخطاب ؛ لأنه ما دام يخاطبه فكأنه ناداه ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة الأعراف : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾

(١) ﴿ إِيَّيْنَا ءَأَسْتُ نَارًا ﴾ قال الفراء : إني وجدت . يقال : هل آنتست أحدا ؟ أى : وجدت . وقال ابن قتيبة : آنتست بمعنى أبصرت . زاد المسير [١٩٠/٥] .







بضمير الجمع مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِيَّ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] .  
 فقال : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ ۗ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ لم يقل  
 إني الرب المطلق ولكن قال له أنا ربك أنت ، وذلك لأن الرسل لهم تربية خاصة  
 تختلف عن باقى الخلق جميعاً ؛ ولذلك قال له فى آية أخرى : ﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَيَّ  
 عَيْنِي ۗ ﴾ [طه : ٣٩] وقال أيضاً : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۗ ﴾ [طه : ٤١] فهو  
 سبحانه يعطيك من التربية بما يناسب مهمتك عنده .

وأول أمر وجهه الحق سبحانه لموسى فى هذا الموقف أن يخلع نعليه ، وعلّة  
 ذلك أنه بالوادي المقدس الذى اسمه : « طوى » .

وفى آية أخرى يقول : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِيٍّ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي  
 الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ [القصر : ٣٠] وهذا ليس تكرار فى القرآن ،  
 ولكن كل آية تعطى لقطة ، فلو جمعنا اللقطات تعطينا القصة كاملة فالوادي  
 المقدس اسمه : « طوى » ، وفى الآية الثانية حدد المكان أكثر وبين أنه فى :  
 ﴿ مِنْ شَلْطِيٍّ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ . فهذا تحديد  
 للمكان ، ولكن لماذا أمره بخلع نعليه ؟ قالوا : لأنه مادام واديا مقدسا لا يصح  
 أن تفصل جسمك بشئ يفصلك من هذا الوادي مع أنه يمكنك أن تصلى فى  
 نعلك ما دام طاهرا ولكن هنا الوادي مقدس أى مطهر ولذلك بعض الناس  
 كانوا يمشون حفاة فى المدينة المنورة لعلهم يصادفوا موطئا لقدم الرسول ﷺ (١) .

(١) عن عاصم الأحول عن حدثه قال : « كان ابن عمر إذا رآه أحد ظن أن به شيئا  
 من تبعه آثار النبي ﷺ » . أخرجه أبو نعيم فى الحلية [٣١٠/١] واللفظ له ، وابن  
 سعد فى الطبقات الكبرى [١٤٤/٤] .





أخفى ساعة الفرد كما أخفى ساعة الكون ، حتى تحذر أن تلقى الله على معصية ، فتستعد للموت فى كل لحظة ، كما أنك لا تعرف موعد الساعة الكبرى ، فلا تأخذ نعم الله وتمتع بها وتظن أنك هربت بها من الله ، لأنك ستعود إليه فى النهاية . ومعنى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آئِيَةٌ ﴾ لم يقل : « مأتى بها » مع أن الله هو الذى يأتى بها ، ولكن قال : ﴿ آئِيَةٌ ﴾ فكان القيامة شئ مضبوط على الموعد وسيأتى وحده فى مواعده وكلمة : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيًا ﴾ كاد بمعنى « قرب » ، تقول كاد زيد يجىء ، أى قرب زيد أن يجىء . فهو لم يأت بعد فمعنى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيًا ﴾ أقرب من أننى أخفيها وهى مخفية ؛ لأنك لا تعرف مواعدها .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى ﴾ [طه : ١٥] أى أن كل نفس ستحاسب على عملها ، وتأخذ عليه الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ولولا هذا الجزاء الأخرى لكان المنحرفون الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا فى الوجود ، أكثر حظا من المؤمنين الملتزمين بمنهج الله .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه : ١٦] لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يتمنى ألا تكون هناك آخرة ولا حساب .

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَلْمُوسَى أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴾ (١) [ القصص : ٣١ ] ما هذه

(١) قال الزمخشري : وقالوا : أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد فى إكرامه . وقالوا : انقطع لسانه بالهيبة فأجمل . وقالوا : اسم العصا « تبة » . وقيل فى « المآرب » : كانت ذات شعبيتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه ، فعلق بها أدواته من نبي الله موسى عليه السلام ٢٤٠









المرحلة الأولى : هي التي واكبت اختيار الله لموسى عليه السلام ليكون رسولاً حينما قال الله له ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [ طه ] .  
 الله سأل موسى عن الذي فى يده ، موسى كان يمكن أن يجيب بأنها عصا ، ولكنه إنسان كرم بأن يكلمه ربه فأراد أن يطيل أنسه بكلام الله سبحانه ، فذكر صفات العصا واستخدامها وفوائدها له .

ولكن أخبره الله تعالى أن لها مهمة أخرى عنده وأمره أن يلقبها ، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [ طه ] . فلما ألقاها انقلبت حية بعد أن كانت عصا ، والعصا معروف أنها كانت غصناً من شجرة ، ولم تصبح عصا إلا بعد أن انتهت حياتها النباتية ، وصارت جماداً بعد قطعها من الشجرة ، ومع ذلك فهى لم تنقلب إلى شجرة كما كانت فى الأصل ولكنها تجاوزت مرحلة النباتية التى كانت عليها فى البداية ، وانتقلت إلى مرحلة الحيوانية ، وهى مرتبة أعلى من النباتية .

موسى ساعة رأى هذا المنظر خاف ، فطمأنه ربه وقال له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴿١١﴾ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [ طه : ٢١ ] فأمسكها فصارت عصا ، فكأن الله تعالى يدربه على المهمة ، فحينما يقابل فرعون يكون قد جربها قبل ذلك ؛ لأنه لو بدأها مع فرعون قد يخاف من إلقائها؛ خشية ألا تتحقق المعجزة ، ولكنه بعد أن تدرّب عليها اطمأن قلبه وأصبح واثقاً من المعجزة .

والمرحلة الثانية : حينما ألقاها أمام فرعون وحاشيته .

والمرحلة الثالثة : حينما ألقاها أمام السحرة فى يوم الزينة .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣١﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٢﴾ [ الشعراء ] ومعنى ثعبان مبین أى واضح « الثعبانية » من حياة وحركة وشكل وكل شئ .

والقرآن الكريم يصف عصا موسى بعدة أصناف : مرة يصفها بالثعبان ، ومرة بالحية ، ومرة بالجان ، وهذه الأوصاف كلها مجتمعة فيها فهى حية وثعبان وجان؛ فهى فى خفة حركتها كأنها جان ، وفى شكلها المرعب كأنها حية ، وفى تلوينها كأنها ثعبان . فى الوقت الواحد تأخذ كل هذه الأوصاف . موسى عليه السلام كان أسمر اللون ، ومن معجزاته أنه سيضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء لها شعاع وبريق يأخذ الأبصار ، فالجيب ليس هو جيبك الذى تضع فيه المنديل أو النقود ، ولكن الجيب معناه فتحة الصدر<sup>(١)</sup> ، موسى أخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين .

يكون هلاك فرعون على يديه ؛ ولأن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه ، فقد نجى الله تعالى موسى من بطش فرعون الذى كان يقتل الأطفال الذكور ، ويترك الإناث ، وجعله يتربى فى بيت فرعون وهو الذى يرعاه ويعتنى به ، وهذا دليل على أن الله إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم .

(١) قال ابن كثير قوله : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَحْضُرْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [ النور : ٣١ ] قال سعيد ابن جبیر ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وليشددن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى على النحر والصدر ، فلا يرى منه شئ . تفسير ابن كثير [٢٨٤/٣] .

أخرج البخارى [٤٧٥٨] عن عائشة رضی الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمت بها .







وما كنت أعتقد أبداً أن وكزة كهذه ستميت أحداً ، فكلمة ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ هنا ليس معناها أنه كان ضالاً عن الهدى ؛ لأن هذه الكلمة لها استعمالات متعددة ، فالذى ضل في الصحراء هل هو تعمد أن يضل ؟ لا .

وحين يقول ربنا لرسوله ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ <sup>(١)</sup> [الضحى : ٧] فهذا ليس معناه أن الرسول كان ضالاً عن الحق ؛ لأنه لم يكن عنده منهج من الله وتركه إلى غيره ، ولم يحدث هذا .

ومعنى ﴿ فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ [الشعراء : ٢١] أى حكمة تجعلنى أضع الأشياء فى مواضعها؛ لأننى خرجت مظلوماً ولم أقصد قتل الرجل ، فأعطانى ربي من الحكمة؛ حتى لا أضع الشئ إلا فى محله .

بعد ذلك يقول موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢١] أى هل تمن على بهذه الأشياء التى فعلتها معى من تربية ورعاية ، هل هذه الحسنة تقارنها بما تفعله مع بنى إسرائيل ، من ذبح الأطفال الذكور واستحياء النساء واستعباد الرجال ، فهل هذا يقارن بما تفعله فى حق قومى ومعنى : ﴿ عَبَّدتَّ ﴾ أى جعلتهم عبيداً .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] أى من هو رب العالمين الذى تتحدث عنه؟ فرد موسى ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء : ٢٣] .

(١) قال ابن كثير : منهم من قال : إن المراد بهذا أن النبى ﷺ ضل فى شعاب مكة وهو صغير ، ثم رجع . وقيل : إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام وكان راكبا ناقة فى الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالرحلة إلى الطريق . تفسير ابن كثير [٤/٥٢٥] .

السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأبراج ، ورب هذه الأرض بما فيها من زرع وثمار وجبال وبحار وأنهار وحيوان ، وهو الذى خلقها قبل أن توجد أنت يا فرعون .

موسى رد على فرعون بشئ ثبت فى الكون قبل وجوده ، فما الذى زدته أنت فى الكون يا من تدعى الألوهية ، ثم تلتطف معه فى الحوار فقال : ﴿ إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [ الشعراء : ٢٤ ] أى إن كنتم تظنون أن هذه الأشياء لم يخلقها أحد .

استغرب فرعون هذا الكلام من موسى ف ﴿ قَالَ لِمَن حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ فرعون قال ذلك لأنه كان ينتظر من أتباعه بمجرد أن ينفى موسى عنه الربوبية والألوهية ، وينسبها إلى من خلق السموات والأرض ، أن يهبوا لإسكات موسى والرد عليه ، لأنه حقر إلههم ، ونفى عنه ما يدعى فقال لهم مستنكراً سكوتهم ﴿ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ أى أما سمعتم ما قاله فى حقى ؟ فلماذا تسكتون ؟ وهم سكتوا لأنهم يعلمون أنه كاذب فى الألوهية ، ويتمنون فى قرارة أنفسهم أن ينصر الله موسى عليه ، حتى يتخلصوا من جبروته وطغيانه .

موسى سارع فى بسط حجته ، قبل أن يتدخل أحد من القوم فى الحوار ، ف : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [ الشعراء : ٢٦ ] أى من الذى كان إله آبائك وأجدادك يا فرعون قبل أن توجد أنت .

حينما رأى فرعون أن موسى سيهزمه بالحجة والمنطق ، أراد أن يخرج من هذا الجدل فاتهمه بالجنون ، وهذه أيسر تهمة للدعاة عند الحكام المستبدين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الشعراء : ٢٧ ] هذا الأسلوب يفضح فرعون ، فهو يعترف أن موسى رسول مرسل ، وما دام



مرسلا فلا بد أن هناك من أرسله وهو الله ، فكلامه فيه شهادة ضده مع أنه لم يستطيع أن يرد على كلام موسى ، فاتهمه بالجنون ولكن موسى لم يعبأ بقوله ومضى فى عرض دعوته ، و ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [ الشعراء : ٢٧ ] أى أن ربى رب المشرق والمغرب وما بينهما ، وجاء بمقابل الجنون الذى اتهمه فرعون به ، فقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إن كان عندكم عقل تقيسون به الأمور .

ولما ضاق فرعون به ذرعا ولم يجد حجة يرد بها عليه ، هده بالسجن ، شأن كل حاكم طاغية لا يفاهم ، ولا يقتنع بالحوار مع معارضيه .

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَيْنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴾ [ الشعراء : ٢٩ ] وهذا إفلاس فى الحجة ، فكونك تقوى على الغالب وتأخذ إلى السجن ، فأنت لم تقو على الحجة فلو كانت عندك حجة لقرعت الحجة بالحجة ، والناس الذين يسمعون الحوار لو أنهم فهموا مادار فيه ، كان عليهم أن ينقلبوا عليه؛ لأنك حين تحاور إنساناً يجب عليك أن ترد على حجته بحجة مضادة ، ولا يحق لك أن تسكته وتحبسه حتى لا يتكلم ، موسى يعرف سجن فرعون وكان من عادته أنه إذا سجن أحداً يظل فى السجن حتى يموت .

رغم كل هذا الجدل ، موسى لم يظهر معجزته بعد ، ولكنه أخرها إلى نهاية الحوار ، فلما وجده لم يقتنع بالحوار وهدده بالسجن أراد أن يريه الآيات و ﴿ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَىءٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ فجعل فرعون يوافق أن يعرض موسى ما عنده من آيات أمامه ، فقال له : أتجعلنى من

المسجونين حتى لو جئتك بشئ مبين واضح ، فى أنى صادق فى البلاغ عن الله ، فطلب منه فرعون أن يزيه هذا الشئ إن كان صادقاً فيما يقول . وهنا ألقى موسى عصاه فى صالة القصر الفسيحة ، تحولت أنظار الواقفين جميعاً إلى العصا وهى ترتطم بأرض الصالة الرخامية لم تكد العصا تلمس الأرض حتى تحولت إلى ثعبان هائل يتحرك بسرعة .

اتجه الثعبان الهائل نحو فرعون .. شحب وجه فرعون من الخوف وانكمش فى كرسيه وصرخ أن يبعدوا عنه الثعبان . مد موسى يده إلى الثعبان فعاد فى يده إلى عصا كما كان .. سقط الصمت بعد هذه الآية .

عاد موسى يكشف أمام الواقفين معجزته الثانية ، أدخل يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى بيضاء كالقمر .. شحبت كل أضواء القصر وشموعه أمام هذا النور الجديد ، ظهر وجه فرعون أخضر من الخوف ﴿ قَالَتِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٧﴾ وَرَجَّ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ الشعراء ] .

صمتت الأصوات فى القصر وانغرس تأثير المعجزتين فى النفوس يحمل تيار من الخوف أول ما يحمل ثم أعاد موسى يده إلى جيبه فعادت كما كانت ، ذاب النور المدهش الذى حملته الآية الثانية إلى المكان .

ماذا كان موقف فرعون والملا من هاتين المعجزتين ؟

﴿ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ حَوْلُوا إِنَّا هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴿٣١﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكَلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ الشعراء ] .

بيدوا أنهم كانوا يضيقون بخطرسته وتسلطه وكانوا يريدون أن يروا هزيمته ماثلة حتى يتخلصوا منه ، ومن هنا أشاروا عليه أن يبقى موسى وأخيه وأن

يجمع لهما أمهر السحرة ، وأن يواجههما بهم وبعد ذلك تم تجميع السحرة في المكان المعلوم ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [٧٨] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿ ٧٩ ﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ [ الشعراء ] .

الميقات هو الوقت من اليوم المتفق عليه ، هناك آيات أخرى حددت اليوم بأنه يوم الزينة وهو اليوم الذي يتزين فيه الناس بملابسهم الحديدية وتزين فيه الفتيان بأبهى زينة . ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ ، فهذه الآية حددت اليوم والوقت بأنه وقت الضحى ، ثم تكلم في آية أخرى عن المكان ﴿ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ ومعنى سوى إما أنه وصف للمكان الذي ستقام فيه المباراة السحرية في مكان مستو من الأرض حتى يتمكن كل واحد من رؤية المنظر فهو مكان مستو ليس فيه علو أو انخفاض أو أنه مكان وسط المدينة وليس بعيدًا في أطرافها حتى يسهل على الناس الحضور إليه ، وكل هذا حرص على إتمام المعركة من جانبي الطرفين لأن كل طرف يريد أن يتغلب على الآخر .

﴿ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ [٨١] قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴿ ٨٢ ﴾ [ طه ] .

وبعد ذلك بدأت الدعاية بين الناس حتى يتجمعوا في هذا اليوم لمشاهدة ما سيحدث ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [٨٣] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿ ٨٤ ﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿ ٨٥ ﴾ [ الشعراء ] . أى : أنهم سيجمعون وعندهم أمل فى أن يتغلب السحرة على موسى ويطلبوا حجته .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ .

هنا السحرة وهم فريق المباراة الذى سيقف فى صحف فرعون أرادوا أن يتفقوا معه قبل قيامهم بهذه المهمة وقالوا له : أنت تسخر الشعب بدون أجر ولكن هذه المسألة يجب أن تأخذ عليها أجرًا ، فهل ستعطينا أجرًا إن تغلبنا على موسى وانتصرنا عليه ؟

قال فرعون : لن أعطيكم الأجر فقط بل سأجعلكم من رجالى المقربين الذين أستعين بهم فى مثل هذه المواقف ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ .  
 وحينما اطمأن السحرة إلى الأجر واطمأنوا إلى أنهم سيكونون من المقربين حينما تيقنوا من هذا كله التفتوا إلى موسى فقد جاءت لحظة التحدى ، تلك اللحظة التى إن غلبوا فيها أخذوا مالا وأصبحوا من المقربين ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٥] . أى : أن السحرة بدأوا بالتحدى وأعطوا موسى الاختيار فى أن يبدأ هو أو يبدأوا هم وذلك لفرط ثقتهم فى أنفسهم ، فهم أمهر السحرة وهم جمع وهو واحد ، ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَتَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُجِئُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسَوَّى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ [ طه ] .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ <sup>(١)</sup> [ طه : ٦٨ ] أى أنك منصور ومؤيد من الله ولكن هنا النفس البشرية تتحرك كيف سينتصر؟ هنا يأتى الأمر الإلهى

(١) قال ابن القيم : قول الله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ، ها هنا دقائق

:

أحدها : الإتيان بلفظة « إن » المشددة لتفيد تأكيد ثبوت ما بعدها .

وثانيها : تكرير الضمير يدل على تأكيد ما يتعلق به .

وثالثها : ذكر ﴿ الْأَعْلَى ﴾ معرفاً يدل على أن غيره لا يكون كذلك بخلاف على وأعلى .

ورابعها : إن ﴿ الْأَعْلَى ﴾ بصفة أفعل يشعر بزيادة العلو .

نبي الله موسى عليه السلام ٢٥٤



﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى : مهما أوتى الساحر من قدرة على تسخير الجن لعمل شئ فوق طاقة الإنس ، فذلك لا يعطيه قدرة على شئ . وبعد ذلك يقول لنا الحق : إياكم أن تفهموا أن الله ملك مصالحكم لهؤلاء؛ فالساحر يفعل ما يريد ، لكن الإصابة والأذى مرهونان بأمر الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَكَاتٍ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١) [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ قضية منسحبة على الوجود كله إلى أن تقوم الساعة ، فالساحر لا يفلح فى أى زمان أو مكان .

بعد ذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبْحًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَٰؤُلَاءِ حِبَالِهِمْ وَعَصِيهِمْ لِلْكَفْرِ وَالْجُحُودِ ، فَإِذَا بِهِمْ يَقُونَ أَنفُسَهُمْ لِلشُّكْرِ وَالسُّجُودِ (٢) . فهم قد دخلوا هذه المعركة وهم كفره جاحدون ، وخرجوا منها وهم مؤمنون موحدون ؛ وذلك لأنهم جمعوا كل كيد السحر وفنونه ،

(١) قال المراغى : فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَكَاتٍ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى : أن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط الله به مسبباتها ، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فإن ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

تفسير المراغى [١٨٢/١] .

(٢) قال الزمخشري : سبحان الله ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيتهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، وروى أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ، ورأوا ثواب أهلها . وعن عكرمة : لما خروا سجداً ، أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة .

الكشاف [٤٤١/٤٤٠] .

ووجدوا أن العملية ليست من هذا النوع أبداً ، فالساحر يرى الأشياء على حقيقتها ، وهم لم يروا عصا موسى على حقيقتها ، بل رأوا لها حركة حياة ، فأيقنوا أن هذا ليس من فنون السحر ، ولكنه شئ أعلى ، وهذا يدل على أن الفطرة الإيمانية فى النفس تطمسها الأهواء ، هذه الفطرة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة »<sup>(١)</sup> ، فالهوى يطمس على الفطرة الإيمانية ، ولكن أحياناً تستيقظ هذه الفطرة ، وحين تستيقظ الفطرة الإيمانية ، فأقل شئ يصادف هذا الاستيقاظ يؤثر عليه . والذى يدل على أن هذه العملية جاءت على هوى السحرة : أنهم سيقولون لفرعون : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فهذا دليل على أن طبائعهم وفطرتهم كانت تأبى هذا ، لكن فرعون هو الذى كان يكرههم على السحر ، وحين يكبر الواحد منهم فى السن يأمره بأن يأخذ مجموعة من الغلمان ليعلمهم السحر ؛ لأن هذا يناسب شعوذة فرعون وادعاءه الألوهية .

لما سجد السحرة وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون اغتاظ فرعون منهم ؛ لأنهم خذلوه ولم ينصروه كما كان يظن ، فأقسم على الانتقام منهم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَسَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ .

(١) أخرج البخارى [١٣٨٥] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء » .

فرعون جمع السحرة لينصروه على موسى ، ولكن الله جعل خذلانه وهزيمته عل يد من توسم فيهم عزته ونصره ، ولكنه أراد أن يتماسك أمام الناس ، فأعلن سخطه عليهم ؛ لأنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ؛ وزعم أنهم لو فعلوا ذلك لأذن لهم ! وزعم أن موسى هو كبير السحرة الذى علمهم السحر ؛ ولذلك آمنوا به .

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه : ٧٢] وقلنا إن الإيثار هو : ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر ، قولهم : ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ ﴾ تعبير فى منتهى الدقة وهو تعبير واع وحكيم ؛ لأنه كان من الممكن أن يقولوا : لن نؤثرك على موسى ، ولكنهم لم يذكروا موسى ، وذكروا البيئة التى جاء بها؛ فكانهم قالوا لفرعون : ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ ﴾ على يد موسى ، ولن نؤثرك على أعلى من ذلك وهو الذى فطرنا . وربما كان قولهم : ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قسم ، مثلما نقول : لن أفعل كذا وكذا والذى خلقتك ، كأنك تقسم على هذا الأمر ألا يحدث ، وهذه حيثية عدم الرجوع فيما أعلنوه من إيمان برب هارون وموسى . بعد ذلك انتقلوا إلى ما هددهم به فرعون ؛ من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليهم فى جذوع النخل ، فقالوا له : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : نفذ ما أنت حاكم به من تقطيع الأيدي والأرجل والتصليب فى جذوع النخل . أو أن المعنى : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أى : أفعل ما بدالك ، حتى لو كان أشد مما قلت .



هكذا أراد فرعون أن يهدد السحرة بالعذاب الدنيوي ﴿ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ  
وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ [ طه : ٧١ ] .

ولكن الإيمان الذي ملأ قلوب السحرة جعلهم يستهينون بتهديدات فرعون  
لأنه إذا قتلهم فهو يجعل لهم الجزاء الأوفى من الله ، ولذلك رد السحرة  
﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَيْكَ رَبَّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [ الأعراف : ١٢٥ ] . أى أنك لو لم تُمتتنا هذه الميتة  
فمصيرنا إلى الله مقطوع به ، فنحن ميتون سواء قصر الأجل أو طال ، ثم  
قالوا لفرعون : ﴿ وَمَا لِنَقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا  
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [ الأعراف : ١٢٦ ] . الإفراغ هو إخراج مافى إنا  
إلى إناء آخر ليغمره كأنما السحرة يناشدون الله أن يفيض عليهم بالصبر حتى  
يغمر قلوبهم فلا يجعل فيها مكانًا يضعف من عذاب فرعون وتقطيعه لأيديهم  
وأرجلهم .

وقولهم ﴿ وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أى : لا تجعلنا نكفر ونعود إلى ملة فرعون بل  
اجعل الموت هو السابق فى هذا ؛ ولذلك قال العلماء عن سحرة فرعون كانوا  
أول النهار كفرة وكانوا آخره شهداء بررة ، وعلى أثر ذلك انطلق رجال  
فرعون يقتلون الأبناء ويعتدون على السيدات ووقف موسى يدعوهم إلى  
الصبر وبشرهم بأنهم سيرثون الأرض إذا اتقوا الله .

أما قومه فبدوا متضجرين متشائمين حتى أنهم قالوا له : إنا أوذينا من قبل  
أن تأتينا ومن بعد ما أتيتنا ، وهكذا استمروا على شكائهم رغم أن موسى  
وعدهم بأن الله سيهلك عدوهم ثم يستخلفهم فى الأرض .

بعد ذلك يأتى تأديب الله آل فرعون ، فهل جاء التأديب هكذا فوراً ؟  
﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصٍ مِّنَ الشَّمْرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾





﴿الرَّجَزَ﴾ هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب .  
﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُمْ  
وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰكٍ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ  
ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي  
الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٥٦﴾﴾ [ غافر ] .

هناك نوعان من القتل فى قصة موسى مع فرعون ، النوع الأول قبل ميلاد  
موسى : عندما قيل له إن زوال ملكك وألوهيتك هذه سيكون على يد غلام  
من بنى إسرائيل ، هذه واحدة .

والثانية : هى بعد إيمان السحرة بموسى وانتشار دعوته وافتضاح أمر فرعون .  
﴿ذُرِّيَّتِي﴾ أى : اتركونى ، مثلما يقال عندنا فى الريف - سيونى عليه -  
وهى دليل على أن قوة تمنعه من القتل وأن هناك من يعارضه ، إن المعارضين  
لابد أنهم إناس خميرة الإيمان فيهم متيقظة لأنهم يمنعون فرعون مما يريد ،  
يقولون له : إنك إن قتلتهم لفهم الناس إنك لم تطق حياته لأنه فضحك وأنتك  
خفت أن يهدم عرشك وألوهيتك .

إذن .. فقد دخلوا عليه من ناحية أنهم يحافظون عليه حتى لا يفهم أنهم  
يدافعون عن موسى ، ويشم منهم رائحة الخيانة العظمى لألوهيته .

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ  
الْحِسَابِ﴾ [ غافر : ٢٧ ] . أى : أنه سبحانه ربي وربكم رغم أنوفكم ، ولم  
يذكر كلمة « فرعون » لأنه هو الذى رباه اعترافا له بحق الرعاية والتربية ،  
وفرعون يدخل ضمن هؤلاء المتكبرين لأنه فى قمة التكبر حيث ادعى الألوهية  
وكفر بيوم الحساب .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] . هذا الرجل المؤمن كان قبطيا من آل فرعون قيل كان ابن عم فرعون ، وكان يكتُم إيمانه عن قومه ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ فأخذته غضبة لله عز وجل وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما قال النبي ﷺ ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون .

﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] . وهذا احتياط فالأحوط ألا نقتله ، كأنه يريد أن يستبقى حجة الحق لعله توجد آذان تنصره فرما يكون هذا الرجل الذي تريدون قتله صادقا فيضيع عليكم ما أنتم فيه ، ولو كان موسى الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون لكان أمره بينا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله ولما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال محذرا قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم .

بدا واضحا أن فرعون لن يؤمن لموسى ولن يكف عن تعذيبه لبنى إسرائيل ، ولن يكف عن استخفافه بقومه ولم يعبا بما قاله الرجل المؤمن .

هنالك دعا موسى وهارون على فرعون : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ١٠] .

وجاء الإذن لموسى بالخروج من مصر واصطحب قومه معه ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخَشَى ﴾ ،

فجمع موسى بنى إسرائيل وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقاً إلى الأرض المقدسة في فلسطين فتبعهم فرعون وجنوده فأصبحوا في خوف شديد لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقاً في البحر .

ومعنى ﴿ أَسْرٍ ﴾ أى امش بالليل ؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون ، ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ [ طه ] ، هنا الحق سبحانه فى هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له ، ولكنه ذكر ما قالوه فى لقطة أخرى ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ [ الشعراء : ٦١ ] . إذا تكررت القصة فافهم أن فى كل تكرير لقطة جديدة ، فإذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة ، فلما قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ طمأنهم موسى بقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، قال لهم ﴿ كَلَّا ﴾ ، وهذه ليست من عندى ولكنها من عند الله ؛ لأنه ربي الذى سيهدينى إلى طريق النجاة . وكلمة : ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ معناها غطاهم من البحر ما غطاهم ، وأنت حين تبالغ فى شئ تقول : لقد حدث ما حدث ، وحصل ما حصل . فأنت تبهم الشئ ؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل . كذلك قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ؛ أى أنه أمر مهول لا يمكن حصره ، وهذه لقطة غير موجودة فى القصة هنا ، فموسى حينما مشى فى الطريق « اليبس » ونجا بقومه - بنى إسرائيل - تبعه فرعون بجنوده ، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون ورائهم ، وكان هذا اجتهاداً منه ، ولكن الوحي الإلهى أمره أن يترك البحر كما هو ، قال تعالى : ﴿ وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِتَّهَمُ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [ الدخان ] ، وكانت الحكمة من ترك البحر نبي الله موسى عليه السلام



ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ والإدراك : أن يقصد المدرك أن يلحق بالشئ الذى يريد أن يدركه ، ويبدل كل جهده فى ذلك ، والغرق هو أن يغطى الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس ، فيدخل إلى جسده بدلاً من الهواء ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ ، كأن الغرق جندى من جنود الله وله عقل ، وقد تلقى الأوامر من الله ، ليحيط بفرعون وجيشه ويغرقهم ، ماذا قال فرعون عندما أدركه الغرق ؟ قال : ﴿ ءَأَمَنْتُ أَنَّمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . فرعون وهو يغرق كان فى إيمان الإجبار ؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته ، وإيمان الإجبار لا ينفع ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ءَأَلْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [ يونس : ٦١ ] ؛ أى أنك يا فرعون وأنت تواجه الموت تقول : آمنت ، بينما كان عندك زمن طويل ؛ لتعلن إيمانك بعد أن أراك الله معجزات كثيرة على يد رسوله موسى ، ولكنك عصيت وأصررت على الكفر ؛ ولذلك فإن الإيمان لا يتقبل إذا بلغت الروح الحلقوم ، وعرف الإنسان أنه سيموت يقيناً ؛ لأن هذا إيمان إجبار .

والله سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر ، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار ، لقهر الله سبحانه وتعالى على الإيمان ، وما استطاع واحد أن يكفر بالله ؛ لأن كل ما فى الكون خاضع لأمر الله سبحانه وتعالى (١) ، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء ، ولكن الحق جل جلاله يريد بإعطاء الإنسان الاختيار ، أن يأتيه عن محبوبة ، ولا يتم إيمان المحبوبة إلا إذا كان

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [ يونس : ٩٩ ] .

نبى الله موسى عليه السلام



الإنسان مختاراً أن يؤمن أو لا يؤمن ، فالذى يأتى عن طريق الاختيار ، تكون له منزلة كبيرة عند الله ، إذن فالمردود ليس القول ، ولكنه زمن القول .

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون : ﴿ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس : ٩٢] أى بجسدك المجرد من الروح ، إن سبب حفظ أبدان الفراعنة ؛ أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تخييط الجسد البشرى ؛ لكي تكون أجسادهم عبرة لمن يجرى بعدهم ، ويرى الناس أولئك الذين ادعوا الألوهية وهو أجساد لا حركة فيها ولا قدرة ، وأراد الله أن يرى قوم فرعون جسد فرعون ، ذلك الطاغية الذى كان يدعى الألوهية ويقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] .  
قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي آيَةِ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أى أن الله تعالى عجل لهم العقاب فى الدنيا قبل الآخرة . والأخذ معناه : أن الآخذ عنده قدرة على أخذ المأخوذين جميعاً فى قبضته مرة واحدة ، ويلقيهم أينما شاء ، وهذا ليس فى قدرة البشر ، وإنما فى قدرة الله وحده . لذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٣] الكتاب : هو التوراة ، آتاه الله لموسى بعد أن أهلك القرون الأولى ، الذين كذبوا رسله ، وحاربوا دعوته ، هذا الكتاب أنزله الله على موسى ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ ليعطيهم البصيرة والنور ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ لهم من ربهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ فضل الله عليهم ؛ فيؤمنون به . قال رسول الله ﷺ : « ما عذب الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل الله التوراة على

٢٦٧

نبي الله موسى عليه السلام

موسى»<sup>(١)</sup> فالله عز وجل منذ بعث موسى عليه السلام لم يهلك قوما عاندوا الرسل وصدوهم ، بل تولى الرسل وأتباعهم أمر مقاومة من يحاربون دعوة الله ويتصدون لها ، ويمنعون وصولها إلى الناس .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ البقرة ] ولقد عرفنا من قبل كيف أن من خرج مع موسى من القوم لم يكونوا كلهم من المؤمنين ، لقد أرسل الله موسى بالآيات المعجزات الأولى إلى فرعون وآله عندما آتس من جانب الطور ناراً ، وبعد ذلك تجلى له الله بالكلمات ؛ ليرسله رسولاً ؛ ليخلص بنى إسرائيل من عذاب فرعون .

وبعد نجاة موسى ومن معه كان لابد من أن ينزل منهج الحق على موسى ؛ ليهدى به القوم ، ذلك أن قوم موسى بعد أن أخرجهم الله من البحر وشق لهم طرقاً مروا بقوم يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنما يعبدونه ؛ فيؤبخهم موسى عليه السلام وفي ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَنُوزَنَا بِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَقْرَأَ عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُتُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ لَهُمْ قَالُوا

(١) عن أبي سعيد قال : « ما أهلك الله قوما قط بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعدما أنزلت التوراة ، يعنى ما مسخت قرية » . قال البزار : هكذا رواه يحيى موقوفاً ، ورفع عبد الأعلى .

مختصر زوائد البزار [١٤٩٦] .

وعنه رضى الله عنه رفعه إلى النبي ﷺ قال : « ما أهلك الله تبارك وتعالى قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعد موسى » ، ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ . قال البزار : إن شاء الله مثله .

مختصر زوائد البزار [١٤٩٧] .

يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٣٥﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴿١٣٦﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٣٧﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ خَلْفِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴿ [الأعراف] .

لقد ترك موسى قومه ليتلقى عن الله المنهج : ﴿ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣٥﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْجُوتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكَ دَارَ الْفٰسِقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴿ [الأعراف] .

﴿ وَكَمَا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، « الميقات » هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال ، وموسى عليه السلام جاء في الميقات أى في الميعاد المحدد ، ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى لم يكشف لنا عنه وترك الأمر فيه لله .

وحيثما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفاىي وكأنه قال لنفسه : ما دام قد كلمنى فقد أقدر أن أراه لأن استطابة الأُنس تمد النفس بسبل الأمل فى الامتداد فى الأشياء ، لم يقل موسى أرنى ذاتك بل قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، فرد الحق سبحانه عليه : ﴿ قَالَ لَنْ تَرِنِي ﴾ وكلمة ﴿ لَنْ ﴾ تأتى تأييدية أى تؤيد المستقبل ، أى لا يحدث ولا يتحقق أن يرى الله فى الدنيا .





أن موسى له رسالة واحدة وهى اليهودية ، نقول : إن الرسالة على الأنبياء تنزل على مراحل ، وسيدنا رسول الله ﷺ استمر يتلقى الوحي ثلاثة وعشرين عاما ، وكل ما يأتى من الوحي فى كل مرة هو رسالة من الله ، إذن فالمجموع رسالة واحدة ، إلا أنها رسالات متعددة ، تشمل كل ما نزل على الرسل السابقين وتضيف عليه ، أى إنها رسالة جمعت رسالات كثيرة ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى أن النعم التى أعطيتها لك تستوجب الشكر؛ لأن فيها تفضيلاً كبيراً على ما أعطيته للناس ، والإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله ، لا بد أن ينظر إلى ما بقى من النعم ، لا إلى ما سلب منه ، والمؤمن المتفائل إذا رأى كوباً مملوءاً إلى نصفه بالماء يقول نصف الكوب مملوء ، والإنسان المتشائم (١) يقول : نصف الكوب فارغ . ولذلك فإن جعفر الصادق كان ذاهباً إلى دمشق لمقابلة الخليفة ، وأثناء الرحلة من المدينة إلى دمشق جرحت قدمه ، ولما لم تكن هناك عناية طبية ، فقد تقيحت قدمه وتسممت ، ولما ذهبوا به إلى الأطباء قرروا قطع قدمه ، فقال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً ، أى مخدراً حتى لا يحس بالألم . فرفض جعفر الصادق رضى الله عنه وقال : لا ، لا أريد أن أغفل عن ذكر ربي طرفة عين ، فلما قطعوا قدمه أخذوها ليدفنوها ، قال : أحضروها فجاءوا له بها ، فقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء .

(١) أخرج البخارى [٥٧٧٢] واللفظ له ، ومسلم [١١٩/٢٢٢٥] . عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، إنما الشؤم فى ثلاث . فى الفرس ، والمرأة ، والدار » .

وهكذا يجب أن تكون نظرة المؤمن ، ليست إلى النعمة التي سلبت منه ، ولكن إلى النعم التي أعطيت له ، وهنا يريد الله أن يلفت موسى إلى ذلك ، فيقول له ما معناه : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، ولكن انظر إلى أنى فضلتك على الناس برسالاتى وبكلامى فكن شاكرا لنعمتى عليك<sup>(١)</sup> .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٤٧﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه] موسى كان على موعد مع ربه ؛ ليتلقى منه المنهج ، وكان من المفترض أن يحضر معه النقباء أو رؤساء الوفود ، ولكنه ذهب وحده فقال له ربه : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ أى لماذا لم تأت مع قومك ؟ فقال موسى : ﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ أى أنهم سيأتون خلفى ، ولكنى عجلت إليك يارب لترضى .

فنبى الله موسى عليه السلام قال لربه إن القوم آتون ورائه ، ولكنه تعجل لقاء الله ليرضى بأن يطبق منهجه؛ لأن القوم حين يرون موسى قد تعجل لقاء الله فى الموعد الذى حدده ، يعلمون أن هذا الأمر لو لم يكن خيراً ما سبقهم إليه ، وبذلك يجدون فى طلب هذا الأمر ويهتمون به؛ لأن موسى نبىهم وقدوتهم سبقهم إليه .

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من المظهرين لإحسانى إليك وفضلى عليك ؛ يقال : دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف . والشاكر معرض للمزيد كما قال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلمة الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل .

تفسير القرطبى [٢٨٠/٧] .

نبى الله موسى عليه السلام

يعطينا الحق صورة أخرى من صور كفر قوم موسى رغم كل النعم التي أنعمها عليهم ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِيهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۗ ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِيهِ ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات الله ، وبعد أن استخلف هارون على قومه وقوله : ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ والحلى هى : ما يتزين به الناس من الذهب والأحجار الكريمة والجواهر ، ولكن الحلى سيدها دائما هو الذهب .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ يدل على أن جسد العجل لم تكن فيه الروح التى تعطيه الخوار ، أو الصوت الذى يصدره البقر ؛ ولذلك اضطر صانعه - وهو السامرى - أن يجعل فيه فتحات للهواء من الأمام ومن الخلف ؛ ليدخل منها الهواء ويخرج ؛ فيحدث صوتا أشبه بصوت الخوار .

ولكن لماذا اختار السامرى العجل دون سائر مخلوقات الله؟ لأن بنى إسرائيل كانوا خارجين من مصر ، وكان المصريون القدماء يعبدون العجل ؛ لميزات فيه ، فالمصريون القدماء عبدوا الأشياء التى كانوا يرون فيها خيرا وقوة ، فعبدوا الشمس ، وعبدوا النيل ؛ لأن الشمس قوة تبقى لهم مظاهر الحياة على الأرض ، والنيل قوة تغمر لهم الأرض بالخير ، ويخرج منها الزرع ، ويأتى لها بالخصوبة ، والعجل قوة يجر المحراث ويلقح البقرة ؛ فتأتى لهم بالخير من عجول تعينهم فى الحياة وزراعة الأرض ، وأبقار تعطيتهم اللبن والخبير . ولكن كيف عبد قوم موسى العجل بعد أن من الله عليهم بكل هذه النعم ، فأنجاهم من فرعون ، وأورثهم الأرض ، وأغرق عدوهم ؟



نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حين أعطى قوم فرعون كل هذه النعم بمجرد أن عبروا البحر مروا على قوم يعبدون أصناما ، فقالوا لموسى : ﴿ أَجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ونسو أن الإله لا يجعل ، ولكنه هو الخالق والموجد ، ونسو أن العبادة لا بد أن يكون لها منهج ، وإلا فكيف ستعبد إلهها دون أن يبين لك منهج عبادته ؟!

ويلفتنا الحق إلى منهج العبادة الذى يجب أن يرسل للبشر لهدايتهم ، فيقول : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ أى : ألم يفتنوا إلى أنه لا منهج له ولا يهدى للحق ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٨] أى أنهم كانوا ظالمين حينما أعطوا حق العبودية لجسد عجل ، وهذا ظلم فى حق الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ، ثم يقول الحق تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ وهذا دليل على أنه كان بينهم من ذوى البصيرة من نبهوهم إلى سفاهة ما فعلوا ؛ فندموا على ذلك .

وكان الندم قد بلغ أشده منهم لما أحسوا بعظم جرميتهم ، وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أنهم حينما أحسوا بالجريمة الكبرى التى ارتكبوها ، طلبوا رحمة الله وغفرانه ، وبقوا كذلك حتى عاد إليهم موسى ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ .

فكان موسى قد عاد إليهم وهو فى حالة شديدة من الغضب والأسف ، مما يدل على أنه أخبر من الله بما حدث ، والغضب هو : ثورة من عدم وقد قال ٢٧٥

---

نبى الله موسى عليه السلام

الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَسِفًا ﴾ استخدمنا لصيغة المبالغة؛ ليلفتنا إلى الحزن الشديد الذى كان فى نفس موسى .

ثم تأتى بعد ذلك مظاهر الغضب ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ يٰٓأَسْمَا خَلَفْتُوْنِيْ مِنْ بَعْدِيْٓ أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أى أنه أراد أن يعبر لهم عن قبح ما فعلوه بعد أن تركهم ؛ فقال بئس ما فعلتم أى خزياً وعارا ، ثم قال أعجلتم أمر ربكم ، أى هل استبظأتم عودتى إليكم بعد ميقات ربكم ؛ حيث إنه قد تأخر عشرة أيام ، أى حينما أبطأت فى العودة إليكم اعتقدتم أننى لن أعود ، فبدأتم تتعدون عن المنهج مع أن بطئى فى العودة لم يكن يؤدى إلى ذلك ؛ لأنكم تعبدون الله ولا تعبدوننى .

فقال تعالى : ﴿ وَالْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] أى أن غضب موسى انصب على أخيه هارون ؛ فأخذ برأسه وقد أعماه الغضب عن الأخوة ، وأخذ يجره إليه ، ماذا كان رد هارون ؟ ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ ﴾ يعنى : يا ابن أُمى ، فكأن هارون يذكر موسى بصلة الرحم ، ثم يحاول أن يبرر له ما حدث فيقول : ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُوْنِي فَلَآ تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ ﴾ أى أن هارون يريد أن يقول لموسى : إننى وقفت ضد هؤلاء الذين عبدوا العجل ، ووقفت ضدهم بقوة ، حتى وصلت المسألة إلى أنهم كادوا يقتلوننى ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ ﴾ الشماته هى : إظهار الفرح لمصيبة تقع على خصم ، والأعداء هم الذين عبدوا العجل ، ووصفهم بالأعداء دليل على أن هارون وقف منهم موقف العداوة ، وأن ما يفعله موسى سيجعلهم يشمتون .

بعد ذلك سأل موسى السامري : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴾ [١٥] قَالَ  
بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا  
وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [١٦] (١) [ طه ] .

كلمة ما خطبك ، تقال في الحدث المهم ، وهو الحدث الجلل الذي يصلح  
لأن تقال فيه : خطب .

لما سأل موسى السامري رد عليه بقوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾  
هناك بصرت ، وأبصرت ، كلمة : أبصرت للرؤية الحسية ، وكلمة بصرت للرؤية  
العلمية ، فكأن السامري يقول لموسى أنا رأيت بعلمي وأن هذا شيء لم يعرفه  
القوم ، فاجتهاده قاده إلى جمع الحلى ، وعمل العجل والعكوف عليه ؛ لأنه  
رأى قومه طلبوا من موسى : أن يجعل لهم إلهاً مثل القوم الذين مروا عليهم ،  
ووجدهم يعكفون على أصنام لهم .

فقال : هذه مسألة في بالهم ، وانتهاز فرصة غياب موسى وقام بهذا العمل ،  
وزاد على ما طلبه القوم من موسى بأنه لم يجعله صنماً من حجارة ، وإنما  
جعله عجلاً له صوت ، وله حوار .

ومعنى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ فقبض على الشيء أى أخذه  
بجمع يده ، قوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ روى عنه العلماء روايات متعددة ،

(١) يقول السيوطي عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴾  
قال : لم يكن اسمه ، ولكنه كان من قرية اسمها سامرة ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ  
يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ يعنى فرس جبريل .

وعن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾  
قال : من تحت حافر فرس جبريل .  
الدر المنثور [٥/٥٩٦] .

فقالوا : إن السامرى لما كان جبريل يتعهده حين أخفته أمه فى كهف أيام تقتيال فرعون لأبناء بنى إسرائيل ، وكان يأتيه على جواد ، فلاحظ أن الجواد كلما مر بحافره على شئ اخضر مكان الحافر ، أى دبت الحياة فى مكان الحافر ، وهذا قول الذين قالوا إن العجل كان عجلاً حقيقياً له صوت طبيعى ، وليس بمرور الهواء يحدث منه صوت الخوار ، ولكن العلماء الآخريين قالوا كلاماً غير هذا فقالوا : إن معنى ﴿ فَقبَضْتُ قبْضَةً مِن أَثَرِ الرُّسُولِ ﴾ الرسول كما نعلم هو المبلغ لشرع الله ، وهو حامل المنهج المكلف به . فالرسول هنا هو موسى ؛ لأن بنى إسرائيل لم يروا جبريل ، بل ولم يسمعوا منه ، ولكنهم سمعوا من موسى ، فهو الذى بلغهم أمر الله ومنهجه . وإذا كان الرسول جاء ليبلغ شرعاً من الله ، فهذا هو أثره الذى يبقى بعد انتقاله ، فقبض قبضة من هذا الأثر .

ومعنى ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أبعدها عن مخيلتى ، وتركت لنفسى العنان فى أن تفكر أى تفكير ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي ﴾ ومعنى سولت له نفسه ، أى أنها دفعته إلى معصية؛ بأن يأخذ شيئاً من آثار الرسول ووحيه الذى جاء به من الله ، وينبذها عن منهجه ، وبعد ذلك يسير بمحض فكره ومحض اختياره ، ولذلك لا يقال : سولت لى نفسى الطاعة . بعد ذلك ماذا فعل موسى مع السامرى .

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَيْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [ طه : ٩٧ ] .







فقال موسى : إن فقدان الحوت هو ما كنا نبتغيه ؛ لأنه أمانة على الفوز بما نطلبه ، فرجعا فى الطريق التى جاءا منها ، حتى أتيا الصخرة فوجدا العبد الصالح .

إن اسم هذا العبد الصالح مسألة لا يحدث عليها جدال ، إنما هو عبد علمه الله من لدنه علما - والله سبحانه حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم ، يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة ، ولا يريدنا أن ندخل فى مجادلة حول من هذا الشخص أو من هذه المرأة - ذلك أن الأسماء هنا لا قيمة لها - وإنما القيمة الحقيقية فى الموعظة والحكمة .. ولذلك لم يعرف الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلا اسمين هما مريم ابنة عمران وعيسى ابن مريم لأن ما حدث لهما لن يحدث لغيرهما لذلك كان الإتيان هنا واجبا ... أما فرعون وذو القرنين وكل ذلك تركه الله سبحانه بلا تعريف - حتى لا ندخل فى جدل حول الأسماء ونترك الحكمة ... فرعون هو كل رجل يريد أن يُعبد فى الأرض ، وذو القرنين هو كل من أعطاه الله الأسباب للأشياء . إلى آخر ذلك . إن الذى يجب أن نلتفت إليه فى هذه القصة أن هناك أشياء ظاهرة فى الكون وهناك أشياء تخفى الحقائق قد لا نتنبه لها .

إن سبب ما نعانيه من متاعب فى الدنيا ، هو أننا نقف عند الأشياء الظاهرة فقط فإذا حدث أمامنا شيء نكرهه اعتقدنا أنه شر وإذا حدث أمامنا شيء نحبه اعتقدنا أنه خير .

وأقول لك إياك من هذه الظواهر ، إياك أن تجعل نفسك حكما لأقدار الله فى كونه .





والحوت نوع من السمك وموسى وفناه كان معهما حوت مشوى لياً كلاه  
عندما يجوعان .

وكلمة : ﴿ نَسِيًا ﴾ الذى نسى الحوت هو الفتى ولكن القرآن قال نسيا لأن  
موسى لم يذكر الفتى بالطعام الذى كان معه ، ولأنه هو المسئول عن الرحلة ،  
ورئيس القوم لا بد أن يتنبه إلى كل جزئية من جزئيات الركب معه .

ولكن الذى حدث ، أن الحوت بعد أن نسيه اتخذ سبيله فى البحر سربا ،  
مع أنه مشوى والسرب مثل السرداب أو الشق فى الأرض ، ولكن كيف  
تسرب الحوت ؟ قالوا إنه قفز من المكثل أو المخلاه التى كان بها ، وهذه آية ،  
ثم اتجه إلى البحر لأنه يعلم أنه مكان إقامته وفيه حياته وفى سير إلى البحر ترك  
علامة أو شقاً فى الأرض من المكان الذى كان فيه حتى دخل مياه البحر .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي نَسِيتُ الْغَدَاءَ لَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا  
هَذَا نَصَبًا ۗ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِيهِ  
إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۗ ﴾ [ الكهف ] .

فلما تجاوزا المكان المطلوب ، شعر موسى بالجوع والتعب ، فطلب من  
الغلام أن يأتيه بالطعام ، ونلاحظ أنه لم يتعب إلا بعد أن وصل مجمع  
البحرين وتجاوزه ، وهذا التعب هو الذى سيدله على المكان .

والنصب هو التعب ، ومعنى ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ أى أعلمت ، و ﴿ أَوَيْنَا ﴾ أى  
لجأنا إلى الصخرة التى كانت عند مجمع البحرين لنستريح من تعب السفر ،  
فإنى نسيت الحوت فى هذا المكان وفى الآية السابقة قال نسيا .

لأن الأولى كلام الله فى الإخبار عنهما ، ولكن فى الثانية كلام الفتى الذى  
اعترف بأنه نسى لأنه المكلف بحمل المكثل وما فيه من طعام .

واعتذر عن النسيان بأن الشيطان أنساه ذكر الموت .

فى الآفة السابقة قال : ﴿ سَرِيًّا ﴾ ، لأن هذا حال الموت ولكن هنا قال : ﴿ عَجَبًا ﴾ أى : عجبيا لأنه خالف المألوف لأنه حوت مشوى ثم دبت فيه الحياة فقفز من مكانه وسعى نحو البحر فهذه مسألة عجيبة عند من رآها . بعد ذلك قال الحق سبحانه : ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ فوجدَا عبدًا مِن عِبَادِنَا ءَالَيْتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ [ الكهف ] .

أى قال موسى ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ ﴾ أى : أن المكان الذى كنا نريده هو الذى ذهب فيه الحوت ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى عليه السلام ، ﴿ فَأَرْتَدَّا ﴾ أى : رجعا إلى هذا المكان لأنه معروف لهم . ومجمع البحرين اتفق العلماء على أنه التقاء بحرين مع بعضهما ليصبحا بحرًا واحدًا ، وهذه الصورة لا توجد بالنسبة لمسرح بنى إسرائيل إلا فى جنوب سيناء ، عند التقاء خليج العقبة بخليج السويس ، عند قمة رأس محمد فى أقصى الجنوب من سيناء ، وعندما وصلا إلى هذا المكان وجدا هذا الرجل الذى جاء موسى لمقابلته ، وهو عبدًا لله وهذا شرف كبير أن تكون عبدًا لله دون سواه .

ومعنى ﴿ ءَالَيْتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ [ الكهف : ٦٥ ] قال العلماء : أن الرحمة وردت فى القرآن بمعنى النبوة لأن الكفار حينما قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : ٣١ ] كان رد الله عليهم : ﴿ أَهْمَرُ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [ الزخرف : ٣٢ ] .

إذن .. الرحمة هنا بمعنى النبوة وإذا نظرنا إلى هذه الآية نجد كلمة ﴿ءَأَيَّتُهُ﴾ وكلمة : ﴿مِنَ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أى : أن الحق سبحانه هو الذى أتاه رحمة من عنده وعلمه علما مباشرا بدون ملائكة ، فكأنه لا حرج على الله أن يختار عبداً من عباده ويعطيه شيئاً من العلم بدون نبوة .

ولا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أى أن هذا العلم جاء من الله مباشرة للعبد الصالح ، ولم يأت عن طريق اطلاع أو قراءة ، أو عن طريق موسى عليه السلام ولكنه كان من الله إلى العبد الصالح مباشرة ، وبهذا أصبح العبد الصالح فى الأشياء التى علمها الله له يعلم الظاهر والباطن ، يعرف ما هو حادث ويعرف السر وراء الحدث ولكن لا بد أن نتنبه إلى هذه النقطة لأن العبد حين يكون صالحا ، ويأخذ من الله فيوضات يأخذها عن طريق ما أمره به رسوله ، وإن كان المأخوذ هناك ليس هو المأخوذ من الرسول ، فالمأخوذ من الرسول هو الحكم الظاهرى الخاص بالتكاليف ، ومخالفة التكاليف إنما الشيء الآخر هو علم وراء الظاهر .

فالرسل يأتون بالأحكام التى أمروا بتبليغها للناس ، بأن يفعلوا كذا وكذا ويمتنعوا عن كذا وكذا فمثلا الرسل يدعون الناس إلى عدم الإعتداء على النفس أو المال ، ولكن هذا العبد سيقتل الغلام ، ويتلف السفينة ، فهذا فى ظاهره مخالف لأحكام الرسل لأن هناك أحكاما أخرى لها علة باطنة فوق الأحكام الظاهرة ، وهذا العبد الصالح كما أخبر عنه النبي ﷺ اسمه الخضر .

ولكن هل هذا الخضر موجود الآن أم أنه مات ؟

قالوا لكل زمان خضره .. ففى كل زمان يعطى الحق سبحانه أحداً من عباده بعض الفيوضات من عنده .

ولذلك الخضر قال لموسى : أنت لن تستطيع معى صبيرا لأنك لا تستطيع أن  
تصبر عن شىء لم تعلم خلفياته ومراميه ، فلو أن موسى علم العلة فى خرق  
السفينة لبادر هو إلى خرقها .

وانظروا إلى أدب النبوة ، وأدب تلقى العلم ، فمع أن الله تعالى أمر موسى  
بالذهاب إلى الخضر ليتلقى عنه العلم إلا أنه يستأذنه بأدب .

﴿ قَالَ لَمْ مَوْسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ  
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١١٤﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١١٥﴾ [الكهف] .  
فمع أن الذهاب كان بأمر من الله ، كان أدب التلقى من موسى فلم يقل له  
أنا سأتبعك لأن الله أمرنى بذلك .. ولكنه استأذنه فى أن يسمح له بأن يتبعه ،  
وهذا أدب المتعلم مع المعلم .

ومعنى : ﴿ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ الرشد هو حسن التصرف فى  
الأشياء ، وسداد المسلك فى علة ما أنت بصدده ، أى تعلمنى سداد التصرف  
وحكمة تناول الأشياء وقوله : ﴿ تَعْلَمَ ﴾ تدل على أنه يطلب شىئا لم يكن  
معلوما له لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء ٨٥] .  
وقال الرسول ﷺ ﴿ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ  
قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

ولذلك الشاعر يتحدث عن النفس المعزورة بما عندها من علم فيقول :

قالت النفس قد علمت كثيرا      قلت هذا الكثير نذر يسير  
تملأ الكنوز غرفة من محيط      فيرى أنه المحيط الكبير

بعد ذلك انظروا إلى الشروط التى يملها العالم على من يطلب العلم ، قال  
الخضر لموسى : أنت مذهبك غير مذهبى وسنختلف وأنت لن تستطيع معى



إن موسى لم يستطع أن يسكت ، حينما وقع أمامه أمر يخالف طبعه وعقيدته ، ولم يسأله لماذا فعلت ذلك فقط ، بل قال له أنت خرقت السفينة حتى تغرق ركابها لقد فعلت شيئاً بشعاً وفظيحاً .

وموسى فعل ذلك واستنكر ما حدث ، لأنه استحضر الحكم الشرعى فى إتلاف مال الغير والتسبب فى إغراق زكاب السفينة ، فشعر بفداحة الأمر ومن هنا كان اعتراضه على الخضر . فرد عليه بقوله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [ الكهف : ٧٢ ] فكأنه يذكره بأنه صدق فيما قاله له من البداية من أنه لن يستطيع معه الصبر فتذكر موسى عليه السلام العهد الذى قطعه على نفسه قبل بداية الرحلة فقال : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴾ . أى : اعذرني لأننى نسيت ولا تحملني من أمر اتباعك عسراً ومشقة .

ثم سارا بعد ذلك فقابلهما غلام فقام الخضر بقتله ، والجريمة صارت أكبر من الأولى لأن الأولى كانت اعتداء على مال الغير ، ولكن هذه المرة اعتداء على نفس ، والغلام كما نعلم هو الذى لم يبلغ سن الرشد . فموسى استنكر هذا الأمر وقال له كيف تقتل نفساً طاهرة صافية بغير ذنب لقد فعلت فعلاً منكراً .

قال تعالى : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [ الكهف : ٧٤ ] .

فهنا رد الخضر عليه برد مختلف عن الرد الأول ، فقال ﴿ أَلَمْ أَقُلْ ﴾ أى : أننى قلت لك : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فالكلام مطابق للحال ،





وكلمة : « إرادة » نحن نفهمها للعاقل الذى له إرادة - ولكن ساعة تذكر مع غير العاقل نقول فبدت عليه علامات الميل والتصدع والتشقق الذى ينذر بالسقوط .

هذا هو الكلام السطحي ولكن صاحب العقل المتسع المدرك أن المتحدث هو الله وأن كل شيء فى الكون له حياة تناسبه والله أن يخاطبه ويرد عليه . ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ ﴾ . فلما أصلحه ورممه غضب موسى وقال للخضر : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ .

أى كان يجب أن تأخذ منهم الأجر على هذا العمل لأنهم قوم لئام لا يصح أن نعمل لهم عملا بدون أجر فلا بد أن تأخذ منهم الأجر .

فرد عليه الخضر وحسم المسألة بقوله : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُرِيدُ مَا لَمْ تَكُن تَسْتَطِيعُ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [ الكهف : ٧٨ ] .

كلمة : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ دستور من الله على أن المذهبين لا يلتقيان لأن كل واحد منهما فى طريق وعلى كل واحد منهما ألا يعترض على الآخر ويلزم أدبه .

وقرار الخضر هذا موافق لما قاله موسى قبل ذلك حينما قال له : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ .

والخضر لم يترك موسى يذهب دون أن يشرح له الأشياء التى اعترض عليها إن هذا من أدب الصحبة فما دام واحد اصطحب الآخر فى سفر أو مهمة وسارا معا فمن أدب الصحبة ألا يفترقا على خلاف بل يفترقا على وفاق وتفاهم ، لأن الافتراق على خلاف يوسع الفجوة بينهما ، ولكن التفاهم

٢٩١ 

---

---

 نبي الله موسى عليه السلام

يوضح ما خفى من أسباب على الطرف الآخر ، فإذا عرف الحقيقة فرميا ارتاح ضميرة ووضحت أمامه الرؤية وأصبح راضيا عن صاحبه .

وبعد ذلك تناول الخضر الوقائع التي حدثت ليشرحها لموسى فقال : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [ الكهف : ٧٩ ] .

السفينة كانت مملوكة لمساكين « واللام » لام الملكية .

وهذه الآية حسمت الخلاف بين العلماء حول معنى الفقير والمسكين ، والفرق بينهما ، إن الفقير هو الذى ليس عنده شئ أى لا يملك شيئًا . والمسكين : هو الذى عنده ماليس يكفيه لأنهم يملكون سفينة ، ولكنها لا تكفيهم فهم مساكين .

﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ مع أنه فى النهاية سيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ﴾ ولكنه نسب المسألة إلى نفسه فقال : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ولم يقل : فأراد الله أن يعييبها فنسب العيب إلى نفسه ولكن عند كثر الفلاحين قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [ الكهف : ٨٢ ] ومعنى : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ سَفِينَةٍ ﴾ الغصب : هو أخذ الشيء من صاحبه بالقوة ، أى أنه كان يصادر هذه السفن من أصحابها وما دام يأخذ كل سفينة صالحة ، فالخضر أراد أن يجعل السفينة غير صالحة حتى يتركها لهم الملك .

وكلمة وراءهم هنا تعنى أمامهم لأن السفينة تسير إلى الأمام ، وتمر على هذا الملك الظالم المتسلط الذى يترصد للسفن التى تمر ليصادر الصالح منها ويأخذه لنفسه .

إذن .. العلة فى خرق السفينة لم تكن واضحة لموسى لأن خرق السفينة اعتداء على ملك الغير ، وهو منهى عنه شرعاً .

أى أن الخضر خرقها لينجىها من ملك ظالم والسؤال أيهما خير - أن تبقى للمساكين سفينة فيها عيب يستطيعون إصلاحه ، أم لا تبقى لهم سفينة على وجه الإطلاق ؟

لو أن هؤلاء المساكين نُخِروا ، لاختاروا ما حدث ووجدوا فيه الخير العميم ، لأن الذى حدث هو شىء بسيط أنقذ لهم السفينة وأبقاها ، ومن هنا فلو عرفوا الحكمة لاختاروا الواقع ، ولكن غياب الحكمة عن موسى جعله لا يطيق صبراً على الواقع ويعتبره شراً .

أما الغلام فالحق سبحانه وتعالى ، علم أزلاً أن هذا الغلام لو كبر سيفتن والديه المؤمنين ، والله يحب لهما أن يظلا على إيمانهما واستقامتهما ، كما أراد للغلام أن يدخل الجنة لأنه مات صغيراً قبل أن يكلف .

وإذا أردنا أن نقرب هذه الصورة إلى الأذهان نقول هب أن أبوين صالحين رزقا بطفلة وتوفاها الله وهى صغيرة ، ثم أطلعهما الله على الغيب ، فإذا بهما يعرفان أن هذه الطفلة عندما تكبر وتصبح امرأة ناضجة ستتحرف ألا يحمدان الله على أنه توفاهها وهى صغيرة ورحمهما مما كان سيحدث .

رحمها لأنها ما دامت قد ماتت قبل سن التكليف ، فستدخل الجنة بغير حساب ، ورحمهما بأن جنبهما الشقاء الذى كان سيحدث فى حياتهما نتيجة سلوك هذه الابنة ؛ كذلك فى قصة هذا الغلام الذى قتله الخضر هذا القتل ، كان رحمة بالأب والأم بأن جنبهما الله شقاء كان سيأتى على يد هذا الغلام ، يملأ حياتهما بالطغيان ويقودهما إلى الكفر والعياذ بالله ولم يشأ الله أن

يتركهما بلا ذرية فزرقهما غلاما صالحا خيرا منه زكاة يملاً حياتهما بهجة وينسيهما فقد الأبن الأول ورحمة بالغلام بأن توفاه قبل أن يدخل سن التكليف ليدخل الجنة .

ولو رأى الأبوان الصالحان الغيب لاختارا الواقع لأنهما يعرفان يقينا أن هناك حسابا وبعثا ﴿ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿ .

وأما الجدار الأيل للسقوط ، فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وتحت الجدار يوجد كنز يخصهما ، وأهل هذه المدينة لثام وليس عندهم أدنى شيء من المروءة ، بدليل أنهم رفضوا أن يطعموهما ورفضوا حتى أن يؤوهم حتى الصباح ، فلو أن الجدار وقع لظهر الكنز وخطفه أهل المدينة وضاع اليتيمان . إذن .. الخضر حينما أصلح الجدار وأقامه ليستر الكنز ، فقد رد على خسة القوم ولؤمهم ، وانتقم منهم بأن حرّمهم من رؤية الكنز ، والاستيلاء عليه فلو وقع الجدار وظهر بريق ذهب الكنز لأخذه القوم اللثام ولم يبق لليتيمين شيء ، فالله سبحانه أرسل الخضر في هذا التوقيت الذى يكاد أن يقع فيه الجدار ويظهر الكنز ليصلح الجدار ويحمى الكنز من الضياع .

وقالوا : إن الخضر بنى الجدار بناء موقوتاً ، بحيث يظل هذا البناء حتى يبلغ الغلامان رشدهما فقد كان لهذا الجدار عمر افتراضى كما نقول نحن الآن . وبلوغ الأشد ، أى : القوة ومعنى ذلك أن أجهزة تكوينه الإنسانية قد اكتملت ، لأن الإنسان تكتمل أجهزته حينما صبح قادرا على إنجاب مثله . ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ﴾ [ الكهف : ٨٢ ] .

نبى الله موسى عليه السلام

فالرحمة هنا أن مال اليتيمين يحفظه الله لهما ، ولا يحدث له مكروه .  
وما فعلته عن أمرى : أى ليس هذا بذكائى ولا شطارتى ، ولكنه بأمر الله  
فهنا الخضر لم يغتر بعلمه ويفخر على موسى لأنه أعلم منه ، ولكنه قال له :  
أنا لست أفضل منك أو أعلم منك ، لأن ما أفعله بأمر الله وليس بذكائى  
وفراستى ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .



## موسى عليه السلام .. وقارون

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَايَاتُهُ مِنْ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [ القصص : ٢٦ ] .

و « البغى » هو تجاوز الحد فى الظلم .. وقارون كان عنده المال الكثير الذى يستطيع بسطوته أن يظلم ويبنى عليهم والبغى إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس وإما بالاحتقار أو الازدراء وإما بالبطر عليهم وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بحيثية البغى فيقول : ﴿ وَءَايَاتُهُ مِنْ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ .

﴿ مَفَاتِحُهُ ﴾ جمع مفتاح ، فإن كانت بكسر الميم فهو المفتاح الذى يفتح به ، أى : آلة الفتح .

وإن كانت بفتح الميم فهى الخزانة التى يوضع فيها الأشياء .  
فإن كانت الأولى يكون المعنى أن مفاتيح خزائن المال التى عند قارون لو حملتها عصابة تنوء بها ... وإن كانت الثانية أى أن الخزائن ملأى لو حملتها عصابة تنوء بها . لأنها كثيرة وثقيلة .

ونحن نقول فلان ناء بالحمل إذا جاء يحمل الحمل على ظهره فجعله الحمل ينخ من ثقله .

ومعرفة خفة الحمل من ثقله عن طريق الفصل فالأثقل يجهد عضلك أكثر من الأخف فتعرف الأخف من الأثقل عن طريق حاسة العضل .  
والعصابة هم القوم الذين يتعصبون لمبدأ من المبادئ بدون هوى بينهم والعصابة من ثلاثة إلى عشرة .

وقد نصحه قومه ألا يغتر بما آتاه الله من النعم . ﴿ إِذْ قَالَ لَكُمْ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحُوا  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [ القصص : ٧٦ ] .

فهذا نهى عن الفرح ... والفرح هو انبساط النفس لأمر يسر الإنسان ،  
وهذا الأمر قد يسر الإنسان لأنه يمتعه أو لأنه ينفعه .

وهناك فرق بين المتعة والمنفعة فالمتعة شيء تنبسط له وتتلذ به ولا تهتم بما  
يحدث لك بعد ذلك ، فمريض السكر ممنوع مثلا من أكل الحلويات والفواكه  
والعسل ، ومع ذلك تجده ساعة يأكل هذه الأشياء ويتلذذ بأكلها ، غير عابئ  
بما يحدث له بعد ذلك ، فهذه متعة وليست نفعًا .

فما هو الفرح المحظور ؟ الفرح المحظور هو أن تفرح بالمتعة ، لأن الأصل أن  
تفرح بالنافع .. فمثلا الولد الذي أعطاه أبوه نقودًا فذهب واشترى لعبة ليلعب  
ويتسلى بها ، لكن ولد آخر أخذ النقود من والده واشترى بها مصحفًا  
أو كتابا فهذا جعل الله متعته في الشيء النافع بعكس الآخر الذي اشترى  
فهذا فرح يصح أن تفرح به وذاك لا يصح أن تفرح به .

فحين يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

المقصود به فرح المتعة ولكن افرح الفرح النافع .

فلا تفرح فرح متعة لأن الله لا يحب الفرحين الذين يفرحون بالأشياء  
انبساطا وقتيا وبعد ذلك يحدث منه الضرر .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان قوم قارون الناصحين له : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا  
ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا  
أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

أى أطلب بما أنعم الله عليك من الرزق .. اطلب به الدار الآخرة .. لأنك لو انفقته فى ملذات الدنيا سيفنى معك ومع الدنيا .. فأما أن تترك هذا المال بالموت وإما أن يتركك هو بالفقر ، والدنيا لا تدوم على حال .  
فإن كنت تحب المال وتعشقه أعمل به شيئاً ينفعك فى آخرتك ، حتى يظل معك دائماً .

ولذلك تروى السيدة عائشة أنهم ذبحوا شاة ، وكان النبي ﷺ يحب لحم الكتف ، فأبقت له فقال لها النبي ﷺ ما بقى من الشاة يا عائشة ؟ قالت ما بقى منها إلا كتفها لأنها تصدقت بها كلها إلا كتفها أبقتة للنبي ، فقال لها النبي ﷺ بقى كلها إلا كتفها فهو ﷺ نظر إلى ما يبقى لا إلى ما يفنى .  
فإن كنت تحب المال ولا تريد أن يفارقك ، فاجعله يسبقك إلى الآخرة ، ولذلك قال رسول الله ﷺ يقول : « ابن آدم مالى مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » وكان بعض الصالحين حين يدخل عليه سائل يسأله يقول له مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وحينما سأل رجل الإمام على كرم الله وجهه وقال له أريد أن أعرف يا إمام هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال له : الجواب ليس عندى ولكن عندك أنت فقال الرجل كيف ؟  
قال إذا دخل عليك من تعود أن يهديك هدية ، ودخل معه من تعود أن يطلب منك شيئاً فبمن تفرح ؟

فإن كنت تحب الدنيا تفرح بمن جاءك بهدية ، وإن كنت تحب الآخرة تفرح بمن سيأخذ منك صدقة ، فهذا هو المقياس ، لأن كل إنسان يحب من يعمر له الدار التى يحب .



بعض الناس يفهمون قوله : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ على أنه حث على أن نأخذ نصيبنا من الدنيا ، مع أن معناها أن العاقل كان يجب أن ينظر إلى هذه الدنيا نظرة لا تستحق الاهتمام ، فربنا نصح بالعدل حتى لا ينسى الدنيا ، وقيل نصيبك من الدنيا هي الحسنة التي تظل معك : ﴿ وَاتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أو أن قارون كان بخيلا على نفسه مقترا عليها ، فنصحه الناس ألا يحرم نفسه من هذا الخير الذي أنعم الله به عليه .

ولذلك قيل إن الدنيا أهم من أن تنسى ولكنها أنفه من أن تكون غاية فلا تنسها لأنها الوسيلة التي ستأخذ بها الآخرة ولكن لا تجعلها غاية في ذاتها بل اجعلها وسيلة توصلك للآخرة .

﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يتخلق خلقه بخلقه أى يتخلقوا بأخلاق الله لأن الله يمدك بالنعمة ويعطيك فلا تبخل على الفقير والمسكين وقد نهاه قومه عن خمس .

الأولى : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

الثانية : ﴿ وَاتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ .

والثالثة : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ .

والرابعة : ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

والخامسة : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

إنها خمسة أشياء لا بد أنهم نهوه عنها ، لأنهم وجدوا من تصرفاته ما يناقضها ، وبعد ذلك ما كان من قارون إلا أن رد على هذه الخمسة بقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ فكانه يقول لا تتدخلوا فى هذه الأشياء ،

لأن من أعطاني هذا المال علم أنى أهل له ، وما دام أنه علم أنى أهل له فقد ائتمنى عليه فلا حاجة لنصيحة منكم .

وكلمة ﴿ أُوْتِيْتَهُ ﴾ تدل على أنه فهم أنه جاءه من أين من علمه وخبرته فقال : ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أى من الأعمال التى تكسب وتربح فلنصدق جدلا أنك أوتيته على علم فهو كان مشهورًا بأنه حسن الصوت فى قراءة التوراة وكان حافظًا لها وكان حسن الصورة إذن فهو على صلة بالتوراة وهذه الصلة معروفة .

إذن .. فما دمت أوتيته على علم ، فلم لم يفدك هذا العلم فى أن الله أهلك من هو أحسن منك ؟ فكان الأخرى بك ألا تفوت عليك هذه .  
فلو كان عنده علم حقيقى كان لا بد أن يعلم هذه الحقيقة .

﴿ أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً  
وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [ الشعراء : ٧٨ ] .

كلمة جمع مرة تكون مصدرًا ومرة تكون اسما للجماعة كأن له عصبية كبيرة جدا أو جمع مصدر أى جمع للمال فهى تصلح لجمع المال أو جمعًا للعدد والناس .

وبعد ذلك قال : ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

فما علاقة : ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ هذه ؟

أى لا يأخذه بانذار ، بل يأخذه على غرة فلا يقول له يا قارون أنت فعلت كذا وكذا وسأخسف بك الأرض لن يقول ذلك - لأن هذا معلوم لديك وأن الحيشيات التى فعلتها من البداية كفيلا بأن تفاجئك وذلك حتى يعلم أن الخسف يمكن أن يأتى له فى أى وقت بعد أن قال ذلك وحصل الرد وقالوا له

أفعل كذا وكذا لم يستجب وكان فرحاً فخوراً وكان أيضاً باغياً للفساد  
فخرج كمن يخرج لسانه للناس سخرية منهم .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ .

ولك أن تتخيل قارون يوم زينته .

وذكر العلماء هذه الزينة بعدة آلاف جارية وفرس ، وهذه مسألة ينقصها  
الدليل ، فلما خرج في زينته انبهر الناس وانقسموا قسمين .

البعض قال : ياليت لنا مثله ، وهم من أخذهم بريق الزينة وزهو النعمة  
وترف الحياة ، فأخذت بشريتهم وراءه ومدوا أعينهم إلى ما هو فيه قال تعالى .

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ

إِنَّهُ لَدُوٌّ حَظِيٌّ عَظِيمٌ ﴾ ولذلك حذرنا الله بقوله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ

اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ النساء : ٣٢ ] .

إن كل واحد يأخذ ما قدر له لأن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، لأنه  
سبحانه ليس له صاحبة ولا ولدًا فكل الخلق لديه سواء ... أعطى لهم  
مجموع كل فرد يساوي مجموع الفرد الآخر ، ولكن هذا حصل على عشرة  
على عشرة فى القوة ، وتانى فى الذكاء ، وثالث فى الصحة ، فلكل واحد  
درجة لماذا ؟

لأن حركة الحياة تتطلب أفعالاً شتى ، وليس من الممكن لنفس واحدة أنها  
تقوم بكل الأعمال .

فإذا وجدت أحداً متقناً فى مهنة ما ، فاحمد الله لأن حسنه سوف يعود  
عليك أنت ، وربما قد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، وادع له بالتوفيق كى  
تسير الأمور .

ولكن الله لا يخلى الناس من أهل الحق فماذا قالوا ؟  
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ  
صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [ القصص : ٨٠ ] .  
ولذلك قال الشاعر :

إن الذى جعل الحقيقة علقما لم يخل من أهل الحقيقة جيلا  
فلم يدع المولى عز وجل من أرادوا الحياة الدنيا يشككون الناس فى قدر الله  
ويجعلونهم يتمرّدون على مشيئة الله ويقولون : لماذا قارون عنده كل هذا  
ويكفروا بالله ويجحدوا نعمته ، وهؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا لم يظفروا  
بمجرد سطحية العلم ولكن الذين أوتوا العلم عملوا مقارنة فالدنيا عندهم  
عمرها بمقدار عمر الفرد فيها والعمر موقوت فإن أردت الاختيار أفتراه فى فانية  
أم فى باقية ؟ لا بد أنك ستختار الباقية وتعمل لها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ﴾ أى أنكم بتفكيركم هذا وتمنيكم  
أن تكونوا مثل قارون تستحقون الهلاك لماذا ؟ لأنكم تمرّدتم على قدر الله فى  
ذواتكم وحقّتم وحسدتم عليه فى نعمته فأنتم لكل الويل - أما إن أردتم  
الآخرة - فتواب الله خير من دنيا قارون لأنكم أنفسكم لمتموه فى أشياء  
خمسة فقد شجبتكم تصرفاته أى لا ترضونها فكيف يكون منكم ذلك ثم  
تقولون يا ليتنا نكون مثله ؟

﴿ وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى : أنه لا يلقى قضية العلم فى أنه لا يقبل  
الحياة الدنيا ويقبل ثواب الله لأنه خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها  
إلا الصابرون . ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ  
عَظِيمٍ ﴾ [ فصلت : ٣٥ ] .

ما هو الصبر ؟ الصبر هو احتمال ما يؤدي في الظاهر ولكنه ينعم في الباطن  
هذا هو الصبر وله مراحل :

الأولى : صبر على مشقة الطاعة .

الثانية : صبر النفس على شهوة المعصية أى صبرك على نفسك .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ [ القصص : ٨١ ] .

وخسف الأرض يكون بانسحاقها ثم ابتلاعه هو وداره التى فيها كنوزه ، فلم  
ينفعه شىء كما لم يغن عنن قبله أحد ، رغم كونهم أشد قوة وأكثر جمعا ،  
لم ينتصر لنفسه بذاته ، ولم يجد قوما ينتصرون له مما يدل على عدم وجود  
عصبية له .

﴿ وَيَكَاذِبُ اللَّهُ بَيِّنَاتٍ لِّمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾

« وي » هذه تفيد الندم أو للتعجب أحيانا .

فعندما قالوا : ﴿ يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ ثم تركوا قارون وداره  
بعد الخسف قالوا « وي » أى أنهم نادمون على ما قالوه فهم يخطئون أنفسهم  
لماذا ؟ كأن الله فى رزقه حكم وقدر .

يسط الرزق لمن يشاء ، ويقدره لمن يشاء ، وليس بسط الرزق دليل الكرامة  
فقد خسف الله به وبدار الأرض وليس قلة الرزق دليل الإهانة وقد تعرضت  
لها سورة الفجر ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي  
أَكْرَمَنِي ﴿١٩﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٢٠﴾ [ الفجر ] .  
إذن .. لا إتياء المال دليل كرامة ، ولا سلبه دليل إهانة ، وكل شىء له قدر  
بل لحكمة فى البسط وحكمة فى القدر .

أو لم تتمنوا مكانه فلم تجعلوا مع أمانيكم أن تذهبوا معه ؟



وهي التي يغبط من أعطيها ، ويعزى من حرما ، وأنها معدة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، ﴿ وَالْمَقْبَةُ لِلْمُنْقِينَ ﴾ [ القصص : ٨٣ ] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [ البقرة : ٨٧ ] .

علينا أن نعرف أنه حينما نتلقى بقول الحق : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ فإننا نفهم منه هنا : شبه القسم ، إن الحق سبحانه وتعالى يقسم بالقول الفصل ، لقد أعطى موسى الكتاب وهو التوراة ، وأرسل من بعده الكثير من الرسل لبنى إسرائيل ؛ لعلهم يهتدون إلى الحق ، ونحن نعلم أن التوصل إلى الحقائق يتم بثلاث وسائل :  
الوسيلة الأولى : هي إقرار صاحبها على نفسه .

والوسيلة الثانية : هي الشهادة من غيره عليه .

والوسيلة الثالثة : هي القسم .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقرر لنا بالوسائل الثلاث في آن واحد استيفاء كل أركان تقرير الحقيقة<sup>(١)</sup> .

إن موقف بنى إسرائيل من رسالة موسى ، يتماثل مع موقفهم من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لقد وقفوا مع موسى عليه السلام موقف التعنت

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ينعت تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتو والعدا والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب وهو التوراة ، فحرفوها وبدلوها ، وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون =

وضيق الأفق والتلكؤ ، ومحاولة الابتعاد عن تطبيق منهج الله بكل السبل ، وبحيل إطارها الغباء ، وضيق الأفق ، ومادية الرؤية ، وعدم القدرة على استيعاب الحقائق التي أرادها الله ؛ هداية للإنسان في الكون ، وبعد أن يقرر الحق الموقف المتعنت من بنى إسرائيل ، يقول سبحانه : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ [البقرة: ٨٧] أى أنه أرسل لهم الرسل تباعا ، بعضهم خلف بعض ، أى أن الحق لم يرسل إليهم موسى عليه السلام فقط ، ولكن أرسل إليهم أيضاً رسلا وأنبياء؛ ولنا أن نعرف أن كثرة الأنبياء الذين بعثهم الله لبنى إسرائيل ليست شهادة لهم ، ولكنها شهادة عليهم ، إنهم يتفخرون بغباء فى الاستدلال على أن الحق اختصهم بالكثرة من الأنبياء ، وهم ينسون أن الحق لا يبعث الأنبياء ولا يرسل الرسل ، إلا لإبراء البشرية من أدوائها ، فكلما كثر الرسل والأنبياء إلى قوم ، دل ذلك على أن تلك الأدواء متأصلة فيهم ، بحيث لم يكف فيها طيب واحد ، وكان من رحمة الله وحكمته أن أرسل لهم هذه الكوكبة من الأنبياء ؛ وذلك حتى يقطع عنهم الحججة بأن هناك فترة من غفلة . أن الحق تبارك وتعالى أرسل إليهم من الأنبياء والرسل : يوشع ، واشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان ، واشعيا ، وارميا ، وحزقييل ، والياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحى ، وعيسى ابن مريم ، عليهم السلام .

إنه موكب طويل من الرسل أرسلوا إلى بنى إسرائيل من بعد موسى . وهكذا لا نجد فترة من الزمن من بعد موسى وحتى عيسى عليهم السلام قد خلت من

---

= بشريعته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيِّنُونَ وَالْأَجَابُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾ [المائدة : ٤٤] الآية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ .

تفسير ابن كثير [١١٦/١-١١٧] .

موسى عليه السلام .. وقارون ٣٠٦



رسول أو نبي ، وكما نعلم أن أى نبي لا يذهب إلى قومه متطوعا ، إنما نبيا ومرسلاً من قبل الحق جل وعلا ، والفرق بين الرسول والنبي هو فرق الكلام العقدي ، ومعنى ذلك هو أن النبي لا يأتي بتشريع جديد ، ولكنه مرسل أيضا من قبل الحق ؛ ليكون قدوة للناس ، والرسول هو نبي أرسله الحق بتشريع للناس يوضح لهم سبل الهداية ومنهج الحق جل وعلا<sup>(١)</sup> ، وفي ذلك يقول الحق جلا وعلا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ [ الأنبياء ] .

إن الحق جل وعلا يخبر نبيه الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام ، أنه لا يرسل رسولا إلا بالوحي إليه ، أن يبلغ قومه بأن الخالق الأكرم هو وحده المستحق للعبادة؛ ذلك أن بعضا من كفار العرب ، وبعضا من بنى إسرائيل؛ قد زعموا أن الحق قد اتخذ ولدا ، وزعموا أن الملائكة بناته ، وتنزه الحق جل وعلا عن أن يكون له ولد ، وتنزه الحق جل وعلا أن يكون الملائكة بنات له ؛ بل الملائكة عباد مكرمون بالقرب من الله والعبادة له ، ولا يسبقون الحق بقول إلا بعد أن يأذن لهم ، وهم بأمره وحده يعملون ، ولا يتعدون حدود

(١) قال الشيخ الحكيم فى معنى الرسل : وهم كل من أوحى إليه ، وأمر بالتبليغ ، أما من أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي فقط ، وليس برسول ، فكل رسول نبي ولا كل نبي رسول .  
معارج القبول [٢/٦٧٥،٦٧٦] .

ما يأمرهم به الحق جل وعلا<sup>(١)</sup> ، يعلم كل أحوالهم وأعمالهم ، وهم فى خشية دائمة من الحق وتعظيم دائم له ، والرسل أيضا من البشر يصطفىهم الله ، لا أحد فيهم يزعم أنه ابن الله ، بل الرسل عباد مكرمون ، يدعون إلى عبادة الحق ويبلغون أقوامهم رسالة الخالق الأكرم ومنهجه .

إذن .. فكل من النبى والرسول مختار من قبل الحق . ومرسل من قبل الحق ، النبى مرسل بالأسوة الحسنة والقدوة ، وتطبيق المنهج الحق الذى جاء به الرسول من قبل ، والرسول مرسل من الحق لإبلاغ منهج حده له الله تعالى .



---

(١) عن قتادة رضى الله عنه قال : قالت اليهود : إن الله عز وجل صاهر الجن ، فكانت بينهم الملائكة ، فقال الله تكذبياً لهم : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى الملائكة ليس كما قالوا ، بل هم عباد أكرمهم الله بعبادته ﴿ لَا يَسْتَفْتُونَكَ بِالْقَوْلِ ﴾ يثنى عليهم ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ ﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ ﴾ قال : لأهل التوحيد .

• الدر المنثور [٦٢٤/٥]

وقال القرطبي فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ﴾ نزلت فى خزاعة ؛ حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً فى شفاعتهم لهم .

• تفسير القرطبي [٢٨١/١١]

موسى عليه السلام .. وقارون

## نبى الله يوشع عليه السلام<sup>(١)</sup>

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

(١) هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب - وهو إسرائيل - بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله ، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . ذكر ذلك فى الطبرى فى تاريخه [٣٦٤/١] وذكر أنه فتى موسى عليهما السلام . وهو أحد الرجلين الذين ذكرا فى صورة المائة : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ [المائدة : ٢٣] . ذكر ذلك القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن [١٢٧/٦] والطبرى فى تاريخه [٤٣٠/١] .

وهو الذى بعثه الله لبنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهم السلام . وهو الذى دخل بنى إسرائيل قرية الجبارين - أريحا - لحرب من فيها ، قيل : فى حياة موسى عليه السلام . وقيل : لم يسر يوشع إلى أريحا ولا أمر بالمسير إليها إلا بعد موت موسى بن عمران ، حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين ، وقالوا : مات موسى وهارون جميعاً فى التيه قبل خروجهما منه ، وكان بنو إسرائيل قد لبثوا فى تيههم أربعين سنة ، وناهض يوشع بمن بقى معه منهم مدينة الجبارين ، فقاتلهم يوم جمعة قتالاً شديداً حتى أمسوا وغربت الشمس ، ودخل السبت دعا الله أن يرد عليه الشمس ، فردت عليه ، فزيد له النهار يومئذ ساعة فانهمز الجبارين . ومات عليه السلام وله من العمر ستة وعشرون ومائة سنة . وتديره أمر بنى إسرائيل منذ توفى موسى إلى أن توفى يوشع عليهما السلام سبعاً وعشرين سنة .

تاريخ الطبرى [٤٣٥/١] وما بعدها .

لقد اجتمع الملائكة من بنى إسرائيل وقالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل معه فى سبيل الله ، وكلمة ملاء : تعنى ازدحام الإناء بحيث لا يكون فيه مكان يتحمل زائداً ، أى أن الظرف قد شغل بالمظروف شغلا لم يعد يتسع لسواه ، وتطلق كلمة الملاء (١) على أشرف القوم ووجوههم (٢) ، الذين يملكون إدارة الجماعة الكبيرة ولا يزاحمهم فى ذلك أحد .

إن أشرف هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من بعد موسى قد اجتمعوا للتشاور ، ثم ذهبوا إلى نبيهم يسألونه أن يعين لهم ملكا ، يقاتلون تحت إمرته (٣) هؤلاء القوم من بنى إسرائيل المجتمعين عند نبيهم ، جاءوا بالعلة الموجبة للقتال ، لقد أخرجوا من ديارهم فلماذا قال نبيهم لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ إن نبيهم يعرفهم ؛ لذلك يحذرهم ويخشى إن كتب الله عليهم القتال ، قد يتولى الكثير منهم ولا يقاتلون ، فماذا كان جوابهم : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ

---

(١) الملاء : الأشراف . ذكره الشوكانى ، وأورد عن الزجاج قوله : سموا بذلك لأنهم مليون بما يحتاج إليه منهم .

(٢) وجوه القوم : سادتهم ، واحدهم : وجه وكذلك وجهائهم ، واحدهم : وجهه .  
لسان العرب [٥٥٦/١٣] .

(٣) قوله تعالى : ﴿ لِنَبِيِّ لَهُمْ ﴾ قيل يوشع بن نون ذكره قتاده عن عبد الرزاق . وذكر ابن كثير عن الطبرى أن هذا القول بعيد ؛ لأن عليه السلام بدهر طويل ، وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام كما هو مصر به فى القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة . وقال وهب بن منبه : بأنه شمويل ابن بالى ابن علقمة . ويقال له : شمعون . وبه قال السهيلي فى « التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام [ص : ١٨] ، وانظر تفسير ابن كثير [٢٨٤/١] .

نبى الله يوشع عليه السلام ٣١٠

أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا ﴿١﴾ ولنا أن نلاحظ الدقة فى اللفظ القرآنى ؛ لتعلم سعة عطاء الله ، لقد قالوا : ﴿ نُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهم خلطوا هذا القتال فى سبيل الله بالأسباب الموجبة للقتال ، وهى أنهم أخرجوا من ديارهم وتركوا أبناءهم ، وهم إما أسرى فى أيدي الذين أخرجوهم وإما عبيد . ولماذا أراد الحق أن يورد لنا الأمر بهذه الدقة ؟ لماذا قال عن هؤلاء أنهم : ﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؟ لقد قص الله علينا خبر هذه القلة ؛ لنعرف قيمة الثبات على التعاقد الإيمانى ، إنه الاستثناء المطلوب للتبنيه ؛ وذلك حتى يعلم المؤمن حينما تنحسر الجمهرة عنه ، فلا يقل : إنى قليل لماذا ؟ لأن المؤمن حينما يدخل قتال فى سبيل الله ، فإن له رصيذاً ضخماً من القوة متمثلاً فى إيمانه بالإله القوى القادر ، وذلك عكس عدوه الذى لا يملك أى رصيد من هذا الإيمان ، فحتى هذا العدو لو كان كثير العدد والعدد فالمؤمن قادر بإيمانه بربه أن يهزمه بإذن الله ، وقرأ قول الحق تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَطْمُتُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَا مَنَّ فَتَكَرَّ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [ البقرة : ٢٤٩ ] .

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا ﴾ أخرجهم العمالقة : جالوت وقومه .

تفسير ابن كثير [٢٨٤/١] .

وقال الطبرى : كانوا قد وطنوا بلاد بنى إسرائيل وقتلوا رجالهم وسبوا ذراريهم ، وضربوا عليهم الجزية وأذلّوهم ، وغلبوهم على التابوت الذى فيه السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وبه كان بنو إسرائيل ينصرون على عدوهم إذا لقوه . تاريخ الطبرى [٤٦٧/١] .

٣١١ نبي الله يوشع عليه السلام

إن القلة المؤمنة التي تعرف أنها سوف تلقى الله ، تؤمن أن النصر ليس بالقلة ولا بالكثرة ، ولكن النصر من عند الله .

إذن .. فالشيء يكون واحدًا ، لكن النظرة إليه تختلف من إنسان لآخر على قدر الرصيد الإيماني .

وهكذا الأمر في المعارك .. فهناك من يرى العدو كثيرا ويرى نفسه ومن معه قليلاً ، وهناك من يحسب نفسه على أنه مع الله فلا ترهبه كثرة العدو أو عدده أو عدته .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [ البقرة : ٢٤٦ ] .

إذن .. فالتولى والإعراض ظلم للنفس ، ومعنى الظلم أنك تنقل حقًا لغير صاحبه ، إنهم أخرجوا من ديارهم وظلوا على هذه الحال ، فظلموا أنفسهم ، وظلموا أولادهم ، وظلموا مجتمعهم ، وظلموا القضية العقديّة .

وهؤلاء الذين تولوا هم يقومون بالتخذيل<sup>(١)</sup> المستتر وقتل الروح المعنوية ، والذين يطلق عليهم في العصر الحديث : « لظاظبور الخامس » . الذين يشبطون الروح المعنوية ، دون أن يراهم أحد ، ولكن الله يعرفهم ، وهو سبحانه عليم بهم . لقد طلب القوم - من بنى إسرائيل - من نبيهم أن يبعث لهم ملكا وكان يكفى النبي أن يختار لهم الملك ؛ ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم كعادتهم في التلكؤ واللجاجة يريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين<sup>(٢)</sup> .

كيف ؟

(١) خذله وخذل عنه يخذله خذلاً : ترك نصرته وعونه . والتخذيل : حمل الرجل على

خذلان صاحبه وتثبيبه عن نصرته .

(٢) يقول ابن كثير وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة

وقول معروف . تفسير ابن كثير [٢٨٥/١] . =

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُوتَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) [ البقرة : ٢٤٧ ] .

إنهم يريدون الوجاهة والحسب والأصل والمال ، إنهم يسألون النبي المرسل إليهم أن يسأل الله أن يعث لهم ملكًا ، فيقول لهم نبيهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

= وفى موضع آخر فى قصة البقرة : أخبر تعالى عن عنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ؛ ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذهبوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع - يعنى أجزاء - . عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . ا.هـ .

تفسير ابن كثير [١٠٥/١] .

وهذه هى عادة بنى إسرائيل فى كل أمورهم ، يقول الله عز وجل وهو أعلم بقلوب عباده توبيخًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) قال الطبرى : اسم طالوت بالسريانية شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحدت بن أفيح ابن أيش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

تاريخ الطبرى [٤٧٥/١] .

وقال البغوى : كان دباغا يعمل الأديم . وقيل كان سقاء يسقى على حمار .

معالم التنزيل [٢٩٧/١] .

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴿١﴾ . إن النبي المرسل يريد أن يطمئنهم إلى أن اختيار هذا الملك ليس مصدره بشريته هو ، إنما أمر الاختيار جاء من عند الله ؛ إن النبي المرسل إليهم ينحى بشريته عن هذا الأمر ، لكنهم يدخلون في الحاجة والتلكؤ ؛ فيقولون : ﴿ أَأَنِّي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ .

لقد دخلوا في مثل هذه اللجاجة ؛ لأنهم قسموا أنفسهم إلى قسمين : القسم الأول : هو نسل يأخذ النبوة ، وهذا القسم الذي يأتي من نسل بنيامين .

القسم الآخر : يأخذ الملوكية ، وهو الذي يأتي من نسل لاوى ابن يعقوب . لما عرفوا أن الله قد بعث طالوت ملكاً عليهم ، بدأوا في النظر في صحيفة نسبه ، فلم يجدوه من نسل الملك أو نسل الأنبياء ، فبدأوا في اللجاجة والتلكؤ ومحاولة رد الأمر على الأمر .

فالذى بعثه ملكا هو الله ، وهو أدري بمن يناسب الموقف ، وهذا يدلنا على أن الله يعلمنا أنه حين نريد الإختيار لرجل في مهمة ، فإياك أن يغريك حسب

---

(١) قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ ﴾ أى اختاره وهو الحجة القاطعة ، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت ، وهو بسطته في العلم الذى هو ملاك الإنسان ، والجسم الذى هو معينه فى الحروب وعدته عند اللقاء ؛ فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة ، وأنها مستحقة بالعلم وفضائل النفس ، وأنها متقدمة عليه ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته ، وإن كانوا أشرف منتسبا .

تفسير القرطبي [٢٤٦/٣] .

نبي الله يوشع عليه السلام ۳۱۴



الرجل ونسبه أو جاهه ، ولكن اختر الرجل القادر على قدر المهمة والرجل اللائق بها ، وكأن الحق يحسم هنا قضية أهل الثقة وأهل الخبرة .  
إن الحق يعلمنا أن أهل الخبرة هم الذين يجب أن يكونوا أهل الثقة ؛ لأنه أهل الثقة قد تنقصهم الخبرة ، فلا يصلون للمهمة بل يفسدونها . والقضية التي نحن بصددتها الآن تثير سؤالاً : أستم أيها القوم تطلبون ملكاً لكم ؛ حتى يسوس أموركم أو يقودكم في الحرب إلى النصر ؟ إن هذه المهمة تحتاج صفتين :

الصفة الأولى : أن يكون الرجل جسيماً .

الصفة الثانية : أن يكون الرجل عليماً . والذي اختاره ملكاً لهؤلاء القوم ، إنما كان يتمتع بالصفتين في آن واحد ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ .

ولنا أن نتأمل دقة القرآن الكريم ، تلك الدقة المتناهية في أداء الكلمة للمعنى وفي تصوير الموقف الذي أراد الحق إبلاغه للخلق ، لقد قال النبي المرسل لهؤلاء القوم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وكلمة : ﴿ بَعَثَ ﴾ لا تجرح مشاعر هؤلاء القوم ، ولا تفيد أن طالوت أفضل من أى واحد منهم ، لكن بعد أن ردوا بلجاج وغطرسة وقالوا : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ ﴾ هذا هو قولهم وهو ناشئ عن عدم فهم لطبيعة المهمة التي أرسل لها طالوت ملكاً ؛ لذلك كان الرد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ .

يريد نبيهم أن يكسر موجة عنادهم لاصطفاء الله لطالوت ملكا ، فيخبرهم  
 بآية حسية تدل على اصطفاء الله لطالوت ، وأنه الصالح لهذه المهمة ؛ مهمة  
 الملك قال لهم : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ  
 سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ وَنُوحٌ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ  
 الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨]  
 وما دام الحال قد وصل إلى العناد عند استقبال أمر طالوت ملكا ، فإن الحق  
 يأتي بالمعجزة التي تؤكد اختيار الله له ملكا ، والمعجزة أن هناك آية لملك  
 طالوت . لقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبأ اختيار طالوت  
 بأدب ودون لجاج ؛ لأن الذى يحمل لهم نبأ الاختيار هو نبيهم الذى وثقوا به  
 ولجأوا إليه ، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب .

ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بآية مرسله من الحق سبحانه  
 وتعالى ، إنها الآية الربانية التي تدل على صلاحية طالوت للملك باختيار من  
 الله ، تلك الآية هي : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ  
 سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ونأخذ من هذا القول الحكيم ثلاث مسائل :  
 المسألة الأولى : إن التابوت كان غائبا مفقودا .

المسألة الثانية : إن التابوت كان أمره معروفا لكل هؤلاء القوم

المسألة الثالثة : إنهم كانوا فى شغف للحصول على هذا التابوت .

فما هو التابوت ؟

إنه التابوت الذى جاء فيه قول الرحمن : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِكَ مَا  
 يُوحَىٰ ۖ أَنْ أَقْبِضِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْبِضِي فِي آلِي فَلْيَلْقِهِنَّ إِلَيْكُمْ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ  
 لِّي وَعَدُوٌّ لَهُمْ ... ﴾ [٢٥٨] .

فالتابوت<sup>(١)</sup> الذى جاء آية لملك طالوت ، هو التابوت الذى أوحى الله إلى أم موسى أن تضع فيه ابنها ، وتلقيه فى اليم ؛ ليلقه اليم بالساحل ، وهو الصندوق الذى كانت به التوراة .

وما الذى كان فى هذا التابوت ؟

يقول تعالى : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آئِلَ مُوسَىٰ وَآئِلَ هَارُونَ ﴾ .

وكيف يأتى ؟ يقول تعالى : تحمله الملائكة .

إذن .. مادام التابوت يحمل تلك الآثار ، وفيه السكينة لهؤلاء القوم بما يحمله من آثار آل موسى وآل هارون ، ومادام هذا التابوت يأتى وتحمله الملائكة ، فلا بد أن أمره جليل وله مساس بأمر العقيدة ، إذن فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا ؛ ليدلنا على أنه كان مفقودا من بنى اسرائيل ، وكان افتقاده إما بسبب عدو قد غلبهم ، وحاول اقتناص المقدسات التى كانت فى بلادهم ،

(١) قوله : ﴿ التَّابُوتِ ﴾ : هو صندوق من الخشب الشمشار فيه صور الأنبياء . نقله البلنسى عن ابن عطية ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . ووجود صور الأنبياء فيه يعنى قبل تحريمها فى شرعنا . أنظر زاد المسير [٢٥٨/١] .  
قوله : ﴿ سَكِينَةٌ ﴾ : هو تسكين قلوبهم . وقيل : روح من الله كان يتكلم فيما يختلفون فيه ، وقيل : طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء ، أعطها الله موسى عليه السلام ، فوضع فيها الأواح . وقيل غير ذلك كما هو وارد فى كتب التفسير ، انظر تفسير ابن كثير [٣٢٣/١] ، الدر المنثور [٣١٧/١] ، زاد المسير [٢٥٩/١] وغيرها .

قوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ ﴾ : هى لوحان من التوراة ورضاض ما تكسر منها . وقيل : عصا موسى ونعلاه ، وعصا هارون وعمامته أورد هذين القولين ابن الجوزى فى

زاد المسير [٢٥٩،٢٥٨/١] .

نبي الله يوشع عليه السلام ٣١٧













## نبى الله إلیاس علیه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١١٣] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١١٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴿١١٦﴾ فَكَذَّبُوه فَانْتَبَهُ لَمُحْضَرُونَ ﴿١١٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ [ الصافات ] .

إن الياس وآل ياسين علم على مسمى واحد أى أنهما اسم لنبى واحد . وهو إلیاس النشبى بن العازر بن هارون ابن لاوى ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى حثهم وحضهم على تقوى الله والخوف منه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أى تعبدون بعلا وهو صنم لا ينفع ولا يضر وتتركون الإله الحق أحسن الخالقين ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴾ فهذا موجز رسالته لم يتعرض لحكم من الأحكام ولكنه جاء لينقى العقيدة الأم مما شاب قمتها ، وهى : العبادة ، فإذا ما صحت هذه العبادة صدر عنه من التكليف ما يناسب تصحيح هذه العقيدة فى نفوسهم ، إن موكب الرسالات منذ آدم . إنما جاء ليصحح صلة المخلوق بالخالق فأثبت للمخالق أولاً أنه هو العليم والقادر والحكيم والواحد وهو الذى خلقك وأنعم

عليك حتى تتلقى أوامره برضا وتقبل عليها باطمئنان فإن لم تكن جزاء على ما قدم لك من نعم خلقها لك قبل أن توجد فليكن خوفاً منه لأنك ستعود إليه . إن الحق سبحانه واجب الوجود ويعطيك وجوداً ، لكنه لا يدوم وليس له موعد محدد ينتهى فيه كذلك هو قادر فيعطيك قدرة ولكنها قدرة موهوبة منه ويسلبها عنك فتمرض وتذهب قدرتك وهو حكيم فيعطيك حكمة تزاوّل بها الأشياء ، ويعطيك قهارية تزجر بها الذين تحت تصرفك حتى يستقيموا فى أمورهم ويعطيك رحمانية حتى تحنو بها على اليتيم والصغير والضعيف والمسكين . لذلك يحذر الله الإنسان أن يفهم أنه أصيل فى الوجود بل عليه أن يفهم دائماً غير أصيل فى الوجود هو خليفة لله فى الأرض فكما توكل إنساناً فى عمل فاعتبر نفسك وكياً فقط لا أصيل فى هذا الكون لأنك لو اعتبرت نفسك أصيلاً ستضيع نفسك وتضيع الدنيا معك ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾ [العلق] . لقد ضربنا بذلك مثلاً بالولد مع أبيه ، قلنا الولد حينما يكون محتاجاً لأبيه ويأخذ منه مصروفه كل شهر لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر حين يأخذ المصروف ، فالذى جعله يود أبيه هى الحاجة ، فلو أعطى مصروف الشهر كله قد لا يهتمه رؤية أبيه فى فترات متقاربة .

إذن .. يجب أن نفسر فلسفة الحاجات التى تعوز النفس لأنها التى تجعلك تلجأ إلى ربك ، ولذلك الإنسان لا يلجأ إلى الله بحق إلا إذا اختل شىء عنده ولم يجد غير الله ، لكن حين تكون عنده النعمة نادراً ما يذكر الله ويلجأ إليه ، فماذا كانت نتيجة دعوته لقوم ؟ ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ .

كشأن كل قوم يأتيهم رسول ليهديهم ويخرجهم من الظلمات والفساد  
الذى هم فيه إلى النور والحق والهداية لماذا ؟

لأن الفساد الذى هم فيه ينتفعون به ، فالسادة والكبراء يخدمهم الأتباع ،  
فهم يمتصون دماءهم وعرقهم ليستفيدوا به لمصلحتهم منهم يستفيدون من  
استمرار الفساد فالذى يتصدى للرسول هم السادة الذين يأخذون خيز الضعفاء .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۗ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

كلمة : ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى موقوفون ومعروضون على الله يوم الحساب  
فلا تظنوا أنكم هربتم من الله أو أفلتم من يده ، لأنكم ستقفون بين يديه  
وتنالون جزاءكم ثم يقول تعالى : ﴿ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ يُجِزَى  
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ، كأن الإحسان فرع للإيمان فهو  
ما كان محسناً إلا لأنه كان مؤمناً .

○ ○ ○

## نبي الله حزقيل عليه السلام (١)

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

(١) هو حزقيل بكسر الحاء بن بوذى بن المعجوز ، وهو الذى أقامه الله على أمر بنى إسرائيل بعد كالب بن يوفنا الذى خالف يوشع بن نون ، لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضيين وأمور الأمم السالفة فى ذلك . وهو الذى أصاب قومه الطاعون ﴿ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ . انظر تاريخ الرسل والكلوك للطبرى [٤٥٧/١] وما بعدها ، والمعارف لابن قتيبة [ص : ٥١] وجامع البيان [٥٨٦/٢] . وغيرها .

[٣٦٣٩٥٨٢] روى ذلك ابن جرير عن السدى عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ . تاريخ الرسل والملوك للطبرى [٤٥٨/١] . وأورد السيوطى فى الدر المنثور [٣١١/١] القول الأول : أنهم فروا من جهاد فرض عليهم ، رواية عن ابن عباس . وعن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال : « الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل ، أو على من قبلكم . فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه » .

أخرجه البخارى [٥٧٢٨] ، ومسلم [٩٢/٢٢١٨] واللفظ له ، وأحمد فى المسند [٢١٣/٥، ١٨٢/١] .

ولا يعنى هذا أنه لا يصاب به المسلم ، وإنما هو وباء على أنواع يجب الاحتراز منه ، وصح عنه ﷺ « الطاعون شهادة لكل مسلم » أخرجه البخارى [٥٧٣٢، ٢٨٢٩] .

إنهم بعض من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، وكانوا ألوفا فهربوا وخافوا من الموت ، فأماتهم الله عدة أيام ثم أحياهم .

وقال بعض المفسرين : إنهم بعض من بني إسرائيل ، جاءهم نباء شديد الفتك بالناس ، فهربوا وتركوا ديارهم حذر الموت ، أو خوفاً من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم .. لماذا ؟ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحدا لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله ؛ لذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أراد للناس أن تهرب من الطاعون ، قالوا له : أنفر من قدر الله ؟

قال عمر : إنما نحن نفر من قدر الله إلى قدر الله (١) . إن ذلك يجعل الإنسان فى تسليم مطلق بملء جوارحه لله ، صحيح أن على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذى يريده الله سوف ينفذ ، والمؤمن يأخذ بالأسباب ويسلم أمره لله .

ويقول سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، وعندما يقول إنسان لإنسان « ألم تر » فمعنى ذلك أنه يسأله ، هل شاهد هذا الأمر بنفسه أم لا ؟ لكن عندما يقول الحق سبحانه لرسوله ألم تر فالمقصود بها سماع الخبر قادم من عند الله ، وأنه ساعة يخبرك الله بشئ سابق عن وجودك ، أو بشئ متأخر عن وجودك فاستقبله استقبالك لما رأيته بالفعل .

فعندما قال الحق سبحانه لهم : موتوا ثم أحياهم فهذا أمر قهرى بالموت وبعودتهم إلى الحياة .. أليس الموت هو ما خافوه وفروا منه ، واحتاطوا بالهرب

---

(١) أخرجه البخارى [٥٧٢٩] ، ومسلم [٩٨/٢٢١٩] . عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه .

منه ؟ ولكن لا أحد يقدر على أن يحتاط من قدر الله . وقد يقول قائل : لماذا لم يتركهم الله ليموتوا إلى أن يأتي البعث يوم القيامة ليحاسبوا ؟  
نقول لمثل هذا القائل : لقد أراد الحق بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة في أكرم كتاب حفظه الله منهجا للناس ، وهو القرآن الكريم . إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارا وتجربة . يموتون بأمر ويعودون إلى الحياة بأمر آخر ، ثم يعيشون الحياة المقدره لهم ويموتون بعد ذلك حتف أنفهم<sup>(١)</sup> . ولتظل العبرة ماثلة أمام كل مؤمن حقاً ، فلا يخاف أحد الموت في سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن يعلم المجاهدون في سبيله أن القتال لا يقدم أجلا ، ولا يؤخر أجل ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة .  
وها هو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باق ليعرفه كل مؤمن :  
« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء »<sup>(٢)</sup> .

(١) الحتف : الموت ، وجمعه : حتوف . وقول العرب : مات فلان حتف أنفه ، أى : بلا ضرب ولا قتل ، وقيل : إذا مات فجأة . قال أبو عبيد : هو أن يموت موتاً على فراشه ، من غير قتل ولا غرق ولا سبع ولا غيره . وقال ابن الأثير : هو أن يموت على فراشه ، كأن سقط لأنفه فمات ، والحتف الهلاك . لسان العرب [٣٨/٩] .  
(٢) قال ابن كثير : روى الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : لما حضرت خالداً الوفاة بكى ، ثم قال : لقد حضرت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

البداية والنهاية [١١٧/٧] .

نبي الله حزقيل عليه السلام ۳۲۸







## نبى الله شمویل علیه السلام

هو شمویل ويقال : أشمویل بن بالى بن علقمة بن یرحام بن الیهو بن تهو بن صوف ابن علقمة بن ماحث بن عموصاً بن عزریا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمویا بن هلفاقا ولم یرفع فى نسبه أكثر من هذا .. الله أعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم یبق فیهم إلا امرأة حبلى ، فجعلت تدعو الله عز وجل أن یرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمویل ومعناه بالعبرانية إسماعیل أى سمع الله دعائى<sup>(١)</sup> .

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه یكون عنده لیتعلم من خیره وعبادته فكان فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت یأتیه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً ، فظنه الشیخ یدعوه فسأله : أدعوتنى ؟ فكره أن یرزعه فقال : نعم نم . فنام .

ثم ناداه الثانية فکذلك ثم الثالثة فإذا جبریل یدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه . =

(١) إسناده ضعيف : أخرجه الطبرى [٤٦٧/١] ، وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور [٣١٥/١] . فى سنده أسباط بن نصر ، وهو كثير الخطأ یغرب . انظر ترجمته فى تقریب التهذیب [٣٢٣] .

= قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجِيِّ لَّهُمْ أَهْبَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا حَبْرًا وَثَكِّبْتَ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٧٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾ ﴿ [ البقرة ] . =



---

= قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمویل وقيل : شمعون . وقيل : هما واحد . وقيل : يوشع . وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير في تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثة شمویل أربعمائة سنة وستين سنة (١) . فالله أعلم .

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير [٥٢٣/٥٢٤] .

## نبي الله إشعيا بن أمصيا

قال ابن كثير : قال محمد بن إسحاق<sup>(١)</sup> : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان في زمانه ملك اسمه « حزقيا » على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لإشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بنى إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : في ستمائة ألف راية .

وفزع الناس فزعاً شديداً . وقال الملك للنبي إشعيا : ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوح إلي فيهم شيء بعد ، ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله . فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرني بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى ، وسرى واعلانى لك .

قال : فاستجاب الله له ، ورحمه ، وأوحى الله إلى إشعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخرج في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب ، فلما قال له ذهب منه الوجد وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال في سجوده : =

(١) إسناده ضعيف ، أخرجه الطبري [١٥/١٨-١٩] في تفسيره ، وفي تاريخه [١/٥٣٢-٥٣٤] بسنده عن ابن إسحاق .

في سنده ابن حميد شيخ الطبري من الضعفاء ، وذكره ابن إسحاق تعليقا .

.....  
= اللهم أنت تعطى الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى إشعيا أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفى .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر أرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن ، وأوحى الله تعالى إلى إشعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم . فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهى أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بنى إسرائيل مرج<sup>(١)</sup> أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى إشعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجر فنشروها ونشروه معها ، فإننا لله وإننا إليه راجعون<sup>(٢)</sup> .

(١) مرج : أى اضطرب أمرهم واختلطت أفعالهم .

(٢) قصص الأنبياء [٥٧١-٥٧٣] .

## أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

---

قال ابن كثير : وقد قيل : إنه الخضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح <sup>(١)</sup>

وقال ابن عساكر : جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم .. ففتنت الناس . فسكن ورسب حتى غاب <sup>(٢)</sup> .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أى رب ، أى عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لى ذكراً ، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوباً ، وإذا زوى عنهم سروا بذلك ، أولئك أنحلهم محبتى أعطيهم فوق غاياتهم <sup>(٣)</sup> .

قصص الأنبياء [٥٧٣] .



---

(١) إسناده موضوع : انظر تهذيب ابن عساكر [٣٨٤/٢] .

(٢) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر [٣٨٤/٢] .

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه انظر التهذيب [٣٨٦/٢] وفيه على بن أبى مریم لم أقف عليه .

## نبى الله دانيال عليه السلام

قال ابن كثير : روى بسنده عن عبد الله بن أبى الهزبل قال : ابن أبى الدنيا : أحضر بختنصر أسدين فألقاهما فى جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب ؛ فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعد طعاماً وشراباً لدانيال . فقال : يا رب ، أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه : أن أعد ما أمرتك به فإننا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حملة وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلنى إليك ربك . قال : وقد ذكرنى ربى ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره . والحمد لله الذى يجيب من رجاه ، والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا (١) .

وقال أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخة بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا .

فقلت لأبى العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتكم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر =

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة [١٤٧] وفى الشكر [ص: ٥٣] .

.....  
= قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ؛ وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس  
فلا ينشونه قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم بروزاً  
بسريه فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .  
قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تغير منه  
شيء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها  
السباع (١) .

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان التاريخ وفاته محفوظاً من  
ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين  
رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي فى البخارى (٢) ، والفترة التى كانت  
بينهما أربعمائة سنة ، وقيل : ستمائة . وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون  
تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، وإن كان كونه دانيال هو  
المطابق لما فى نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ،  
ولكن قربت الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده  
مسجوناً كما تقدم .

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر ، وعن أنس بن مالك  
إسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين  
قبل هذه المدد .. والله تعالى أعلم .

- (١) إسناده ضعيف : فيه عنعنة ابن إسحاق ، وهو من المدلسين ، وباقي رجاله ثقات .  
(٢) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس  
بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبي » .  
أخرجه البخارى [٣٤٤٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٦٥] .



.....  
= وروى أبو بكر بن أبي الدنيا فى كتاب « أحكام القبور » : عن أبى الأشعث الأحمري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » . فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر وجدته فى تابوت تضرب عروقه ووريده <sup>(١)</sup> ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشروه بالجنة » <sup>(٢)</sup> .

فكان الذى دل عليه رجل يقال له : حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إلى حرقوص ، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة . وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظاً نظر .. والله تعالى أعلم .  
ثم قال ابن أبى الدنيا : حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد - وكان عالماً قال وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجره فيها ودك <sup>(٣)</sup> ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه <sup>(٤)</sup> .

وروى ابن أبى الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجدوه ، وذكروا له أن دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء افترض منها فإن ردها =

(١) تضرب عروقه : أى تظهر عروقه ووريده ، وذلك كناية عن بقاء بدنه سليماً معافاً مع امتداد الزمن

(٢) إسناده مرسل .

(٣) ودك : أى دسم اللحم وهو الدهن والشحم . وقيل : السمن . وكلاهما ممكن مراد هنا .

(٤) إسناده معضل .

.....  
= وإلا مرض وإن عنده ربه ، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه .

وروى عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهراً وحفروا فى وسطه قبراً فدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبو موسى الأشعري رضى الله تعالى عنه (١) .

وروى ابن أبى الدنيا : عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبىه قال : رأيت فى يد ابن أبى بردة ابن أبى موسى الأشعري خاتماً نقش فصبه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا : إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه . جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده . فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتله ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسود فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضره ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ ، قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتم ؛ لئلا ينسى نعمة الله عليه فى ذلك . إسناد حسن (٢) .

قصص الأنبياء [ ٥٨٣ - ٥٨٦ ] .

---

(١) كلها مراسيل فلا حجة فيها .

(٢) إسناده لا بأس به .

## نبي الله العزيز عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ البقرة : ٢٥٩ ] .

القرية هي تجمع جماعة من الناس يسكنون في مكان محدود ونفهم أن الذي مر عليها ليس من سكانها وقيل إنها بيت المقدس .

وهذه القرية خالية من السكان ليس بها أحد ، فهذا شيء لافتا للنظر قال : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فكأنه يسأل عن القرية وعن إماتة وإحياء الناس الذين سكنون القرية .

وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ تأتي مرة بمعنى كيف ، ومرة بمعنى من أين ، ومعناها هنا : كيف يحيى الله هذه بعد موتها إنه مؤمن ولا يشك في قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف كيفية .

مثلا نرى الأهرام ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل ، لكننا نتساءل فقط : كيف بنوها ؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو روافع آلية ؟

إذن .. فنحن نتعجب فقط ، والتعجب فرع الإيمان بالحدث . والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث كأنه لا يشك في أن الله يحيى ، ولكنه عاشق

ومشتاق لأن يعرف الكيفية ليعيش في جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصنعة .

أراد الله سبحانه أن تكون الإجابة تجربة معايشة فى ذات السائل لذلك قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا تَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثُ قَالَ كَم لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كأن الله كلمه كما كلم موسى أو سمع صوتًا أو ملكًا ، المهم أن هناك سؤالًا وجوابًا .. والسؤال هو : كم لبت ؟

فأجاب العزيز : لبت يومًا أو بعض يوم .. وإجابته تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى ، ولأنه لم ير شيئًا قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير فلو كان قد حلق لحيته مثلًا وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو نام بشعر أسود وقام بعد ذلك بشعر أبيض ، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها لكنه لم يجد تغيرًا .

وكان جواب الحق له : ﴿ بَل لَّيْتُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ إننا هنا أمام طرفين ، ويكاد الأمر أن يصبح لغزًا ، إن الحق سبحانه صادق ومنزه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ويوجد دليلًا على هذا ، ودليلًا على ذاك .. الدليل على صدق العبد أن طعامه وشرابه لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يومًا أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق عزيز ، ثم إن الرجل كان معه حماره فقال له الحق : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ وهذا يدل على أن هنا شيئًا عجيبًا وأراد الله أن يبين له بنظره إلى الحمار دليلًا على صدق مرور مائة عام ووجد الرجل حماره وقد تحول عظامًا مبعثرة ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصير لأن موت الحمار أمر قد يحدث فى يوم لكن أن يَرَمَّ جسمه ثم ينتهى إلى رماد فتلك قضية تريد زمانًا طويلًا لا يتسع له إلا مائة عام .. كأن النظر إلى الحمار هو دليل على نبي الله العزيز عليه السلام



ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزًا ، وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟  
والمقصود بهذا اللغز هو العزيز الذى أماته الله وهو فى الخمسين من عمره ، ثم  
أحياه الله فى عمره نفسه بعد مائة عام . والتقى العزيز حينئذ بابنه الذى كان  
وصل سن الخمسين .

قال الابن : كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه - شامة - فلما كشف العزيز  
كتفه لابنه وجد الشامة . وثبت أهل القرية من صدق العزيز فجاءوا بنسخة  
من التوراة وتلا العزيز التوراة كما وجدت فى النسخة فصدق القوم أنه العزيز  
وتعجب الناس وهم يشاهدون ابنا تخطى المائة وأبا فى سن الخمسي ، ولذلك  
يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وحفظ العزيز للتوراة له قصة ذلك أن اليهود بعد موسى عليه السلام قتلوا  
الأنبياء وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها ولكن طفلًا وهو  
العزيز لم يعجبه مشهد قتل الأنبياء ، فخرج شاردًا فى الصحراء مهاجرًا وهاربًا  
فقابله شخص فى الطريق فسأله : لماذا أنت شارد ؟ فقال خرجت أطلب العلم  
وكان هذا الشخص جبريل عليه السلام فعلمه أن لله توراة فحفظها فصار  
واحدًا من الذين حفظوا التوراة وهم : موسى ، وعيسى ، وعزير ، واليسع .  
أى صار واحدًا من أربعة ، ولأن الكتب قديمًا لم تكن تكتب على ورق رقيق  
مثل زماننا بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل ؛ لذلك كان وزن  
التوراة يقدر بسبعين حمل بعير .

وحين رجع عزيز حافظًا للتوراة اندهش قومه وقالوا لا بد أنك ابن الله  
لأن الله أعطاك التوراة وكان منهم سلام بن مشكم وشاس بن قيس ومالك  
ابن الصيف ونعمان بن أوفى .

كأن اليهود حينما شاهدوه حافظًا للتوراة وبعد أن رجع لهم بعد غياب مائة عام قالوا هذا القول : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكْفُرُوا ﴾ [ التوبة : ٣٠ ] .

هذا الإدعاء فيه مساس بجلال الله تعالى لأن الإنسان يتخذ ولدًا لعدة أسباب ، إما لأنه يريد أن يبقى ذكره في الدنيا بعد أن يرحل والله سبحانه دائم الوجود ، وإما لكي يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف والله سبحانه دائم القوة ، وإما ليرث عزوة له ، والله جل جلاله عزيز دائمًا ، وهكذا تنتفي كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الإدعاء ، ولذلك يقول الحق سبحانه ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ، إشارة إلى القول بأن عزيز ابن الله أو المسيح ابن الله ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهل يوجد قول بغير أفواه ؟

نقول : هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعانى أى يستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى الأصل واللغة .



## نبى الله داود عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

إن بداية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، زعيم جيش الكفار الذى هرب فطارده داود وقتله .

إن داود كان أخا لعشرة وهو أصغرهم - وقال النبى المرسل إليهم : إن الذى سوف يدخل المعركة ضد جالوت لا بد أن يكون درع موسى عليه السلام على مقاسه ، استعرض والد داود الدرع على جميع أبنائه ، فلم يأت على مقاس أى واحد منهم ، إلا على أصغرهم وهو داود .

ودخل داود المعركة فقتل جالوت قائد المشركين ، وشاءت حكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين ، هو الذى يقتل كبير جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة ، وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، وأحب داود الدرع ، وصار أمله أن يعلمه الله صناعة الدروع ولذلك لم يتخذ صنعة فى حياته إلا عمل الدروع وجعل الله له الحديد لينا ليصنع منه ما يشاء . ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبا : ١٠] .

الفضل هو الأمر الزائد ، لأن الله تعالى أعطاه أشياء لم يعطها لكثير من الرسل ، وأوبى أى رجعى أى هو يقول والجبال تردد خلفه ، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا فهم قولها ، وفهمت قوله فكأنه عرف لغة الجبال .



وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ ص : ١٨ ] .  
يستغرب البعض أن يكون للجبال والطيور كلامًا وتفاهما ، مع أننا لم نقل  
إن للجبال أو الطيور كلامًا معك ، ولكن لها كلام مع من خلقها ، فما الذى  
حشرك أنت فى ذلك .

وبعض العلماء قالوا هذا تسبيح دلالة ، أى تدل على خالقها تقول لهم  
ما دام قلت إنه تسبيح دلالة تكون قد عرفته والله يقول : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُوْنَ  
تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [ الإسراء : ٤٤ ] .

إذن .. هذا الكلام لا يصلح ، ولكن الأصح أن كل شيء يسبح بلغته  
الخاصة به ولذلك يقول سبحانه عن الطير .

﴿ وَالطَّيْرُ صَبَّحَتْ كُلُّ قَدٍّ عِلْمٍ صَلَاتُهُمْ وَسَبِّحُهُمْ ﴾ [ النور : ٤١ ] .

إذن المعجزة فى داود ليس فى أن الجبال تسبح مع تسبيحه لأن الجبال تسبح  
باستمرار لكن تسبيحها وافق تسبيح داود فسبحوا معًا كأنهم « كورس »  
واحد .

ولذلك لما قالوا : إن الحصى سبح فى يد رسول الله ﷺ ، نقول لهم عدلوا  
العبارة لأن الحصى يسبح فى يد أى جهل ، لأنه مسبح بطبعه فهو يسبح فى  
أى يد - إذن ليست العظمة فى أن الحصى سبح فى يد الرسول ، ولكن  
العظمة فى أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده .

﴿ وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ ﴾ [ ص : ١٩ ] أى مجتمعة لأن سيدنا داود كان صوته  
جميلًا جدًا ، فساعة يغنى بمزاميره يأتى الطير من كل ناحية ، ويحشر نفسه  
ليسمع مزامير سيدنا داود ﴿ كُلُّ لَهْوٍ أَوَّابٌ ﴾ [ ص : ١٩ ] أى : يرددون

٣٤٧ 

---

 نبي الله داود عليه السلام

ويرجعون ما يقول ، أو أن معنى كل أى من داود ومن الجبال ومن الطير  
كلهم لله أو ابون .

إذن .. عظمة داود أن الله أفهمه لغة الجبال والطير وتسييحها ، وجعل  
تسييحها يوافق تسييحه ، والتسخير هو قهر المسخر على فعل لا يستطيع أن  
ينفك عنه ، فهو مقهور على هذا الشيء وليس مختارًا . ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ  
الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٧٩ ] .

إذن .. فهو تسييح بلغة خاصة ، ولكن جنس إشارات أو عبارات تتفاهم بها  
أنواع الأجناس مع بعضها .

فإن كنا لا نفهم هذه اللغة ، وتلك الإشارات ، فهذا ليس غريبًا ، لأنك  
أيضًا لا تفهم إن تكلم إنسان مثلك بألفاظ لها صوت ، ولكنك لا تعرف  
وضعها ومعناها فلا تفهمها .

فكذلك الأجناس الأخرى أنت لا تفهمها ، لأنك لا تعرفها والحق سبحانه  
أشار إلى ذلك على وجه العموم فى أجناس الكون كلها .

﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [ النور : ٤١ ] .

فكل شيء يعرف صلاته وتسييحه ، كيف يصلى ؟ وكيف يسبح بلغته  
التي يفهمها ؟ وإذا شاء الله أن يفيض من بعض فيضه على بعض خلقه ؟ يفهم  
بعض الخلق لغة أذن من لغته ولذلك قال سليمان : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا  
مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [ النمل : ١٦ ] .

والحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية التسييح والخضوع والقهر من  
المخلوقات جميعًا إلى خالقها يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ  
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴿١٨﴾ [الحج : ١٨] .

فكل مخلوقات الله من جماد ونبات وحيوان خاضعة ، وتسجد لله  
بالإجماع دون أن يتخلف منها شيء .

﴿ وَالنَّارُ لُحْدِيدٌ ﴾ أى : أن الحديد لان فى يده يشكله كيف يشاء .  
يقول البعض آلان له الحديد ، أى علمه أن النار تذيب الحديد ، وهذا كلام  
غير منطقي مع ما أخبر الله تعالى به ليونة الحديد ، لا بد أنه أصبح فى يده مثل  
الشمع ، أو مثل الصلصال الذى يشكله تلاميذ المدارس وإلا لما كانت معجزة  
﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِّنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .  
فتعليم الله لداود عليه السلام صناعة اللبوس إما بالوحى أو بالتجربة والخاطر .  
هناك لباسا أو لبوسا .

اللباس نعمله لنستر به عورتنا ، ونحفظ أنفسنا من الحر والبرد ، وفى حالة  
الحرب التى يتعرض فيها الإنسان للإصابة فى أجزاء قاتله من جسمه .  
واللبوس أبلغ من اللباس لأن مهمته أبلغ لأنه يقى الإنسان البأس ويحفظ  
مواقع الخطر فى جسمه فى الحرب .

﴿ وَالنَّارُ لُحْدِيدٌ ﴿١٨﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [سبا] .  
السابغات هى عدة حرب ، لأنها الدروع التى تلبس على الصدر لتحافظ  
على حياة الإنسان ، لأنها منطقة حيوية للجسم .

وكانت الدروع قبل سيدنا داود تصنع من صفائح ملساء ، فإذا ضربها  
السيف شقها فقال له ربه : ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ .

فعملها حلقات صغيرة وشبكها فى بعضها حتى تتمكن من صدّ الضربات والطعنات والدروع عادة تكون على الصدر ، لكن الله تعالى أمر داود أن يحتاط ويجعلها سابعة أى تغطى الصدر والبطن والظهر .

فكأن الحق سبحانه أول ما علم داود وسيلة الحرب وليس وسيلة السلم لماذا ؟ ليعلمنا أن نعد لمن ينقض كلمة الله ونهجه ما استطعنا من قوة .

ومعنى ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أى أصنعها يتقدير دقيق والسرد هو النسيج فاجعل نسج الحديد فى الدرع على قدر الحاجة ، فلا توسعه ولا تضيقه ولكنه اجعله وسطاً .

وهذا الموضوع له قصة ، فسيدنا داود كان يأكل من بيت المال لأنه يتولى أمور الناس ، فأنزل الله ملكاً فى صورة رجل وجعل الناس تسأله كيف يعيش داود ؟

قال فيه خصال حميدة وليس فيه إلا أنه يأكل من بيت مال المؤمنين ، فلما بلغ ذلك داود حزن وبكى وقال يارب لماذا جعلت فى هذا الأمر فعله الله صناعة الدروع حتى يأكل من عمل يده ، فكان يصنع الدرع ويبيعها بأربعة آلاف ويعيش منه حتى يصنع غيره .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ [ ص : ٢٠ ] . أى قويناه ولذلك هو سيدنا سليمان جمعا بين الملك والنبوة ، ولذلك تجدد المخالفين لهم غير ظاهرين ، لأن الملك يطمس أنف الظالم فلا يستطيع متمرّد أو فاسق أن يواجه نبيا ملكاً وذلك لهيبة الملك إذن ، أو ما يشد الملك هو الهيبة فإذا أراد الله أن يضعف الملك أى يمنعه من الشدة يسقط الهيبة .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ ﴾ [ ص : ٢٠ ] .



النعجة فى اللغة لها ثلاث إطلاقات هى : أنثى الضأن ، أو الشاة الجبلية ، أو البقرة الوحشية ؛ كلها تسمى نعجة .

أى هو عنده ٩٩ نعجة ، وأنا ليس عندى إلا واحدة ، ومع ذلك أراد أن يأخذها منى .

وعزنى فى الخطاب أى غلبنى فى الخطاب والمحاجة ، حيث قال له : أنا عندى مراعى كثيرة وعنذى رعاة يراعونها مع غنمى فاتركها ترح وتسرح مع باقى الغنم ، ولا تتعب نفسك من أجل نعجة واحدة وبذلك غلبه فى الحججة والقاضى يحكم بالحجة .

والنبي ﷺ يقول : « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ممن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله وإنما أقطع له قطعة من النار » (١) . إذن .. القاضى يحكم للحجة الأقوى .

هنا سيدنا داود سمع الدعوى من طرف واحد وأصدر حكمه قبل أن يسمع الطرف الآخر . قال : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْتِكَ إِلَيْنَا نِعَاجِهِ ﴾ [ص : ٢٤] . وهذه زلة الحاكم ولذلك قالوا إذا جاءك من فقت عينه فلا تحكم له لأن الآخر ربما فقت عيناه .

هنا داود فى حكمه نسب الظلم إلى أحدهما بقوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْتِكَ إِلَيْنَا نِعَاجِهِ ﴾ فادخل شيئاً فى حيشة الحكم وليس من حيشته فهل لو لم يكن عنده (٩٩) نعجة أكان يحل له أن يأخذ منه نعجته ؟ لا يحل .

فقوله : ﴿ بِسُؤَالِ نَعْتِكَ إِلَيْنَا نِعَاجِهِ ﴾ لا دخل لها بالقضية لأنه ظالم وإن لم يكن عنده ولا نعجة .

---

(١) أخرجه البخارى [٢٦٨٠] .

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ ص : ٢٤ ] .  
أى أن الله اختبره بهذا الامتحان ليرفع درجته ، فوقع فى ثلاثة أخطاء  
« مطبات » أولها : أنه فزع وهو فى حضرة الله من خلق يدخلون عليه وخاف  
أن يقتلوه .

ثانيهما : أنه حكم فى الحكم حيثية ليس لها مدخل فى الموضوع ، والله  
بذلك يعلمه القضاء الحق .

ومعنى فتناه أى اختبرناه كما تفتن أنت الذهب على النار لتخلصه من  
العناصر الخبيثة ، فلما فهم هذا لم يتأب فاستغفر ربه من كل ذلك .

وكلمة « خر » تتناقض مع كلمة « راکعًا » لأن الركوع نصف الانحناء  
كما نفعل فى ركوع الصلاة بينما كلمة « خر » معناها سقط سقوطا لا إراديا  
على الأرض فالمعنى هنا يفيد أنه خر ساجدًا حالة كونه راکعًا قبل أن يسجد  
فهو استغفر ربه وخر ساجدًا من ركوعه وأناب أى رجع إلى الله فغفر الله له  
ذلك . ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ ﴾ [ ص : ٢٥ ] .

وما قيل فى هذه القصة عن حكاية داود عليه السلام حيث اتهموه اتهامات  
فظيعة منها أنهم قالوا عنه أنه رأى امرأة جميلة كانت زوجة قائد فى الجيش  
فأرسله فى حرب بعيدة حتى يخلو له الجو فهذه مصيبة فى العرض وهى  
أصعب من اتهامات المشركين لرسول الله ﷺ . بأنه ساحر ومجنون .

وهذا شىء لم يحدث لرسول من قبل فكيف نقول هذا الكلام عن داود  
عليه السلام من غير دليل ولا سند لما نقول .



## نبي الله سليمان عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ [ ص : ٣٠ ] .  
الوهب عطاء بلا مقابل ومع أن الخلفة كلها موهوبة من الله إلا أنه قد يهبه  
ذاتا لكن الصفات هبة أخرى من الله ، فكون سليمان يكون ملكا ويؤتاه الله  
ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فيسخر له الجن ويسخر له الريح إلى غير ذلك  
فهذا كله هبة من الله .

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى رجاع إلى الله كثير التوبة ، والرجوع إليه سبحانه ،  
ويأتى القرآن بحديثه هذا الأمر فيقول : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ  
الْجِيَادُ ﴾ [ ص : ٣١ ] . العرض معروف مثل العرض العسكري حيث يقف  
القائد ويستعرض القوات مثلاً والصفافات جمع صافن والصفان هو الجواد  
العريق .

ولعلكم تلاحظون ذلك فى الجياد العربية الأصيلة ، حيث تجد هذا الجواد  
لا يقف على أرجله الأربعة ، ولكن يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة على  
الحافر ، والجياد جمع جواد ، والجواد هو القوى السريع .

وهذا الاستعراض مثل العرض العسكري الذى يحدث فى عصرنا هذا .  
ولكن ماذا قال سليمان ؟ ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ  
بِالْحِجَابِ ﴾ [ ص : ٣٢ ] .

الخير هنا قالوا إنها الخيل لأن النبي ﷺ قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير  
إلى يوم القيامة » .



ولذلك أمرنا الله بالاستعداد للكفار الكارهين لمنهج الله حيث قال :  
﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ  
اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [ الأنفال : ٦٠ ] .

ورباط الخيل أى الخيل المربوطة للجهاد .

فسليمان لما عرضت عليه الخيل قال أنا أحب هذا الأمر فهو أحب الخيل  
لقوتها ومكانتها فى الحرب ، لا حبا صادرا عن ذكر الله تعالى ومنهجه لأن  
قوة هذه الخيل تستطيع أن تفرض منهج الله فى الأرض .

﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ حين يأتى الفاعل مستورا فلا بد له من مرجع  
فهنا الفعل ﴿ تَوَارَتْ ﴾ على أى شىء يدل؟

قالوا كلمة : ﴿ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ مشهورة فى الشمس حين تغيب أى أن  
عرض الخيل استمر حتى غابت الشمس فقالوا إن صلاة العشى فاتت سليمان  
لانشغاله باستعراض الخيل المسومة .

وقوله : ﴿ رُدُّوْهَا عَلَيَّ ﴾ أى أرجعوا الخيل لتمر من أمامى راجعة فى اتجاه  
الآخر .

وكلمة ﴿ فَطَفِقَ ﴾ معناها شرع .

﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [ ص : ٣٣ ] .

السوق على قوائم الفرس أى رجليه والأعناق جمع عنق وهى رقبة الفرس  
وعادة قوة الخيل تكون فى هاتين المكانين .

فسليمان سر من الخيل فأراد أن يكرمها بهذه العملية .

بعض الناس قالوا إن سليمان قتل الخيل وأخذ بذبحها لأنها ألهمته عن  
عبادة الله وهذا غير منطقي لأن الخيل لا ذنب لها فى ذلك بل هو الذى ألهاها

وشغلها - فهذا كلام تشييعه الاسرائيليات والعجيب أن من الإسرائيليات أشياء كثيرة تقدح فى نبوة الأنبياء فى بنى إسرائيل ، فهم يقدحون فى أنبيائهم وطبعا هذا كذب وافتراء منهم على أنبياء الله .

وقد بحثنا فى أسباب ذلك فوجدنا أن الذى يسرف على نفسه وهو تابع لدين يريد أن يلتمس فيمن جاءه بهذا الدين شيئًا من النقيصة حتى يكون مبررًا لانحرافه هو .

قال العلماء أن سليمان لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله خيرًا منها الريح غدوها شهر ورواحها شهر .



## فتنة سليمان

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] .  
الفتنة معناها الاختبار وهى غير مكروهة فى ذاتها ، ولكن السقوط فيها هو  
المكروه لأن من ينجح فيها فهو خير له .

فالحق سبحانه فتن سليمان كما فتن أباه فى قصة الذين تسوروا المحراب  
وهذه الفتنة كانت بالقاء جسد على كرسيه أى العرش الذى يجلس عليه ،  
والجسد هو قالب الكائن الحى ، لكن إذا قيل جسد فهو كما نقول جثة ليس  
فيه روح .

العلماء وقفوا فى هذه الآية ، فقالوا : إن داود كان عنده سليمان وولد آخر  
فاسد مثل ابن نوح الكافر فاحتال هذا الولد وعمل انقلابا على سليمان وأقصاه  
عن الملك وتولى هو الملك مدة طويلة ولما أراد الله أن ينيب سليمان جعل هذا  
الطاغية على كرسى عرشه جثة هامدة لا تتحرك .

فبعد أن كان يسيطر على ملكه لم يعد قادرا على السيطرة على نفسه ،  
وصار جسداً وبعد ذلك خرجت عليه رعيته فقتلته وجاء سليمان مكانه .

هذه واحدة ، والشىء الثانى أن سليمان كان عنده جواريه فقال : أنا سأمر  
الليلة على سبعين جارية ، وأتى من كل جارية بولد فارس يركب فرسه فى  
سبيل الله ، فالمسألة كلها خير ولكنه لم يقل إن شاء الله .

فلم يلد أحد من الجوارى إلا واحدة ولدت جسداً لا حركة فيه لأنه لم يقل  
إن شاء الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه ليعلمنا تقديم المشيئة : ﴿ وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ [٣٣] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿٦٦﴾ [الكهف] .

فسليمان لما لم يذكر المشيئة جازاه الله فلم تحمل إلا واحدة ووضعت جسداً لا حياة فيه هذه الثانية .

أما الثالثة : فقالوا إن الجن الذين تميز سليمان بأن سخرهم الله له يعملون له ما يشاء ، لما أنجب سليمان ولدًا قال الجن إن هذا الولد إذا كبر سيفعل بنا ما يفعل أبوه فالأفضل لنا أن نقتله ، فلما علم سليمان خاف على الولد ووضعه في السحاب يرضع من المزن بعيدا عن الجن ، فكأن سليمان أراد أن يفر من قدر الله . فبينما هو مشغول بمهماتہ إذ ألقى ذلك الولد ميتًا على كرسية فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب .

وقيل إن الجسد الذي ألقى على كرسى سليمان هو سليمان نفسه ، لأنه جلس على الكرسى يأمر وينهى فرمما يغرى هذا نفسه بعض الشيء ، فأراد الله أن يصحح خواطره في نفسه لأنه يريد له مهمة أعلى من التي هو فيها .

إن الله أراد أن يذكر سليمان بأن ما أعطاه له ليس ذاتيا ، ولكنه هبة من الله ويستطيع سبحانه أن يجعله لا يسيطر على نفسه هو ، ولا على غيره ويلقيه جسداً بلا حراك ، فمرت عليه لحظة لا يستطيع أن يحرك جسده ولا يقدر أن يأمر أمرا ، فعلم أنها ليست ذاتية فيه ولكنها موهوبة له .

ولذلك ركب سليمان البساط مرة وسار به الريح فشعر بشيء من الزهو فمال به البساط فكاد أن يقع من فوقه فقال له اعتدل يا بساط فقال له البساط « أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله » .

فعرف ذلك فما نسيه بعد ، وعندما أناب قال يارب لقد فعلت بي ذلك  
 لأننى ربما أغتررت بأننى ملك ورسول فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي  
 مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۗ ﴾ [ ص : ٣٥ ] إنه يطلب ملكا لا ينبغي لأحد .  
 ولذلك روى البخارى عن النبى ﷺ قال : إن عفريتا من الجن تفلت على  
 البارحة - أى إن الشيطان عرض لى وأنا أصلى وأراد أن يشغلنى عن  
 الصلاة - ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته ، فأردت أن أربطه إلى  
 سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى  
 سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۗ ﴾ .  
 ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ ص : ٣٦ ] .  
 هذه أول الأشياء التى لم تحدث من قبل .  
 فكانه يصبح أمرا والريح مأمورة ففهمت عنه أمره .  
 ﴿ وَاسْلَيْمَنَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا ﴾ [ سبأ : ١٢ ] .  
 قالوا أن الرياح لم تسخر كلها لسليمان ، ولكن سخر له ريح مخصوص أى  
 جزء من الرياح وظفه الله عند سليمان - فكان تحت إمرته .  
 والغدو هو الذهاب أول النهار ، والرواح هو العودة آخره .  
 فكان غدو الريح شهرا ورواحها شهرا . ﴿ وَاسْلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي  
 بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى أعطاه الله الريح العاصفة .تسير بأمره ،  
 وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض التى بارك الله فيها من صحراء  
 فلسطين حتى العراق ، فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له فى مملكته .  
 وقد جمع له الحق سبحانه فى الريح بين ما يعطيه السرعة إلى مراده وبين  
 ما يجعلها مريحة ناعمة هادئة لا تؤثر فى تكوينات جسمه .

لأن الريح العاصفة تعطى سرعة ، والريح اللينة تعطى راحة .  
 فتسخير الريح له يأمرها أن تهب فى الاتجاه الذى يريده ، فهى لا تهب على  
 مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها ولكن تهب على مراده هو وبأمره هو .  
 وكما ألان الله لداود الحديد ، أسال لابنه سليمان عين القطر وهو النحاس  
 فألان الحديد لداود وصهر النحاس لسليمان .

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [سبأ: ١٢] القطر هو النحاس المنصهر المذاب .  
 ﴿ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ ﴾ [سبأ: ١٢] . فالجن يعملون  
 معه بتسخير من الله لهم ، وليس من عند سليمان ، ومن يزرغ منهم عن  
 أمر الله يزيقه من عذاب جهنم فعملهم معه أمرهم به الله وسليمان يطلب  
 منهم صنع ما يريد من الأشياء .

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ  
 رَّاسِيَتٍ ﴾ [سبأ: ١٣] .

المحارِب جمع محراب وهو يطلق على المبنى الفخم الواسع الكبير كالقصر  
 مثلا أو يطلق على مكان العبادة ﴿ كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زِكْرِيآ الْمِحْرَابَ وَجَدَ  
 عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] . والتماثيل هو الصور المجسمة للأشياء .

وبعض العلماء يقولون إن هذه التماثيل كانت مباحة ثم حرمت بعد أن  
 عبدها الناس ، ولكن نحن نقول إن هذا لم يكن فى عهد سليمان ، لأنه جاء  
 بعد عهد إبراهيم عليه السلام الذى حطم الأصنام التى كان يعبدها قومه ،  
 فهى محرمة منذ عهد إبراهيم وسليمان جاء بعد هذا العصر فكيف يمتن الله  
 على سليمان بجعل الشياطين يصنعون له التماثيل المحرمة ؟

نقول إن التماثيل هنا قد تكون لغرض غير التعظيم والعبادة ولكن توضع فى موضع إهانة مثل تمثال واحد جبار منحن ويحمل البلكونة مثلا أو أسد على سور العمارة فهذا ليس تعظيما للتمثال ولكنه إهانة .

والجفان جمع جفنة هى التى نسميها القصعة ومعنى كالجواب أى كالحوض الواسع الكبير وهذا دليل على أنه كان يطعم أعدادا كبيرة من الناس . و ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ ﴾ هى القدور الضخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها لأنها قدور ضخمة تكفى لاطعام المئات من الناس . وراسيات أى أنها ثابتة فى مكانها لضخامتها فلا توضع على النار ثم تحمل بعد ذلك ولكنها ثابتة لا تنقل من مكانها .

مثل قدر المطعم به عدى الذى كان يستظل به الناس فى اليوم القائظ فى مكة مما يدل على كبر حجمها . ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُمُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ [ الأنبياء : ٨٢ ] .

الغوص هو النزول إلى أعماق البحر ، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه الموجودة فيه ... ويعملون أعمالا أخرى شاقة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها .

إن الناس دائما يخافون من الشياطين ، ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى الله هذه الشياطين بحيث أن الناس لا يرونهم ، وهم يعملون هذه الأعمال ولا يحسون بهم .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الجن المسخرين لسليمان ، كان هو وحده الذى يراهم ولا يراهم أحد غيره .

وأن المسخرون لسليمان ليسوا من المؤمنين إنما هم شياطين كفره .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب ابن إحداهما فقالت هذه لصاحبتهما إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال أئتوني بالسكين ، اشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى » (١) .

ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً فى شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال :

﴿ وَكَلَّا ءَايَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سأ : ١٤] . أى مادل الجن على موته .

إن من الأشياء التى سخرها الله لسليمان ليحقق له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، أن سخر له الريح وسخر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات .

وتسخير الجن معناه : أن الحق سبحانه سخر له أخف الخلق حركة وأخفاها وهم الجن لأن لهم طبيعة مخصوصة ﴿ إِنَّهُ يَرْزُقُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَعُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

ولهم خفة فى مزاولة الأعمال بأن يقصروا زمنها وأن يكثروا حملها وأراد الحق سبحانه فى مسألة موت سليمان أن يفضح الجن بأنهم لا يعلمون الغيب .

(١) أخرجه البخارى [٣٤٢٧] ، ومسلم [٢٠/١٧٢٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .



﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ تفيد هذه الآية أن الموت قضاء ، أى لا مندوحة عنه زمنا لا يترتب على مرض ولا على سبب ولذلك نقول : والموت من دون أسباب هو السبب - مات لأنه يموت ولذلك يخاطب الأحياء بما فيهم رسول الله ، فيقول له ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ أى انك تؤول إلى الموت وليس معناها إنك ميت الآن .. لا .. والذي يموت بالفعل لا يسمى ميتا - فنحن ونمن أحياء ميتون أى سنموت لكن عندما نريد أن نخبر بالموت حقيقة نقول ميتا وما الميت إلا ما إلى القبر يحمل إنما كلنا ميتون ولذلك عندما أرادوا أن يعطونا صورة حسية عن الموت قالوا - عندما جئت إلى الحياة انطلق معك سهم الموت وعمرك بقدر سفر ووصول السهم إليك متى سيصل ؟ لا نعرف فالموت سهم مرسل أرسل بالفعل وعمرك بقدر سفره إليك ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ وهو ما قضيناه من نهاية لكل حى : ﴿ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﴾ لم يعلم أحد بموته كيف ؟ لا بد أنه كان فى حالة لا تقوم إلا من الأحياء لأنه كان من شكره لله وضراوته له يظل عابداً لله ، وهو واقف ، والواقف كلما تعبت قدم أراحها بالثانية ، فإذا تعبت الاثنتان التمس ما يريحهما « المنسأة » أو العصا أتى بها واتكأ عليها .

حتى الجن لا يخافون إلا بأعينهم ، فعندما يرونه واقفا يعملون بنشاط جاء الموت وهم لا يزالون فى العمل والتعب ، ولأنهم يرونه واقفا لم يستطيعوا الكف عن العمل ، فكيف انكشف الأمر . إن من طبيعة سليمان أنه يعبد الله واقفا .

ولكن الله أراد للمسألة أن تنتهى ليقتضى بها على حقيقة شغلت الناس جميعا ، الجن والإنس .

لأن الجن عندما كانوا يتلصصون للسمع ، فيلتقطون بعض الكلمات كما أخبر النبي ﷺ : « إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

أى يضيفون إلى الكلمة التي سمعوها كلمات أخرى ، ثم يقولونها للناس ليقولوا عنهم إنهم يعلمون الغيب .

ولذلك ظل سليمان ميتا وهم يعملون ﴿ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ دابة الأرض التي تأرض وهي - العتة - التي تأتي في الخشب اسمها الأرضة والفعل منها أرض بأرض .

إذن .. فالأرضة هي التي أتت العصا من أسفلها ونخرتها ، والوقوع القسرى الذى لانظام له بقوله : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ ، وخرور الشيء لا نظام له فلما خر عرفت الجن والإنس بموت سليمان إذن الجن لم يمتازوا بشيء .

﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [ سبأ : ١٤ ] .

هذه المدة الماضية عندما كان واقفا وهم يعملون ؛ ولذلك افتضح أمرهم أمام أنفسهم لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب فأدركوا أنهم كانوا لا يعلمون إلا أشياء قليلة كانوا يسترقونها سمعا ، ولأنه يطرأ عليهم ما يطرأ على كل حى من التعب بالعمل .

وكان العمل الذى يقومون به عمل شاق وإهانة لهم ، لأنهم يظنون أن الجن تسامى على الإنس ، لقول أبيهم قديما : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ ص : ٧٦ ] .

وعندما يأتى واحد من الانس ويسخر الجن فهذا عذاب لهم ولنفرض أنه عمل غير مرهق بدنيا وإنما يرهق نفسيا لأن الجنس الذى ادعى التسامى يخدم عند أحدهم .

كيف يكون من يخدم الرسول من عذاب مهين ؟ نقول إنك أخذت الشبهة هذه من قول الجن ، فظننت أن الجن كلهم كانوا مسخرين له ، لا إن آية أخرى شرحت ذلك ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴾ [ ص : ٣٧ ] .  
المسخرون له ليسوا المؤمنين وإنما هم الشياطين .

ورغم جلاله قدر سليمان عند ربه إلا أنه قال سبحانه ﴿ خَرَّ ﴾ .  
وكأنما قطعة من جماد وقعت ، حتى يقول سبحانه أنه الروح التى أنفخها فيك هى التى تجعلك حيا ، إنما حينما تسلب فأنت كالعصى أو الحجر .  
لأنه من عظمة الروح فى النفس أنه بمجرد أن يأخذ الله سره فى هذه المادة ينسى اسم صاحبها هذا أول شىء فيسمى « الجثة » .

أين ذهب اسمه ؟ وبمجرد أن يضعوه فى النعش لا يقولون عليه جثة ، ويقولون الخشبة ثم يذهبون إلى مشواه الأخير .  
لأن الحياة قد كرمها الله بالروح ثم سحبها منها ، فإن أردتم مادتكم فاحفظوا بها ، ولن تحتفظوا بها ، وأحب الناس إليه وأعزهم هو الذى يسارع بدفنه لماذا ؟

لأنه يخشى أن تظهر له رائحة يشمها الناس ، فيتأذون منه ، فالحيب يسارع باخفاء ودفن جثته حبيبه قبل أن تتعفن .



## من نعم الله على سليمان عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْחَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ النمل : ١٥ ] .

الله سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام العلم ، وهو منهج الدين ، وعلم سليمان منطق الطير وألان لداود الحديد ، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ورغم كل هذه النعم لم يذكر الله إلا النعمة التي يجب أن يفرح بها المؤمن وهى العلم .

وانظروا إلى داود وسليمان حينما حمدا الله على فضله عليهما بالعلم حيث قالوا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أى أن هناك من الناس من هو أفضل منا ، وهذا تواضع الأنبياء والعلماء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ خُلُمًا مِّنْ طَيْرٍ وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [ النمل : ١٦ ] .

ومعنى كلمة : ﴿ وَوَرِثَ ﴾ أى بقيت النبوة فيه بعد أبيه ، و ﴿ مِّنْ طَيْرٍ ﴾ هو لغة التفاهم بينها ؛ لأن لكل خلق من خلق الله لغة يتفاهم بها ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ [ الأنعام : ٣٨ ] والعلماء يعكفون فى العصر الحاضر على معرفة لغات الحيوانات ، مثل : لغة النمل ، والنحل ، والسماك ، فهذه الحيوانات تتفاهم فيما بينها تفاهماً غريزياً . قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ؛ الأنبياء لا تورث ، ولكنه ورثه فى النبوة والدعوة إلى الله وتطبيق منهجه .

قال تعالى : ﴿ وَاسْتَلِمْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٨١ ] سليمان قد استفاد من تعليم الله لأبيه داود ، فأخذ هذه النعمة ، وزوده الله بنعم أخرى خاصة به ، فأعطى له الريح العاصفة تسير بأمره ، وينتقل بها من مكان إلى آخر في الأرض - التي بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق - فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له في مملكته .

وفي آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ ص : ٣٦ ] .

هنا الريح ﴿ رُخَاءً ﴾ ولينة وهناك الريح ﴿ عَاصِفَةً ﴾ ، فالريح العاصفة تعطى سرعة ، والريح اللينة تعطى راحة ، فكانها جمعت بين السرعة في عاصفة وبين اللين والنعومة في رخاء .

وهناك تسخير الشياطين أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٨٢ ] الغوص : هو النزول إلى أعماق البحر ، فالشياطين كانوا يغوصون في البحر ؛ ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه الموجودة فيه ، ويعملون أعمالاً أخرى شاقة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها .

ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [ سبأ : ١٣ ] وهذه الآية بينت قوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ . فهذا العمل في صناعة المحارِبِ والتماثيل والحِفَانِ - أى القصعة التي يأكل الناس فيها - وكلمة : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ تدل على أن

هذه الجفان واسعة وكبيرة ، تتسع لإطعام عشرات الرجال ، و ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ هي القدر الضخمة التي لا يمكن نقلها من مكانها .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَكْفِيْنَ ﴾ ؛ لأن الناس يخافون من الشياطين ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى الله هذه الشياطين بحيث إن الناس لا يرونهم وهم يعملون هذه الأعمال ، ولا يحسون بهم .

وقد بين القرآن الكريم أن الجن المسخرين لسليمان ، كان وحده الذي يراهم ولا يراهم أحد غيره ، ولذلك لم يشعروا بموته وهو يجلس متكئاً على عصاه وظلوا يعملون بجذ ظانين أنه يراقبهم فلما أكل السوس العصا ، وانكسرت وسقط سليمان على الأرض ؛ علمت الجن بموته ، وهذا يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتِهِ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبا : ١٤] .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٧] ، ما داموا حشروا فمعنى ذلك أنهم جمعوا من كل مكان ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧] ، والحشر في الآخرة يجمع الله الخلائق من كل مكان في الأرض إلى مكان الحشر .

لأن معنى الحشر هو : جمع الناس من أماكن متفرقة ؛ وسمى حشراً لأنك حين تجمع الناس في مكان واحد سيضيق بهم المكان ، فيحشرون فيه حشراً .

ومعنى قوله : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أى يمنعون ، ويروى : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن (١) . أى أن السلطان يمكنه أن يمنع الفساد بسلطته وقوته أكثر مما يمنعه الدعاة بخطبهم ومواعظهم ؛ لأنهم يستبطنون عذاب الله وعقابه لأنه آجل فى الآخرة ، ويخشون عقاب السلطان ؛ لأنه عاجل فى الدنيا ولذلك الأنبياء الملوك مثل داود وسليمان لم يعارضهم أحد ؛ لأن السلطان والقوة كانا فى أيديهم .

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنِكُمْ لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ [ النمل : ١٨ ] .

قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ ؛ يدل على أنهم جاءوا لهذا الوادي من أعلى الجبل ، وهذا ما تفيده كلمة : ﴿ عَلَىٰ ﴾ وربما كان المعنى : أتوا على كذا ، مثلما تقول : فلان أتى على الطعام ، كلمة أتى معناها : انتهى منه وأكله كله ، وعلى ذلك يكون المعنى : أنهم أتوا على الوادى ، أى قطعوه كله ، وكلا التفسيرين جائز .

والمعنى إنه لما مر سليمان بالوادى سمع تحذير النملة لقومها بأن يدخلوا مساكنهم ؛ خشية أن يحطمهم سليمان وجنوده دون أن يشعروا بهم ، وهذا يفيد أن هناك نملة كانت موكلة بمراقبة حركة المرور من وإلى وادى النمل وهذه مهمتها ؛ لأن النمل أمة منظمة وكل فرد له مهمة .

(١) ذكر ابن الأثير فى النهاية [١٨٠/٥] بلفظ : « من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن » . أى : من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن والله تعالى .

وقول الله تعالى : ﴿ فَنَبِّسَهُ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٩] : يدل على أنه سمعها ، فالنملة رأت قبل أن يوجد المرئي ، وسليمان سمع قبل أن يصل إلى وادي النمل ؛ سليمان عليه السلام تبسم ضاحكا ، أى بدأ بالبسمة التي قد تصل إلى الضحك ، وشعر بفضل الله الذي أنعم عليه هذه النعمة ، وقال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩] ؛ أى يا رب امنعنى أن أنسى فضلك على ؛ حتى أظل شاكراً حامداً لك ؛ لأن هذا نعمة فوق ما أنعمت به على عامة الخلق ، ونعمة فوق ما أنعمت به على من سبقنى من الأنبياء ، وفوق ما أنعمت به على الملوك ، فهو أكثر من الملوك ؛ لأن الله أعطاه الملك مع النبوة ، وإن كان نبينا محمد رفض أن يكون ملكا .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ فكأن الفضل والرحمة من الله هما اللذان يفرح بهما الإنسان ؛ لأنهما اللذان سيدخلانه فى عباد الله الصالحين ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضلٍ ورحمة » (١) .

وذلك قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ، فإياك أن تغتر أو تفرح بعملك ولكن افرح بفضل الله ورحمته .

(١) أخرجه البخارى [٥٦٧٣] ، ومسلم [٧٥/٢٨١٦] واللفظ له . عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .



وقول سليمان عليه السلام : ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنْ الْفَكَّارِينَ ﴾ ساعة يستفهم واحد عن شئ جوابه عند نفسه لا يكون هذا استفهاماً ؛ لأنه يقول : ما لي لا أرى الهدود ، كأن قد استبعد أولاً أن أحداً يتخلف عن مجلسه ، فهو استفهم أولاً ثم تيقن أنه غائب ، فقال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَّارِينَ ﴾ .

وما دام كان من الغائبين ، لا بد له من الجزاء ؛ لأن أى مخالفة لا تقابل بجزاء تثمر مخالفات متعددة ، فساعة ترى موظفاً خالف فى عمله ، وانحرف عن الحق ولم يحاسبه أحد ، ماذا يحدث ؟ كل زملائه سيحاولون الاقتداء به ، ويكون قدوة سيئة لغيره ، ويستشرى الفساد والانحراف ، لكن لو أن أول واحد خالف أخذ على يده يكون عبرة لغيره وتنتهى المسألة .

والهدود لما كان غيابه بدون إذن من سليمان ، قال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّكُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ٢١] ؛ هذا ليس جبروتاً من سليمان ولكنه حزم ، ومع ذلك علق أمر العقوبة على حجة الهدود ، مما يستخلص منه أن المرعوس إن رأى خيراً يخدم فكرة رئيسه ويخدم الفكر العام ، وكان الوقت ضيقاً لا ينتظر حتى يأخذ الإذن أو الأمر ، بل يتصرف ثم يخبر رئيسه بها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : ٢٢] ؛ مكث معناها : بقى أو انتظر ، ولكن الهدود لم يغب طويلاً ؛ لأنه خاف من غيابه عن مجلس سليمان بدون علمه .



من دون الله ، ولماذا لا يعبدون الله الذى يخرج الخبء فى الأرض ؟ كيف لا يعبدون المنعم عليهم بكل النعم .

والذى أحزن الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون الله ؛ ولذلك قال مستنكراً فعلهم : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والهدهد خلال طيرانه فى قصر بلقيس رأى كوة أو طاقة تدخل منها الشمس ، مبنية بشكل هندسى بحيث تدخل منها الشمس كل يوم بعد شروقها ، فتتنبه بلقيس وتستقبلها بالسجود ؛ ولذلك حينما ذهب الهدهد بكتاب سليمان إليهم ، وقف فى الطاقة وسدها بجناحيه ، فانتظرت بلقيس دخول شعاع الشمس وارتفاعها ، فصعدت إلى الطاقة لترى ما بها فطار . ثم يقول بعد ذلك : ﴿ أَذْهَبَ بِكَيْتَابِي هَكَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٨] هذا معناه أن سليمان فكر فى الأمر وقال : نكتب لها كتاباً ونرسله مع الهدهد ؛ حتى يتأكد من الرد ويعرف أبعاد الموقف .

ومعنى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى أبعد عنهم قليلاً وانظر ماذا يفعلون ، لأنهم سيراجعون بعضهم البعض ؛ لأن معنى : ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ أى يراجع بعضهم بعضاً ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَفَلَا يَرْؤْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه : ٨٩] فالمعنى : ساعة تلقى إليهم الكتاب انظر ماذا يقول القوم ، وماذا تقول ملكتهم دون أن يروك وأخبرنى بذلك .

يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّي أَخْلَقِي إِلَيْكُمْ كِتَابًا كَرِيمًا ﴾ [النمل : ٢٩] الهدهد أخذ الكتاب وطار إلى سبأ ، وذهب إلى بلقيس ، وألقى إليها

الكتاب ، فلما قرأته قالت : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓآءِ إِنِّيٓ أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ۝١ ﴾<sup>(١)</sup> و ﴿ الْمَلَأُوٓآءِ ﴾ هم أعيان القوم وأشرفهم والمستشارون عند الملكة بلقيس ، ووصفت كتاب سليمان بأنه : ﴿ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴾ فهل كانت تسمع عن سليمان ؟ أو لأن الخطاب بهرها بخطه الجميل وورقة الراقى وختمه الغريب . وبعد ذلك قالت : ﴿ إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢٠ أَلَّا تَعْلَمُوٓآ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٢١ ﴾ [ النمل ] .

وهذا يدل على أنها كانت تعرف حكاية سليمان وأنه ملك ونبي .. إلخ ، وانظروا إلى كتاب سليمان وإيجازه الشديد حيث يقول : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلَمُوٓآ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فنص الخطاب عبارة عن برقية موجزة . كلمة : ﴿ تَعْلَمُوٓآ ﴾ أى : تنظرسون وتظنون أنفسكم ملوكاً ، وتزهون بما عندكم من ملك ولا تستجيبون لدعوتى ، فإياكم وهذا تعالى والتكبر ؛ مثلما نقول : « هى كلمة واحدة » . بلقيس حينما ألقى إليها الخطاب وقرأته ، جمعت الملاء وقالت لهم : لقد وصلنى كتاب من سليمان ونصه كذا وكذا ، وبعد ذلك طلبت مشورتهم وأن يشيروا عليها بما تفعل فقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓآءِ أَفَتُونِي فِيٓ أَمْرِيٓ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ ﴾ [ النمل : ٣٢ ] . قال تعالى : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَبْسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ ﴾ [ النمل : ٣٣ ] .

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : قالت يا أيها املاء انى ألقى إلى كتاب كريم : وفى صفتها الكتاب أنه كريم ، أربعة أوجه :  
أحدهما : لأنه مختوم ، قاله السدى .  
الثانى : لحسن ما فيه ، قاله قتادة  
الثالث : لكرم صاحبه وأنه كان ملكاً ، حكاه ابن بحر .

فقالوا لها : نحن جاهزون للحرب وعندنا القوة ، والبأس ، والعدد ، والعدة ،  
والجيش القوى ، والأمر إليك أن أردت السلم فقولى لنا ماذا تريدن ، ونحن  
نفذ ما تأمرين به .

ولكن المرأة كانت عاقلة فلم تغتر بالقوة ، وحذرت قومها من دمار الحرب  
وآثارها ، فردت عليهم بقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً  
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [ النمل : ٣٤ ] .  
لأن الذى جاء ليأخذ الملك يريد أن يأخذ المالكين ، وينهب كل ما عندهم ؛  
لأنه ساعة يصل إلى مكان القوم لا يضمن أن ينتصر عليهم ، فيخرب ما  
يستطيع تخريبه من ممتلكاتهم ، ولا يحافظ على شيء إلا بعد أن يضمن  
استقرار الأمور له .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً ﴾ كلام صحيح ؛ لأنك إذا  
نظرت إلى أى حاكم يستولى على الحكم بعد حاكم آخر ، أو أى نظام  
يخلف نظاماً فى الحكم ، تجد الانتقام يكون من الحاكمين السابقين ، وإلصاق  
شتى التهم بهم من فساد وغيره ؛ لأن الحكم الجديد قام على أنقاضهم ، وبين  
النظامين لدد وخصومة (١) .

= الرابع : لتسخير الهدهد به بحمد .

ويحتمل الخامس : لإلقائه عليها عالياً من نحو السماء .

(١) قال الطبرى : يقول تعالى ذكره : قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذ عرضوا عليها  
أنفسهم لقتال سليمان إن أمرتهم بذلك : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً  
عَنوةً وَغلبةً ﴾ أفسدوها ﴿ يقول : خربوها ﴾ وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً ﴿ وذلك  
باستبعادهم الأحرار ، واسترقاقهم إياهم ، وتناهى الخبر منها عن الملوك فى هذا  
الموضع ، فقال الله : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : وكما قالت  
صاحبة سبأ تفعل الملوك إذا دخلوا قرية عنوة . تفسير الطبرى [ ١٥٤/١٩ ] .

من نعم الله على سليمان عليه السلام ٣٧٥



ومعنى : ﴿ أَذَلَّةٌ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى يخرجهم من الملك أذلة لأنهم كانوا ملوكاً ، وسلب منهم الملك فصاروا أذلة ، والصغار يكون بالأسر أو القتل .  
ثم التفت سليمان حوله وقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيْكُمُ يَا بَنِي بَعْرَئِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْكَ مُسْلِمِينَ ﴾ [ النمل : ٣٨ ] .

هذه أيضاً من إلهامات النبوة ، فكأن الله أعلمه أن القوم بعد أن رد إليهم هديتهم ، سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه ، فكأنه قد علم أنهم سيأتون إليه ، فأراد أن يرسل من يذهب إلى سبأ ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه ، ولأن هذا الأمر صعب التحقيق ويتطلب قدرات خاصة ؛ لذلك لم يتكلم إنسان عادى ؛ لأن هذا ليس فى استطاعته ؛ لأن القوم فى طريقهم إلى سليمان .

ومطلوب من الذى يقوم بهذه المهمة أن يذهب إلى سبأ ، ويحمل العرش ، ويعود به إلى سليمان قبل أن يصل القوم إليه ، فهذه مهمة شاقة لا يقدر عليها إنسان عادى ، لذلك لم يتكلم الإنس العادى ؛ لأن هذه مسألة ليست فى قدرته ولم يتكلم الجن العادى ؛ لأنها أيضاً فوق قدرته .

إنما الذى تكلم عفريت من الجن ، قال العفريت : ﴿ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [ النمل : ٣٩ ] .

هنا القرآن لم يخبرنا أن أحداً آخر تكلم فى هذا الموضوع إلا بالوصف حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [ النمل : ٤٠ ] .

العلماء قالوا : من الذى عنده علم من الكتاب ؟

أولاً : ما هو الكتاب ؟ قالوا : هو اللوح المحفوظ يعلم الله فيه بعض خلقه أسرار الكون ، فإذا كان العفريت - وهو مكلف - يستطيع أن يأتي به إليه قبل أن يقوم من مجلسه ، فالذى عنده علم من الكتاب أسرع منه ؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن بدليل أنه قال : ﴿ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ، والطرف يرتد في أقل من كلمة .

بعض العلماء قالوا : إن هذا الرجل هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أعطاه الله من أسرار قوته .

وآخرون قالوا : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، فكأن العفريت لما قال له : ﴿ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

فهو إذن .. سليمان ، لماذا ؟ قالوا : لأنه لو كان هذا الرجل واحداً غير سليمان ، فمعنى هذا أن له تفوقاً فى معرفة الكتاب قبل سليمان .

ورد بعض العلماء على ذلك بقولهم : إن هذه عظمة لسليمان ؛ لأنه فوق من يعرف هذا العلم ، والمزايا لا تقتضى إلا فضيلة ؛ لأن هذا الرجل مع ما عنده من علم بأسرار الكون سخره الله لخدمة سليمان .

وليس بالضرورة أن يكون الرجل العظيم عارفاً بكل شىء ، فلا يمكن أن نطلب من الملك أن يكون ماهراً فى بعض ما يجيده الصبية فى الصناعات اليدوية مثلاً .

فمن عظمة سليمان أن الله سخر له كل هؤلاء .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .



العرش جاء واستقر عند سليمان فأمر بنصبه وتجهيزه ؛ لأن بلقيس قادمة إليه فى الطريق ، وهو يريد أن يختبرها اختباراً عقلياً واختباراً إيمانياً ، فأمر بأن ينكروا عرشها ، فقال لهم : ﴿ قَالَ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [ النمل : ٤١ ] .

هنا بلقيس أجابت إجابة دبلوماسية كما قلنا فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وقول سليمان : ﴿ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ أى أتهتدى إلى جواب يجمع الأمرين فى المنكر - وهو عرشها - أو تهتدى إلى أن الذى صنع ذلك إنما يكون مؤيداً من الله بأسرار الكتاب ؛ فنقل العرش بهذه السرعة فتؤمن أم تكون من الذين لا يهتدون فلما قيل لها : أهكذا عرشك قالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وقول الله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ إن كان هذا الكلام تكلمه بلقيس <sup>(١)</sup> ، فمعناه أنها أوتيت العلم قبل هذه الحادثة ، وعلمت أنه نبي خاصة بعد أن رد الهدية الثمينة ، وقال لهم : بل أنتم بهديتكم تفرحون . إلى آخر هذه المواقف ، فكأنها تقول له : نحن عرفنا قبل هذه الحادثة أنك نبي وأسلمنا . أو أن الكلام كلام سليمان عليه السلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [ النمل : ٤٣ ] .

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس ، أى أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ مناقدين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان ، أى أوتينا العلم بقدره الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والقول الثانى أرجح من سائر الأقوال . فتح القدير [١٣٧/٤] .

أى أن سليمان بما صنع من أحداث صدها عما كانت تعبد من دون الله ؛  
لأنها كانت من قوم كافرين .

وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ ﴾ [النمل : ٤٤] .

ومعنى الصرح إما أن يكون القصر المشيد وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملك ، وإما أن يكون مثل إيوان الأكاسرة مثلاً ، لما جاءت لتدخل الصرح وجدت أمامها ماء فيه سمك ، فظنت ذلك ماء يريد سليمان أن يفرقها فيه ، فرفعت ثيابها وكشفت عن ساقها ، فمعنى ذلك أنها فهمت أن هذا ماء ؛ لأن سليمان قد بناه من زجاج مثل الكريستال ، ووضع تحته ماء وأسماكاً فهى ظنته ماء فشمرت ثوبها ؛ حتى لا يبتل فقال سليمان : ادخلى فهذا صرح م مهد من الزجاج ، فماذا كان ردها ؟ ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] . ظلمت نفسها فى ماذا ؟ الكفر أولاً .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُانَ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَأَلَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ . كلمة تدل على أن هناك خصومة فى قضية الحرث .

وقصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان عليهما السلام ، أن رجلاً عنده زرع ورجل عنده غنم ، فراعى الغنم غفل عن غنمه فهربت إلى الزرع وأكلته . صاحب الزرع اشتكى لنبى الله داود ، وداود لأول وهلة قال لصاحب الغنم : أعط الغنم لصاحب الأرض وانصرف . فى هذا الوقت كان عمر سليمان

أحد عشر عاماً ، فلما خرج الراعى وصاحب الأرض من عند داود قال لهما :  
ماذا قضى أبى ؟ قالوا له : قضى بأن يأخذ صاحب الأرض الغنم .  
وتأويل ذلك : ربما وجد داود أن قيمة الزرع الذى أكلته الغنم ، يساوى  
قيمة الغنم ، فحكم هذا الحكم .

لما قص الرجلان قصتهما على سليمان لم يقل هذا ظلم أو جور ، ولكن  
قال : هناك حل أرفق .. فلما قال هذا الكلام وبلغ داود أرسل إليه ، وقال له :  
ما هو الأرفق الذى تراه فى هذه القضية ؟ قال له : نعطي الغنم لصاحب الزرع ،  
فيستفيد بلبنها وأصوافها ، ونترك صاحب الغنم يزرع الأرض حتى تثمر ،  
وتصبح كما كانت قبل اعتداء الغنم عليها ، وعندئذ يأخذ صاحب الغنم  
غنمه ، ويأخذ صاحب الأرض أرضه .

فربنا هو الذى أفهم حل هذه المسألة لسليمان ، وهذا ليس طعناً فى داود ؛  
لأن الله أتى كل واحد منهما حكماً وعلماً .

كأن الله سبحانه يريد أن يبين لنا كيف كانت قداسة كلمة السماء مع كل  
أهل الأرض وهذه القصة أخذت بها القوانين الوضعية ومحاكم الدرجة الأولى  
والثانية والاستئناف والنقض فإياك أن تفهم أن محكمة الاستئناف حين ترد  
حكم محكمة الدرجة الأولى أنها تطعن فيه ، لا ، ولكنها رأت القضية من  
جانب آخر غير الذى أخذت به المحكمة الأخرى .

إذن .. الاستئناف مأخوذ من قول الله سبحانه ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ،  
وليس هناك طعن فى أحد ، فالذى عدل لداود ابنه سليمان ، ولا أحد يحب  
أن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه .



## نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام (١)

زكريا هو الذي كفل مريم وقام على خدمتها ؛ وكأن الله تعالى اختاره لهذه المهمة ؛ لأن القوم حينما تسابقوا إلى كفالة مريم واستهموا على ذلك ، كان هذا الشرف من نصيب زكريا عليه السلام .

(١) هو نبي الله زكريا بن برخيا ، ويقال ابن دان ، ويقال : ابن لدن ، بن مسلم ابن صدوق ابن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة ، ينتهي نسبه إلى سليمان ابن داود عليهما السلام . هو أبو يحيى النبي سمي الله ، عليهما السلام ، وقد قيل غير ذلك في نسبه .

انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر [٣٨١/٥] ، وقصص الأنبياء لابن كثير [٥٩٥] . وهو الذي كفل مريم ابنة عمران أم نبي الله عيسى عليهما السلام ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها ، فعلم أن الرازق للشئ في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدأ ، وإن كان قد طعن في السن ، وكانت امرأته عاقراً . فدعا ربه خفية ، فرزقه الولد ووهب له يحيى لم يكن له من قبل سميا ، فورثه في النبوة والحكم في بني إسرائيل .

واختلفت الرواية : هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً ، على روايتين فقييل : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أن ، فأوحى الله إليه : لعن لم يسكن أنينك لأقلمن الأرض ومن عليها . فأما زكريا فمات موتاً . فالله أعلم . [ قصص الأنبياء : ٦٠٣ ] .  
وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » .

أخرجه مسلم [ ٢٣٧٩ ] .

وقال ابن كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَلْنَا زَكْرِيَّا ﴾ أى بسبب غلبه لهم في القرعة كما تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَنَهُمْ آيُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ آل عمران : ٤٤ ] =

انظروا .. الناس كانت تتسابق في الخير ، وكانوا يفهمون أن كفالة مريم شرف كبير ، فضربوا قرعة على هذا الأمر ، فجاءوا بالأقلام وألقوها في البحر ، والقلم الذي يطفو هو الذي يكفل صاحبه مريم . وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] مما يدل على أنهم فهموا أن كفالة مريم شرف كبير يسعى إليه كل إنسان ، ولا يصح لأحد أن يناله دون اقتراع ، والقرعة هي وزن للمسائل حتى لا يغضب أحد .

وكان زكريا كلما دخل على مريم يجد عندها رزقا لم يأت به هو ؛ فيستغرب ، ويسألها : من أين أتاه هذا الرزق ؟ فتخبره أنه من عند الله وذلك قول الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا

= قالوا : وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفا به . ثم حملوها ووضعوها في موضع ، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحدا منها وظهر قلم زكريا عليه السلام ، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر ، فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه الماء فهو الغالب ، ففعلوها فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب ، ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدرأ لوجوه عديدة .

وقال القرطبي : كان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في القبيظ ، وفاكهة القبيظ في الشتاء فقال : ﴿ قَالَ يَتَمَرِّمُ أَنَّ لَسِبَ هَذَا ﴾ ؟ فقالت : ﴿ هُوَ مِن عِنْدِ اللَّهِ ﴾ .

تفسير القرطبي [٧١/٤] .

قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨٤﴾ .

وهذا يعلمنا أن الإنسان المسئول عن الإنفاق على أهل بيته إذا وجد شيئاً في البيت لم يحضره هو ، عليه أن يسأل : من أين جاء هذا الشيء ؟ لأنه ربما يكون أتى من طريق غير شرعى ؛ لأنه هو المسئول عن أهل بيته ، والله سبحانه سائله عنهم وعليه أن يغض بصره عن هذه الأشياء ؛ لأنها مداخل الشر ، وهذا ما نسميه بقانون : « من أين لك هذا » . فهذا القانون لم يهتد الناس إليه إلا بعد أن شقوا وعانوا من المفسدين والمرتشين واللصوص وقد سبق الإسلام فيه الناس جميعاً .

فلما دخل زكريا ووجد الرزق المنوع عند مريم ، وقالت له عن مصدره : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

هنا تساءل زكريا : كيف فاتنى هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [ آل عمران : ٣٨ ] . ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وإنه الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، وأيقظت فيه القضية الإيمانية ، قال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، وكونه قال ذلك ، فمعنى هذا أن زكريا صدق مريم فى قولها بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر فى التصديق هو أنه لا بد وقد رأى أن الأشياء التى توجد عند مريم ليست فى بيته وليست فى زمانه ، إنها أشياء متعددة ، إنه يدخل عليها الحراب وكلما دخل وجد عندها رزقا .



إذن .. شفقة بالولد لأنه لم يأمن القوم الذين يأتون من بعده وهم مواليه من عمومته أو أبناء عمومته لأنهم كانوا أشرار فلا يأمنهم على حماية منهج الله من الإفساد فهو يريد ولدًا صالحًا يأمنه على حمل منهج الله من بعده .  
 وكلمة يرثني يفهم منها الناس أنها وراثة المال ، ولكن الأنبياء لا يورثون ، فالنبي ﷺ يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » (١) حتى تكون دعوته خالصة لوجه الله فلا يستفيد أبناءهم من بعدهم ولا حتى أقاربهم .

فالإرث هنا ليس المقصود به المال ولكنها وراثة الدين والعلم الذي كان في آل يعقوب .

وحديث النداء : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ ، الوهن هو الضعف ، وكلمة : ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ نحن نعرف أن لكل شيء من الأشياء قوامًا في الصلابة والقوة ، إن كلمة ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ معناها : ياربى لم يبق عندي إلا المخزن الأخير لاستبقاء الحياة ، وهذا أمر مدفون لأنه مغطى بالجلد ومتوارى تحت الثياب فجاء بأمر ظاهر وواضح فقال : ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ومعناه أى أبيض شعر رأسه وشبهه باشتعال النار ، وهو دليل ثان على الضعف أى أنه فى منتهى الضعف ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ . أى لم أكن فيما مضى شقيا بدعائى لك لأنى مستجاب الدعوة عندك فكما أكرمتنى سابقًا ففى هذه المرة لا تخلف عادتك معى .

وزكريا جاء بأمر خاص به ونحن نعلم أن التكاثر فى الجنس البشرى ينشأ من رجل وامرأة ، فقال له يا رب العيب منى ومن زوجتى فأنا وهن العظم منى

(١) ذكره الحافظ فى الفتح [٩/١٢] وعزاه للنسائى ، والحميدى .



واشتعل الرأس شيبًا وزوجتي عاقر لا تلد ، سواء لا تلد من أول الأمر أو أنها صارت عاقراً بسبب بلوغها سن اليأس . والقرآن الكريم تناول هذه القصة في أكثر من موضع ، فمرة يقول عن زكريا ﴿ وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ ومرة يقول : ﴿ بَلَغَنِ الْكِبَرُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] وأي مرة يسند البلوغ لنفسه وأخرى يسنده للكبير ، ولذلك بعض من لا يفهمون أساليب القرآن يعترضون على هذا التنوع لأنهم لا يملكون الأسلوب العلمي .

هناك فرق بين الأسلوبين هو والكبير سيتلاقيان ، ولكن هذا التلاقي قد يكون بسبب منك باسرافك على نفسك في طفولتك وشبابك حتى تضيق صحتك وبذلك تكون أنت الذى ذهبت للكبير ، هذه واحدة ، والمرة الأخرى يكون الإنسان يعيش عاديا وأخذ دورة حياته حتى جاءه الكبر مثل كل الناس ، وزكريا من هذا النوع الأخير .

ولذلك يقال من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته ، فزكريا من النوع الأخير لأنه لم يسرف على نفسه ، ولكنه شغلها بالطاعة والعبادة .  
وقوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥] لماذا لم يقل أعطنى ؟ قالوا : لأن العطاء قد يكون عن مقابل لكن الهبة تكون بدون مقابل ، فهو طلب الولد هبة من الله لأن الأسباب معطلة عنده فإن أعطاه الله فهذه هبة منه سبحانه .

﴿ فَنادتُ الْمَلَكَةَ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا .. لأن جبريل عليه السلام الذى ناداه ، ولماذا جاء

القول الحق هنا بأن الملائكة هي التي نادته ؟ لأن الصوت قد جاء لذكريا من جميع الجهات .

لقد نادته الملائكة وهو فى أروع لقاءاته مع ربه ، فحينما دعا ربه أخذ ما علمه الله للأنبياء قبله إذا حزبه أمر قاموا إلى الصلاة .

وهو على هذه الحالة من الخشوع والحضور وإقامة الصلاة استجيب لطلبه . قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ [ آل عمران : ٣٨ ] والبشارة هي إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كان الله هو الذى يبشر فهو الذى يقدر ؛ لذلك المبشر به قادم لا محالة ، لقد قال له الله سأعطيك وزيادة على العطاء سماه الله بـ « يحيى » .

وقوله تعالى : ﴿ يَنْزِكْرِنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [ مريم : ٧ ] ، وكلمة السمي اختلف العلماء فى معناها فقالوا لم نجعل له سميا أى نظيرا ، ومثلا وشبيها .

ولكن المعنى الأقرب هنا ، لم نجعل له من قبل سميا أى واحدا على اسمه ، والناس يقولون فلان سمي فلان أى أن اسمه على اسمه ، يعنى اسم كل واحد منهما مثل اسم الآخر .

فهذا أول اسم وضعه الله لابن ذكريا ولم يكن أحد قبل ذلك قد سمي يحيى ، وفوق كل ذلك ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [ آل عمران : ٣٩ ] ولننظر إلى دقة البلاغ فى قوله : ﴿ يَحْيَى مُصَدِّقًا ﴾ هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله ، ودليل على أنه سيعمل الطاعات وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ؛ فهو عليه السلام أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام .



عتيا ، فهو دعا ربه أن يمنحه مولوداً يرث النبوة ، فلما بشرته الملائكة أن الله سيهبه غلاماً اسمه يحيى ، تعجب من هذا الأمر واستغرب كيف يعطيه الله غلاماً ؟!

وهو الذى تقدم به العمر وامرأته ، لم يصدق البشرى من فرط سعادته ، فأراد أن يتأكد منها ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنِّي آمَرًا قَاعِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [ مريم : ٨ ] .

فأوحى إليه أن يطرح الأسباب التى عرفها ؛ لأن الذى يكلمه هو الخالق عز وجل ، الذى قال له : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ ، ولكن من أين تعلم زكريا أن الله يعطى وإن عزت الأسباب ؟ عرف هذا لأنه كان موصولاً بالله عز وجل واستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء زكريا ووهبه يحيى قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٩٠ ] .

فالله سبحانه وهب لزكريا غلاماً رغم تعطل الأسباب ، وفوق ذلك هو الذى سماه ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ ، إن لله سرا فى هذه التسمية .

﴿ يَحْيَىٰ ﴾ شاء له الله أن يموت شهيداً ؛ حتى يظل حياً وكلمة : ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ : معناها أن المولود لم يجرى عن طريق القانون التكويني للناس ، ولكن جاء هبة من الله رغم كبر والده وعقم أمه (١) .

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال : أما بعد فإنني أوصيكم بتقوى الله ، وتثبوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالهبة ، وتجمعوا الإلخاف بالمسألة ؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾

تفسير ابن كثير [١٨٩/٣] .

نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام ٣٩٠



فعل ، لماذا يطلب علامة إذا كان الله قد : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [ مريم : ٩٠ ] .

لقد كان هذا القول تأكيداً لا شك فيه ، فبمجرد أن قال الرب انتهى الأمر ، فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب : ﴿ ءَايَةٌ ﴾ أى علامة على أن : ﴿ يَحْيَى ﴾ قد تم إيجاده فى رحم أمه ، فكانت استغاثة زكريا : يا رب لا تتركنى أفهم بالعلامات الظاهرة المحسوسة ؛ لأننى أريد أن أعيش فى إطار الشكر لك عليه ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لا بد أن أحيا فى نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد أتت وأنا غير شاكر ، إنه يطلب ﴿ ءَايَةٌ ﴾ ليعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب ﴿ ءَايَةٌ ﴾ عن شك فى قدرة الله ، معاذ الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها .



## نبي الله عيسى عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [ آل عمران : ٣٣ ] .

نحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام هو : « أبو الأنبياء » ومن آل إبراهيم ، اصطفاه الله تعالى من ضمن ما اصطفى آل عمران ، وكلمة « عمران » ترد في القرآن اسم لشخصين :

الأول : « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام .

والثاني : « عمران » والد السيدة مريم عليها السلام .

« عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام كان اسم أبيه « يصهر » واسم جده « قاهت » ومن بعده « لاوى » ومن بعده « يعقوب » ومن بعده « إسحاق » ومن بعده « إبراهيم » .

وقد حصل إشكال عند عدد من الدارسين وهو أى العمرانين ذكره الله تعالى

هنا ؟

ولما اختلفوا لم يفتنوا إلى أن القرآن قد أعطى الهوية والمعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون ، بل عمران والد مريم أم عيسى عليهم السلام<sup>(١)</sup> .

(١) قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام . قصص الأنبياء [ ٦١٠-٦١١ ] .

وعمران والد مريم هو بن ماثان وهو من نسل سليمان ، وسليمان ابن داود ،  
وداود من إيشا ، وإيشا من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحاق ،  
هو ابن أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، لذلك كان على  
المختلفين أن يفتنوا إلى اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك فيعلموا أنه عمران  
والد مريم .

ويجب أن نفتن أيضًا إل الذي كفلها كان اسم والده « دان » ويقال  
« لدن » وكان معاصرًا « لماثان » .

إذن .. يكون المراد بعمران والد مريم والذي زاد من حيرة المختلفين هو وجود  
أخت لموسى وهارون كان اسمها مريم لأنهم كانوا فى هذا الزمن يتفاءلون  
باسم مريم لأن معناه العبادة ، ولذلك لما بعث النبي ﷺ المغيرة بن شعبة إلى  
نجران فقالوا له أستم تقرأون وتقولون : ﴿ يَتَأَخَّتْ هَارُونَ ﴾ [ مريم : ٢٨ ] ،  
وقد كان بين موسى وعيسى مدة تبلغ أحد عشر جيلًا ؟ فكيف يتأتى هذا ؟  
فلم يدر ما يجيبهم به فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال له النبي ﷺ :  
« ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم »<sup>(١)</sup> .

أى : أنهم كانوا يتفاءلون بأسماء الأنبياء ، فالمسألة تشابه فى الأسماء فقط  
إنها بنت عمران ، ولكنه ليس عمران أبا موسى .. وأخت هارون ، وليس  
هارون أخا موسى عليهما السلام .

وعندما نقول : اصطفت كذا على كذا فمعنى ذلك أنه كان من الممكن  
أن يصطفى واحدًا على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بقوله : ﴿ عَلَى  
الْعَلَمِينَ ﴾ [ آل عمران : ٣٣ ] ، أى : على عالمى زمانهم إنهم كانوا موجودين

(١) أخرجه مسلم [٢١٣٥] ، والترمذى [٣١٥٥] ، وأحمد فى المسند [٢٥٢/٤] عن  
المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه .



وقد اصطفى منهم واحدًا أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ،  
إننا نتكلم عن عالمهم الموجود فى زمانهم .

وقوله : ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ يجب أن نعلم هل المقصود بذلك  
الأنساب أم الدين والقيم ؟ خاصة أن الحق سبحانه قد علمنا فى مسألة إبراهيم  
أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها وإنما الأنساب المعترف بها  
بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ  
إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ ،  
فأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه : ﴿ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .  
لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى والمتبع والأسوة ، إذن .. فالمسألة ليست وراثه  
الدم .

إذن .. فنحن نفهم قول الحق سبحانه : ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ على أنها  
ذرية فى توارثها للقيم ، مصداق ذلك فى قوله تعالى : ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ  
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ  
سُوءًا اللَّهُ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

أى : إن هذا النفاق ليس أمرًا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها  
أمور قيمية ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : إن الله  
يعلم الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا ويجازى عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا  
فشر .

﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي  
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

وكلمة : ﴿ نَذَرْتُ ﴾ إن امرأة عمران كانت تقيه وورعة ، ولكنها ليست  
مجبرة على النذر ، وفعلت ذلك - وهو أمر زائد - من أجل خدمة بيت الله ،

وما دامت امرأة عمران قد نذرت ما فى بطنها محرراً ، فهذا يدل على حبها لربها جل وعلا ، لأن النذر كما نعلم يظهر حب العبد لربه ولأوامره ، فإنك لو لم تحب ربك لما زدت فوق ما كلفك من جنس ما كلفك ، والمقصود بقوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَ مِنِّي ﴾ القبول هو أخذ الشيء برضا لأنك قد تأخذ بكره أو تأخذ على مضض أما ﴿ فَتَقَبَّلَ مِنِّي ﴾ فذلك يعنى أن الأخذ بقبول ورضا ، واستجاب الله لهذا الدعاء ، قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَقْبُولُ حَسَنٍ ﴾ : الحسن هنا هو زيادة فى الرضا لأن كلمة : ﴿ يَقْبُولُ ﴾ تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة ﴿ حَسَنٍ ﴾ توضح أن هناك زيادة فى الرضا ، وذلك مما يدل أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا وبشيء حسن .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ هذا القول من امرأة عمران ، لأنها كانت قد قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ لخدمة البيت ، وقولها : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ ، تعنى أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت ، فلما جاء المولود : ﴿ أُنْثَىٰ ﴾ ففهمت أن ذلك لا يؤدى إلى الغرض المطلوب الذى أرادته ، وهو خدمة البيت فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ ، ولكن الحق يقول بعد ذلك : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ إن هذا القول يعنى أنها لا تعترض على قدر الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحصر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق .

الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَكَيْسَ الذَّكَرِ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ فهل هذا كلامها أم من كلام الله تعالى ؟ إما أنه كلام الله تعالى ، فكأنها لما قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَكَيْسَ الذَّكَرِ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ أى أنها قالت : يا رب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .



وقوله تعالى : ﴿ أَنْبَدَّتْ ﴾ أى : ابتعدت ، نبذت نفسها عن الناس وعن أهلها ، والإنسان يأنس بأهله ، ولكنها ابتعدت عن أهلها ، واتخذت من دونهم حجابًا أيضًا ، ولكن بعدها هذا لا يمنع أن يمر عليها أحد فى هذا المكان ، أى أرادت أن تعزل نفسها عن دنيا الناس وعن أنسابهم ، لأنها اكتفت بأنسها بالحق سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى شرقى بيتها ، أو شرقى البيت المقدس ، واختارت جهة المشرق ، لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس . إذن .. كانوا يتفاءلون بالنور حين يأتى من المشرق ، لذا اتخذت مريم مكانها ناحية المشرق .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ [ مريم : ١٧ ] الحجاب هو ما يجعله الإنسان حاجبًا له من غيره ، وحاجبًا لغيره عنه ، والحجاب مرة يكون مفردًا فهو ساتر فقط ، ومرة يكون مركبًا ، مثل الستائر التى نراها على النوافذ ، مرة تكون الستارة مفردة ، ومرة تكون مكونة من طبقتين حتى تحجب الضوء . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [ الإسراء : ٤٥ ] .

قال تعالى : ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ مع أن الحجاب يكون ساترًا ، ولكنه هنا مستور بحجاب آخر ، وقلنا مثلها الظل الظليل لأن الظل يحجب عنك الشمس ، ولكن لكى يحجب الظل عنك الشمس بأشعتها وحرارتها ، فلا بد أن يكون مركبًا ، أى أن الظل الذى يحجب عنك الشمس مظلل أيضًا فهو ظل ظليل ، أى : ظل مظلل .







ومعنى قوله تعالى : ﴿وَأَوَسَّيْنَاهُمَا إِلَيْنَا رَتَبَةً ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .  
أويناها : من الإيواء ، ومعناها أن إنسانًا اضطرته الظروف واحتاج إلى مكان  
يعيش فيه فدبر مكانًا آوى إليه .. ومريم فى هذه الحالة مضطرة ومضطهدة ،  
وكل الناس ينظرون إليها نظرات الاستغراب والشك ، فلا بد أن يهيبه الله لها  
مكانًا تأوى إليه . وهذا المكان لا بد أن تكون فيه مقومات الحياة .

قوله تعالى : ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أى : استقرار ، لأن مقومات الحياة  
فيها موجودة لا تنقطع .

وقوله تعالى : ﴿وَمَعِينٍ﴾ أى : ماء معين يرى بالعين .

يقول تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ  
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران : ٤٥] .  
كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم : هى قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ  
اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وفيها عرفت طلاقة قدرة  
الله سبحانه تعالى .

والمرحلة الثانية : فى معرفتها بحكاية زكريا ويحيى عليهما السلام ، وتأكيده  
الحق سبحانه أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وكان ذلك إيناسًا لها .

ثم تدخل مريم إلى مرحلة جديدة ، وهى قول الحق تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ  
الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ، والبشارة لا تكون إلا بخبر  
عظيم مفرح ، وقد يتساءل واحد : ماذا يقصد الحق بقوله : ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ؟  
والإجابة هى أن الحق سبحانه علمنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ  
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

نبي الله عيسى عليه السلام ٤٠٢









ومعنى ﴿سَوِيًّا﴾ يقال : فلان سوى التكوين إذا كانت أبعاض جسمه منسجمة مع بعضها ، وكلمة ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾ تعنى أن عندها أملاً ، فحتى إن لم يكن هذا الرجل تقياً فرحمة ربها تقيها منه .  
 فماذا قال لها ؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾  
 أى أنا لست قادماً من تلقاء نفسى ، ولكنى رسول من عند ربك إليك ، لم يقل رسول الله تعالى ؛ لأن الرب هو المتولى التربية ، والذى تولى تربية شىء يصونه عن أى إفساد ؛ ولأن الربوبية عطاء مادي ، أما الألوهية فعطاء معنوى للقيم والعبادة .

وكلمة ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ كان المفروض أن يفهم منها أنها هبة ، فليست مسألة أسباب ، ولكن الأمر هبة من عند الله ، كما كان يحيى عليه السلام هبة من الله للنبي زكريا ، لأن زكريا كان قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته كانت عاقراً لا تلد ، ولكن فى مسألة مريم هناك أنوثة فقط بدون ذكورة .  
 وقوله تعالى : ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ هناك ذكى من الذكاء ، وزكى أى : مطهر وصاف ونقى ، وحين قال لها الملك : ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ كانت الفطنة تقتضى معرفة أنه هبة ، وما دام هبة ، فلا تسألى عن الأسباب .  
 فماذا كان رد فعل السيدة مريم عليها السلام ؟ ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [ مريم : ٢٠ ] نحن نعرف أن التقاء الرجل بالمرأة له وسائل :

الأولى : شرعها الخالق سبحانه وهى الزواج الشرعى بأركانه المعروفة ، وهنا يكون اتصال الذكر بالأنثى حلالاً لأنها زوجته .

الثانية : الاتصال المحرم بين الرجل والمرأة وهو الزنا ، فإذا تم هذا الأمر بموافقة الأنثى فهو زنا ، وفيه حكم شرعى ، وإذا تم رغماً عنها فهو اغتصاب .





وقوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۗ ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۗ ﴾ [مرم] .  
 ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أى حملت به ، ﴿ فَانْتَبَدَّتْ ﴾ بعدت ، ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى بعيدًا لأنها شعرت بالحمل وخافت أن يطلع على سرها أحد ، وكلمة : ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أى جعلها تجيء ، لأن جاء معناها جاء من نفسه بمحض إرادته ، ولكن السيدة مريم دفعها المخاض إلى المجيء إلى جزع النخلة ، أى أتى بها المخاض إلى جذع النخلة ، ﴿ الْمَخَاضُ ﴾ : هو الرجوع الذى يصيب المرأة عند الولادة المباشرة ويسمونه « الطلق » ، فحين جاءها المخاض أتت إلى جذع النخلة ، لأن ألم الوضع يجعل صاحبه تمسك أى شىء حولها تستند إليه من شدة الألم ، فرما جاءت إلى جذع النخلة تستند إليه ، وفى الآية قوله تعالى : ﴿ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ولم يقل : جذع نخلة مما يدل على أنها كانت نخلة معروفة ، وجذع النخلة يطلق على الساق الذى يمتد من جذرها حتى الجريد<sup>(١)</sup> .

= وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت بذلك .

وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل ، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس ، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته ، فجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء وبعضه فى أرحام الأمهات ، فإذا اجتمع الماءان صار ولدا ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعًا فى مريم ، بعضه فى رحمها وبعضه فى صلبها ، فنفخ فيه جبريل لتهييج شهوتها ، لأن المرأة ما لم تهييج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل ، وقع الماء الذى فى صلبها على الماء الذى فى رحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ يعنى إذا أراد أن يخلق خلقًا ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .  
 (١) والجذع : أحد جذوع النخلة ، وقيل : هو ساق النخلة ، والجمع أجذاع وجذوع ، وقيل لا يبين لها جذع حتى يبين ساقها .  
 لسان العرب [٤٥/٨] .

لما حدث هذا الأمر لمريم ، وأصبحت المسألة حقيقة واقعة من حمل ومخاض وولادة ، حدث لها نوع من النزوع الانفعالي ؛ لأنها فى البداية استغربت الأمر ، وقالت كيف يكون لى غلام وأنا لم يمسنى بشر ولم أك بغيا ؟! وبعد ذلك حملت ، والحمل فى بطنها مستور ، ولكن عند الوضع سينكشف الأمر ، ويرى الناس الغلام وتواجهها المشاكل فهذا شىء صعب على النفس فى مثل هذا الموقف .

ولذلك تجد النزوع الانفعالى فى هذه الحالة فى قولها : ﴿ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ [ مريم : ٢٣ ] ، ﴿ يَلَيْتَنِي ﴾ هذا تمن ، إنها تتمنى أن تكون قد ماتت قبل أن يحدث هذا الأمر .

ومعنى : ﴿ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ النسى : هو الشىء التافه الذى لا يؤبه له وهو عادة ينسى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهَزَىٰ إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلْهُ وَأَشْرِيْ وَعَقْرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝١٦ ﴾ [ مريم ] .

والرطب هو التمر الناضج ، وكلمة : ﴿ جَنِيًّا ﴾ تعنى أنه استحق أن يجنى ، أى إنه نضج واستوى . إذن .. لا بد من التوكل على رب الأسباب ، والشاعر المسلم الحصيف صاغ هذا المعنى فقال :

ولا تزغبن بالعجز يوماً عن الطلب	توكل على الرحمن فى الأمر كله
وهزى إليك الجذع يساقط الرطب	ألم تر أن الله قال لمريم
بجنته ولكن كل رزق له سبب	ولو شاء أعطاها بغير هزة





مريم قومها حين جاءتهم تحمله !! أى بوجه الواثق من البراءة ، وأن الله لا يمكن أن يسلمها ، أو يخذلها ؛ ولذلك فالسيدة عائشة رضی الله تعالى عنها لما ظهرت براءتها وأنزل الله فيها قرآنا ، قالوا لها : قومي إلى النبي ﷺ فقالت : لا ، وإنما أحمد الله الذى برأني .

فكون مريم تأتي بوليدها إلى قومها فهذه دلالة على أنها واثقة أن الحجة ستوفىها بالوليد ، وإلا فكان المفروض أن تخجل وأن تتوارى من القوم حتى لا يروها ومعها الوليد ؛ لأنها واثقة من نصر الله ومعونته .

وكلمة : ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ ؛ الفرى للجلد : تقطيعه ، والأمر الفرى هو الذى يقطع عادة ألفها الناس ، أى لم يحدث مثله ، أو أنه من الفرية وهى تعتمد كذب ، وقولهم : ﴿ يَتَأَخَتَ هُرُونَ ﴾ : مبالغة فى التعبير ؛ لأنهم عرفوها عابدة قانئة فكيف يحدث منها ذلك ؟! فهذا تقريع لها ؛ لأن أباهم لم يكن رجلاً سيئاً ولا أمها أيضاً ، والسوء هو الرجل الذى إذا صحبتته نالك سوء من صحبتته ، فالأب كان مستقيماً ، والأم كذلك فمن أين جاء لك هذا ؟ وهذا يدل على أن خلق الأسر يؤثر فى الأبناء ؛ فحين ينشأ الابن فى بيت ملتزم ويجد نفسه محوطاً بالعناية والتوجيه السليم ينشأ مستقيماً ، فكأن القوم استغربوا أن يحدث هذا من مريم وهى العابدة القانئة التى جاءت من أبوين كريمين مستقيمين ، فكيف يحدث منها ذلك .

لما كثرت الأسئلة على السيدة مريم ، وكثر الاستنكار من القوم ، ماذا فعلت ؟ قال تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى : أشارت إلى وليدها ، فكأنها تقول لهم : اسألوه ! وهذا دليل على أنها عرفت أنه سيتكلم ؛ لأنه سبق أن كلمها قبل ذلك ، فاطمأنت على أن تحمله نبي الله عيسى عليه السلام



يقدر على هذا السبب كل طغيانكم وكل حقدكم ، فالطفل الذى تكلم فى المهد كان معجزة ألجمت أقوى الأقوياء فيكم .

وأنتم أيها النصارى - كتبة الأناجيل - لماذا لم تذكروا كلام عيسى عليه السلام فى المهد؟ وبينما القوم على هذه الحال ، من مفاجأتهم بما تحمل مريم ، ثم من استنكارهم الكلام مع طفل رضيع ، نطق عيسى عليه السلام قائلاً لهم : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَلْنِي الَّكْتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ ﴾ [ مريم ] .

فكانه يقول لهم : لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذى سأتكلم ، وأول شىء قاله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ واستهلاله كلامه بعبوديته لله تعالى ، دليل على أنه قد يقال إنه ليس عبداً وإنه إله أو شريك لله سبحانه وتعالى ، فأول كلمة نطق بها أنه عبد الله تعالى ، ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم فى المهد ، فإذا سألتهم ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يصمتون ولا ينطقون بما قاله أبداً ، لأن كلامه ينفى معتقدتهم . لم يقل : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ فقط ، ولكن أضاف شيئاً آخر فقال : ﴿ ءَاتَلْنِي الَّكْتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ولكن كيف يؤتیه الكتاب وهو ما زال طفلاً فى مهده ؟ قالوا : كان هذا أمراً ثابتاً ومفرغاً منه ، ومعنى ذلك أن هذا الوليد أهل لأن يتحمل أمانة السماء والأرض ، ولجعله نبياً ذا سلوك قويم ولا يمكن أن يكون كذلك وفيه أى مطعن ، وفوق ذلك : جعله مباركاً أينما كان ، فهذه الصفات هى أنه عبد الله ، أتاه الكتاب والكتاب لم يأت بعد ولكنه سينزل فى المستقبل ، وذلك لأن هذا الوليد يتكلم عن الحق سبحانه فلا بد أنه ملقن ، والذى يلقنه هو الذى سيؤتیه هذه الأشياء وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك قال أيضاً : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا نَبِيًّا ۝ ﴾

نبي الله عيسى عليه السلام ٤١٤

أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١﴾ ومعنى : « أوصاني بالصلاة والزكاة » أى أن الحق سبحانه وتعالى شرع له هذه العبادات والشرائع . ثم يقول تعالى : ﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَيْكَ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣﴾ [مرم] .

البر بالوالدين معروف ، فهو بار بوالدته ، بمعنى أنه حين يكبر ويعرف القصة أنه ولد من غير أب دون أن يمس أمه بشر ، فهذه الأحداث لا تسبب له أى ضيق ، أو غرابة لأنه هو نفسه الدليل على صدق هذه المعجزة ، والدليل لا يشكك فى المدلول ، أى إياكم أن تظنوا أنى سأكون عاقاً لوالدتى ، بل سأكون باراً بها عطوفاً عليها ، ومعنى ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أن الحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا لا بد أن يجعله لين الجانب ، لأنه سيأتى ، ليخرج الناس مما ألفوه من الفساد ، والذي يألف الفساد ، ويعايشه يكره من يريد أن يصلحه ، فيتعرض لعمليات استفزازية ، ومواقف عناد وسخرية واستهزاء ، فإن لم يكن لين الجانب ، واسع الصدر ، ليستميل الأذن لتسمع رسالته ، ستفشل مهمته ؛ ولذلك يقول الله تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضْنَاكَ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] . ومعنى ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١) ، أى : يوم ميلادى كان

(١) قال ابن كثير : قوله : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل ، وأنه مخلوق من خلق الله ؛ يحيى ويموت ويبعث كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما تكون على العباد . صلوات الله وسلامه عليه .

تفسير ابن كثير [٣/١١٧، ١١٨] .



الحق سبحانه وتعالى ، أو أن معنى ﴿ قَوْلِكَ الْحَقِّ ﴾ أى أنه ضد الباطل ، فالمعنيان متفقان : ﴿ قَوْلِكَ الْحَقِّ ﴾ أى : إنه قول الله سبحانه وتعالى ، أو أنه الحق الذى ضد الباطل ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى : يشكون فكأنه يخبرنا أنهم سيشكون فى هذا الكلام ويتقولون فيه الأفاويل<sup>(١)</sup> .

والمعنى : اتركوا هذه الأفاويل الباطلة وخذوا الكلام من الحق سبحانه ؛ لأن قول الحق هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكما قلنا كلمة ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى : الذى تقدم أمره من أول قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ إلى هنا . ثم ذكر قضية هامة جداً فقال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ولكن لماذا بدأ بموضوع الولد ؟ قالوا : لأن قضية الشريك تنفى بأولية العقل ؛ لأن الشريك لله ماذا يفعل معه ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّبَاحِ ﴾ [ آل عمران : ٤٦ ] .

قال تعالى : ﴿ أَنَّىٰ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّلْحِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [ آل عمران : ٤٩ ] .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ

(١) قال الشيخ السعدى فى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبْحانه إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ أى ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مرية .









أمام الإنسان ، لسلك الطريق الموصلة إلى الغاية ، وهكذا يقول لهم نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رِيبٌ وَرِيبُكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ [آل عمران : ٥١] .  
والعبادة هي إطاعة العبد لأمر المعبود<sup>(١)</sup> ، ولا تظن أن العبادة كما يريد خصوم الإسلام أن يضللوا الناس ، بأن الإسلام قد جاء فقط للصلاة والصوم والزكاة ، وأن يقتصر الإسلام على أركانه وداخل جدران المسجد فقط ، فينفصل الإنسان عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس ، حتى تقبل على العمل الخاص

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة : فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار ، واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء والشكر لنعمة ، والرضا بقضائه والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه وأمثاله ذلك هي من العبادة لله .

وذلك : أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له ، والتي خلق الخلق لها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وكذلك قال هود وصالح وشعيب ، وغيرهم لقومهم .

العبودية [٢٤٠، ٢٣٠] .

واعلم أن العبادة أربع قواعد هي : التحقق بما يحب الله ورسوله ويرضاه ، وقيام ذلك بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع ، فأصحاب العبادة حقاً هم أصحابها .

تجريد التوحيد للمقريزي [٨٢] .

بعمارة الدنيا فالإسلام منهج حياة متكامل ، وكل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعمارة الكون وفق منهج الله ، فهي عبادة والأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه ، فجعلوا بابًا للعبادات وبابًا للمعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شىء يأمر الله به فهو « عبادة » إلا أن العبادة أنواع فمنها ما يصل العابد بالمعبود جل جلاله ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون .

ولذلك قلنا : إن الله حينما يأمرنا بأمر ، فإننا نجد الأمر واضحًا ، مثال ذلك قول الحق : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الجمعة : ٩ ] .

إن هذا الأمر بالصلاة الجمعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، والأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ إنما يأخذ الإنسان من عمل هو البيع ، ولو نظرنا إلى دقة الأداء فى الأمر بترك البيع دون غيره لوجدنا أن فى البيع قمة الأخذ المباشر للرزق ؛ فلم يقل الله - مثلاً - : « اتركوا الصنعة واركوا الحرث » ، ولكن الحق سبحانه وتعالى جاء بالبيع هنا ؛ لأنه قمة النفعية العاجلة ؛ لأن الذى يحرث ويزرع ينتظر وقتًا حتى تظهر الثمار ، لكن الذى يبيع شيئًا فإنه ينال المنفعة فورًا ؛ لذلك جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ولذلك يتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التى هى أقل نفعية من البيع لأداء الصلاة .

إن أمر الحق سبحانه قد جاء هنا بترك البيع ؛ لأن للبيع نفعية مباشرة ، والبيع هو مبادلة السلع بأثمانها ، والسلع هى نهاية كل عمل ، فالذى يزرع أيضًا يرجو الثمار ؛ لبيعها لمن يزرع والذى يصنع إنما يرجو إتمام صنعته ؛ لبيعها لمن

يصنع ، وهكذا تكون السلع هي القمة من الأعمال ، ولذلك جاء الأمر الحق :  
﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ .

إن البيع هو التعبير الدقيق ؛ لأن المتكلم هو الله ، والحق سبحانه لم يتكلم هنا مثلاً عن الشراء ؛ لأن الشاري قد يشتري وهو كاره لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة ؛ لذلك يخرجنا الحق من قمة كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهي مبادلة السلع بأثمانها .

لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [ الجمعة : ١٠ ] .

لقد خرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغي من فضل الله ، ولذلك يكون الانتشار في الأرض ، والبحث عن الرزق عبادة .

ولننظر إلى الدقة في قول الحق : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، إن الانتشار يعني أن ينساح البشر ؛ لينتظموا في كل حركات الحياة ، فلا يقيمون المدارس بمفردها أو يقيمون ويعملون في المصانع وحدها ، إنما كل إنسان يذهب إلى عمله ، وبعد ذلك تعمر كل حركة في الحياة . إذن .. فكل حركة في الحياة هي عبادة .

هكذا نعرف العبادة ، وهكذا نستوعب قول الحق سبحانه وتعالى الذي أرسل به نبيه عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رِبِّيٌّ وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

ثم يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾ [ آل عمران : ٥٢ ] ، لقد حسم نبي الله عيسى عليه السلام أمر العقيدة حينما قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رِبِّيٌّ ﴾  
٤٢٣





إذن .. هناك نصر من المؤمن لربه ، وهناك نصر من الله للمؤمن ، وهكذا يكون سؤال ابن مريم عليهما السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ قد أفاد المعنيين .

وكانت الإجابة : ﴿ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّآ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] . و ﴿ الْخَوَارِثُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> مأخوذة من الحور وهو شدة البياض فى العين وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيم الإيمان ، فكأن وجوههم مشرقة بالنور ، ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه المؤمن يكون بإشراق الإيمان فى النفس ؛ ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد ﷺ فيقول : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكَعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

(١) قال القرطبي : والخواريون أصحاب عيسى عليه السلام وكانوا اثني عشرة رجلاً ؛ قاله الكلبي وأبوروق ؛ واختلف فى تسميتهم بذلك ، وقال ابن عباس : سموا بذلك لبياض ثيابهم وكانوا صيادين .

ابن أبى نجیح وابن أُرطاة : كانوا قصارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى لى أعمال شتى وآخر ما دفعته لى الخواريين وكانوا قصارين وصباعين ، فأراد معلم عيسى السفر فقال لعيسى عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فاصبغها . فطبخ عيسى حبا واحدا وأدخله جميع الثياب وقال : كوني بإذن الله على ما أريد منك ، فقدم الخوارى الثياب كلها فى الحب فلما رآها قال : قد أفسدتها ؛ فأخرج عيسى ثوباً أحمر وأصفر وأخضر لى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغه ، فعجب الخوارى وعلم أن ذلك من الله ودعى الناس لىه فأمنوا به . تفسير القرطبي [٩٧/٤-٩٨] .

نبى الله عيسى عليه السلام ٤٢٦



فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه .. ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ومكون من ذرات ، والأجهزة لكل منها مطلوبات ؛ وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد وحين تتجه كل الأجهزة إلى الله تعالى ملتزمة أمره ونهيه فإن الذى يحدث للإنسان هو إنسجام كل أجهزته وما دامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون الملامح مكفهرة .

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [ آل عمران : ٥٢ ] .

إذن .. فالخواريون قوم لهم إشارات انسجام النفس مع الإيمان أو هم قوم بيض القلوب ، معانيهم بيضاء ومشرقة ، ومنه كلمة « الحور » وهو شدة البياض فى العين ، والنبي ﷺ سُمى بعضًا من صحابته حواري رسول الله ، إنهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت (١) .

وحين قال الخواريون : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ إن الواحد منهم يريد نصرة الله فينضم إلى كل ناصر للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ، ونحن نعرف مقومات النصرة لله وهى الإيمان ، فما معنى الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا الإيمان فى عمومه ، ولو لم أكن مؤمنًا بأن الطريق الذى أسير فيه موصولًا إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه ، ومثال لذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط - مثلاً - لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، ولو لم أعتقد أننى إن لم أذاكر دروسى فسوف أرسب لما ذاكرت .

(١) أخرج البخارى [٣٧١٩] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، بلفظ : « إن لكل نبي حواريًا ، وإن حواري الزبير بن العوام » .

إذن .. فكل أمر في الدنيا يتم بنائه على الإيمان ، لكن إذا قصد بالإيمان المعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا وهي الإيمان بالله ولذلك فأسلحة الوصول إلى الله هي إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله .

ولذلك قال الحواريون : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ وماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض في الرسول أن يبلغ القوم بلاغاً عن الله فيشهد عليهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ آيَاتِكُمْ إِزْهِيمًا هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

ولنا أن نلاحظ أن الحواريين آمنوا أولاً ؛ لأنه أمر غيبي عقدي في القلب ، ثم من بعد ذلك أسلموا ؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه ؛ ولذلك فقولهم : ﴿ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ هو طلب منهم للرسول عيسى عليه السلام : أن بلغنا كل مطلوبات الإسلام وقل لنا « افعل ولا تفعل » ، إنهم قالوا : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بما بلغهم من الله ، والمطلوب من نبي الله عيسى عليه السلام أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام .

وقال من بعد ذلك : ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَسَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ ﴾ [ آل عمران : ٥٣ ] . وقد يكون إعلانهم الإيمان إيماناً برسالة سابقة ، ولكن لنا أن نعرف أن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء برسالة من الله ، ومعنى أن رسولاً يجيء أن هناك أمراً





إن ذلك خرق لنا موسى المادة ؛ لذلك أكد الحق القول في أكثر من موضع بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى عليه السلام لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له ، بل انحصر الأمر في هذه المسائل فقط ؛ ولذلك نجد أن كل خرق لنا موسى الغيب عند الأنبياء ، هذا الخرق إنما لتأييد النبي . وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة منه سبحانه على شيء جزئى ، فالحق سبحانه وتعالى هو مالك علم الغيب وحده : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [ الأنعام : ٥٩ ] .

والحق يسرى عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام بذكر هذه الآيات ، لكن الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا : إنها سحر . إن المبلغ عن الله لا يخشى إلا الله وهو يحب أن يؤمن معه كل الناس إلا أنهم جحدوا بها وكفروا وقالوا كما قص الحق سبحانه وتعالى في القرآن : ﴿ فَكَفَرُوا مِنَ اللَّهِ لَمَّا قَالَ لَنِفْتِمْ أَنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ المائدة : ١١٠ ] .

إن الحق سبحانه خلق الخلق ، وجعل الإيمان أمراً فطرياً فينا ، ثم تأتى الغفلة فتبعد جزئية ، وتأتى غفلة ثانية فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى بهتان ، وفي الحديث الذى رواه حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر ؛ حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الجمل كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه منتبهاً وليس فيه شيء - ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد

٤٣١

يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجده ! ما أعقله ! وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت ، لكن كان مسلماً ليردنه على دينه ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه وأن اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا» (١) .

لذلك فنحن نجد أن كل داع إلى الله يأتى إنما يريد إقامة منهج الله فى الأرض ؛ حتى لا يأتى الران على القلوب ، بسبب الغفلة التى حدثت بالبعد عن منهج الله ، وذلك ما يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم ونجد أن الداعى إلى الله الذى ليس له عدو يصيبه بالسوء هو داع حظه من منهج النبوة بعيد ، وميراثه من النبوة ليس بكثير !! والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام .. ماذا قالوا ؟ ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِتٌ ﴾ ومعنى ذلك أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحققتهم ، وملأت مشاعرهم بالخيبة ، لقد جاء مثل هذا القول من قوم يكرهون منهج الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة ، يدعم بها الحق الداعى إليه ؛ لأن مقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعمق التى يؤمن بها .

إذن .. فكلما رأينا داعياً إلى الله يقاومه الناس ويقذفونه بالسباب فهذا دليل على صدق الداعى ، ما دام متمسكاً بما يؤمن به .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْخَوَارِئُونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ١١٢] .

(١) أخرجه البخارى [٦٤٩٧] ، ومسلم [٢٣٠/١٤٣] واللفظ له .



والألف والذال - والمائدة تميد أى تطرب من كثرة ما عليها من أشياء أو هى تعطى مما عليها من أشياء ، وصارت هذه المائدة عيدًا أى يومًا يحب الناس أن يعود عليهم مثله ؛ لأنهم يسرون به ، فالعيد هو ما يعيد علينا بالخير وبما يسر ، وقد توقف العلماء عند قول الحق سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ .

وتساءلوا : كيف كان هذا القول ، وخصوصًا أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون !؟

وقال العلماء أيضًا : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصرًا باشتقاقات الألفاظ ، واستعمالات الألفاظ ، وسمات الألفاظ وكلمة : ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ تطلق ويراد منها الاستجابة وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب الله لإرسال مائدة لنا من السماء ؟ « واستطاعة » تقابل « استجابة » .

إن الحق سبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء وهو الذى يخضع لحكمه كل شىء ، والحق لا يطلب إنما يأمر : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [ يس : ٨٢ ] .

فكأن الحق عندما يقول : ﴿ كُنْ ﴾ فهو قد طلب من الشىء طوعًا أن يكون ، وعلى هذا فإن سؤالهم يكون كالاتى : هل يطلب ربك طوع الكون له !؟ فيستجيب لنا بإرسال مائدة تكون عيدًا ، ولنا أن نعلم أن قول الله : ﴿ كُنْ ﴾ لا يمكن أن يصدر إلا والحق يعلم أن المطلوب منه يجب أن يطيع الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون استعدادة الانفعالي أن يطيع على الفور أمر الخالق ؛ وحتى نعلم ذلك فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا أَلْمَأْأَ أَنْشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ۖ ﴾ [ الانشقاق ] . إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط ، وحين تسمع



الأمر فهي تنفعل ، ومعنى تنفعل أى : تطيع ، وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى .

وقوله الحق : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [ المائدة : ١١٣ ] .

لقد طلبوا مائدة من السماء وقدموا الرغبة فى الأكل والطعام على ضرورة التصديق الإيماني الجازم ، ولنا أن نرى اختلاف قولهم فى هذه المائدة عن قول عيسى ابن مريم عليه السلام لما سأله ربه هذه الآية ، فيقول تعالى فى ذلك : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [ المائدة : ١١٤ ] .

إن قول عيسى عليه السلام هو قول ممتلىء بكل المعانى القيمة ، إنه يطلب أن تكون المائدة عيداً يفرح به الأولون والآخرون ، وآية من الحق سبحانه وتعالى . ويعترف بفضل ربوبية الرزاق ، ويعترف بامتنان أن الحق سبحانه خير الرازقين<sup>(١)</sup> . والمقارنة بين الحوارين وقول عيسى عليه السلام تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله وهو عيسى عليه السلام ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عنه وهم الحواريون ، إن إيمان عيسى عليه السلام هو الإيمان القوى الناضج ،

---

(١) قال القاسمى : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ أى : يا الله المطلوب لكل مهم الجامع للكلمات ، الذى ربانا بها ، ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية ، وإظهار لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء : ﴿ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : التى فيها ما تعدنا من نعيم الجنة ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أى : يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ونسره به ، نحن الذين يدركونها . ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقون فى دينهم . و « العيد » مشتق من « العود » لعودة فى كل عام بالفرح والسرور . وكل ما عاود عليك فى وقت فهو عيد . تفسير القاسمى [ ٢٢١٦/٦ ] .

وإيمان الخواريين هو إيمان لا يرقى لإيمان عيسى عليه السلام ، ولقد كانت قوة إيمان عيسى عليه السلام نابعة من أنه يتلقى عن الله سبحانه وتعالى مباشرة . صحيح أن الخواريين آمنوا بالله عز وجل ، وتم ذلك بواسطة عبده ورسوله عيسى عليه السلام ؛ ولذلك يعلو الرسول عن المؤمنين ببلاغه ؛ ولذلك صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله سبحانه وتعالى وهو يدعو ربه إنه رسول مصطفى مجتبي ؛ لذلك وضع الأمور فى نصابها فيقول : ﴿ اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا ﴾ وكلمة ﴿ اَللّٰهُمَّ ﴾ فى الأصل هى « يا الله » وعندما كثر النداء بها حذفنا حرف النداء وعوضنا عنه بميم فى آخرها فصارت « اللهم » وكأن هذا اللفظ تنهياً به نفس الإنسان لمناجاة الله عز وجل فى تقديس وثقة فى أن الحق يستجيب لعبده ، وهو نداء يقوم على حب العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى واسطة حتى وإن كانت هذه الوسطة حرفاً من حروف النداء ولنا أن نلاحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلام الله بصفة الألوهية ؛ إنه كنى مرسل يعلم تجليات صفة الله عز وجل ، وهى تجليات عبادة من عابد إلى معبود ، أما تجليات كلمة « رب » فهى تجليات مربوب ورب ، إنه يعلم الفارق بين عطاء الألوهية للخلق وعطاء الربوبية .

إن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية ؛ التربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب والأقوات ، والرب هو رب كل شىء ، رب للمؤمن والكافر والرب يتولى تربية الكافر رغم إنكاره للألوهية إنه يرى الماديات التى تقيم حياته ؛ ولذلك نجد الحق يقول عن هؤلاء الكافرين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اَللّٰهُ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ [ لقمان : ٢٥ ] .

نبى الله عيسى عليه السلام

والمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضًا ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضافا إليه العطاء الذى لا ينفد . إنه يعطى المؤمن زمانًا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه . يأخذ به المؤمن يقين الإشراق ، والإقبال على العمل فى ضوء منهج الله ؛ ولذلك قال عيسى ابن مريم داعيًا الله جلّت صفاته وأسماءوه : **اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ** ❀ .

لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بنداء الألوهية أولاً ؛ معترفًا بالعبودية لله جل وعلا ملتزمًا بالتكليف القادم منه ، ثم جاء نداء الربوبية ؛ فيا من أنزلت علينا التكليف ، ويا من تتولى تربيتهنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بالعبودية ، وأخذ نداءه من زاوية القيم ثم الزاوية المادية وهى الرزق ، لقد قدم الحواريون بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام ، وقدم عيسى ابن مريم عليه السلام بصفة اختياره رسولًا ، القيم على الطعام ، صحيح أن الرزق يمس الأكل ولكن الرزق ليس كله أكلاً ، هو كل شىء يحتاج إليه ويتنفع به : فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والهداية رزق ، وكل شىء يتنفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره .

ويجب الحق دعاء عيسى ابن مريم : **❀ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَلْتُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ❀ [المائدة : ١١٥] .  
 وحين يقول الحق : **❀ إِنِّي** ❀ فهو يستخدم نون الأفراد ، ونعلم أن هناك أسلوبيين لحديث الحق سبحانه عن نفسه ، فحين يتحدث سبحانه عن وحدانيته يأتي بنون الأفراد فيقول : **❀ إِنِّي أَنَا اللَّهُ** ❀ [طه : ١٤] .

٤٣٧ **❀** نبي الله عيسى عليه السلام

وحين يتحدث سبحانه وتعالى عن سياق القدرة الشاملة العامة لكل صفات القدرة الشاملة يأتي بنون التعظيم فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ ﴾ [ الحجر : ٩ ] .

وهو سبحانه وتعالى أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : ﴿ إِنِّي مَزَّلْتُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [ المائدة : ١١٥ ] .

إن الحق سبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول إن فلاناً من الرسل أفضل من فلان (١) ؛ لأن الحق هو الأعلّم يرسله ، ولنا في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [ البقرة : ٢٨٥ ] الأمر باتباع الرسل .

(١) أخرج البخارى [٣٤١٤] واللفظ له ، ومسلم [٢٣٧٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : بينما يهودى يعرض سلعته أعطى بها شيئا كرهه ، فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فطمم وجهه وقال : تقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، والنبي ﷺ بين أظهرنا ؟ فذهب إليه فقال : أبا القاسم ، إن لى ذمة وعهدًا ، فما بال فلان لطم على وجهى ؟ فقال : « لم لطمت وجهه ١٩ » فذكره ، فغضب النبي ﷺ حتى رأى فى وجهه ثم قال : « لا تفضلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ أخرى فأكون أول من بعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور ، أم بعث قبلى » .

أخرجه البخارى [٣٤١٤] واللفظ له . ومسلم [٢٣٧٣] .

٤٣٨ 

---

 نبي الله عيسى عليه السلام





= إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حالة كحالة أهل الأرض فى الأكل والشرب والنوم والغائط والبول ونحو ذلك .

الوجه الثالث : قولهم أنه عنى بموته عن موت الناسوت كان ينبغى لهم أن يقولوا على أصلهم : عنى بتوفيته عن توفى الناسوت . وساء قبل : « موته أو توفيته » ، فليس هو شيئاً غير الناسوت ، فليس هناك شىء غيره لم يتوقف الله تعالى قال : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [ آل عمران : ٥٥ ] ، فالتوفى هو المرفوع إلى الله . وقولهم : « إن المرفوع هو اللاهوت » ، مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن ، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى . والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى وكذلك قوله فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ هو تكذيب لليهود فى قولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ واليهود يدعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا لله لاهوتا فى المسيح ، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصرى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ؛ بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ فأثبت رفع الذى قالوا إنهم قتلوه . وإنما هو الناسوت ، فعلم أنه هو الذى نفى عنه القتل وهو الذى رفع ، والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام فى القبر إما يوماً وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ معناه أن نفى قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم فى شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل ، إذ لا حجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصرى يقولون : إنه صلب ، فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود . وكان قد شبه عليهم المسيح بغيره كما دل عليه القرآن ، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم =

= بعض الناس : أنا أعرفه ، فعرفوه . وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علماً ؛ بل ظناً قول ضعيف .

الوجه الرابع : أنه قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ مُتَوَفِّيكَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته : « إني رافعك إلى » وكذلك قوله : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا ﴾ فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه . وإذا قالوا : « هو الكلمة » فهم مع ذلك أنه إله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ونحوهما مما هو كلام الله الذي قال فيه : ﴿ إِلَيْنَا يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [ فاطر : ١٠ ] .

بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين . ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس : قوله : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [ المائدة : ١١٧ ] دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح فإن قوله : ﴿ كُنْتُ أَنتَ ﴾ يدل على الحصر ، كقوله : ﴿ إِنْ كَانَتْ هَٰذِهِ حَقًّا ﴾ [ الأنفال : ٣٢ ] ونحو ذلك . فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيباً على أتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم ، المحصى أعمالهم ، والمجازى عليها ، والمسيح ليس برقيب ، فلا يطلع على أعمالهم ولا يحصيها ، ولا يجازيهم بها .

التفسير الكبير [٤/١٨٢:١٨٧] بتصرف .



## رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران : ٥٥] . إن عيسى عليه السلام أحس من بنى إسرائيل الكفر والتبعية ومؤامرة للقتل فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَوْمَ الْفَيْصَمَةِ ﴾ ، إنها أربعة مواقف أرادها الله لعيسى عليه السلام .

وكلمة : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع وتموت المعانى الأخرى فى اللفظ .

إن كلمة « التوفى » نفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظ وهو موضوع لِمعان متعددة منها :

١ - التوفى بمعنى النوم : لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، إن ﴿ يَتَوَفَّاكُم ﴾ هنا بمعنى : ينيمكم ، فالنوم معنى من معانى التوفى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ، أى : حين نومها .

٢ - أنت تقول لمن أقرضته مبلغا من المال ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه : لا بد أن استوفى مالى ، وعندما يعطيك كل مالك تقول له : استوفيتنى مالى تماما .

إذن .. توفيته بمعنى أخذته بتمامه أى استوفيته وقبضته .

إذن .. ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ تعنى مرة تمام الشيء ، كاستيفاء المال وتعنى مرة النوم ، أى إنه سبحانه يريد أن يقول أريدك تمامًا ، أى أن خلقي لا يقدر أن على هدم بنيتك « أى قتلك » لأنى طالبك إلى تمامًا .. ومعنى « تمامًا » أى أن الروح فى جسدي بكل مواصفاته .

﴿ وَرَأَيْكَ إِلَى ﴾ إن الواو لا تقتضى ترتيب الأحداث .. فعلى فرض أنك قد أخذت متوفيك أى ميمتك فهل معناه أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه ؟ لا . إذن .. لماذا جاءت متوفيك أولاً ؟

نقول لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة له من الموت ولكن عيسى سيموت قطعاً ، فالموت ضرب الازب ، ومسألة يمر بها كل البشر .

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » (١) . وكذلك قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » (٢) .

بعض الناس يشككون فى نزول عيسى مرة أخرى . نقول لهم : أقبلتم فى بداية عيسى أن يولد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إن الذى جعلكم تقبلون العجبية الأولى يهد لكم أن تقبلوا العجبية الثانية .

(١) أخرجه البخارى [٢٢٢٢] ، ومسلم [٢٤٢/١٥٥] ، والترمذى [٢٢٣٣] .

(٢) أخرجه مسلم [٢٤٦/١٥٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .







وينهى الحق وذلك بعلم يقينى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقينا ، واليقين هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفوا إلى الذهن ليناقدش من جديد أو يتغير .

والأصل فى ذلك أن رهطا من اليهود سبوا عيسى وأمه عليهما السلام فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنزير فأجمعوا على قتله فأخبره الله بأنه رافعه إلى السماء .

ثم تسلطوا على أصحاب عيسى بالقتل والصلب والحبس حتى بلغ أمرهم إلى صاحب الروم فقبل إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب عيسى بعد أن قتلوه وصلبوه فأرسل إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذى صلب عليه فعظمه صاحب الروم وجعلوا منه صلباناً فمن ثم عظم النصارى الصلبان ، ولذلك أخبر النبى ﷺ أن عيسى سينزل فى آخر الزمان ويكسر الصليب إبطالاً لما يدعونه من تعظيمه وإبطال دين النصارى .

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ، الذين ادعوا ألوهية عيسى أو أنه ابن الإله الخالق ، كان الواجب عليهم أن يعترضوا على مسألة الصلب هذه ، فكيف يقولون بألوهية أو بينوة ألوهية ثم يجيء أعداؤه فيقدرون عليه ويقتلوه ويصلبونه ؟ إنه بذلك يكون قد انقلب من قادر إلى مقدر عليه ، إنه بذلك يكون بشراً يقدر عليه غيره من البشر .

إذن .. فعندما يأتى الإسلام ويبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة . فهو يعين أتباع عيسى على تبرئته من القتل والصلب ، وكان يجب أن يتلقف أتباع عيسى عليه السلام قول الله عز وجل فى هذه القضية : ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ ﴾ ليؤمنوا به .

ويقول ربنا وهو أصدق القائلين : ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾  
فالنصارى الذين زعموا التبعية لعيسى عليه السلام يقولون بالرفع ، ولكن بعد  
الصلب ، ونحن - المسلمين - نقول بالرفع ولا نقول بالصلب ؛ ﴿ بَلْ رَفَعَهُ  
اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ .

والذين يقفون عند هذه المسألة يجب عليهم ألا يقفوا ؛ لأن قصة عيسى  
عليه السلام بدأها الله بمعجزة ، وهى أنه ولد من أم دون أب ، فإن كنتم قد  
صدقتم بالمعجزة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدقون بها فى مسألة الرفع ؟!  
وإذا كان فىنا نحن المسلمين من يقول : إن عيسى عليه السلام مات ولن  
ينزل .

نقول لهؤلاء : ماذا تقولون فى نبيكم محمد ﷺ ؟ أخرج به إلى السماء ؟  
سيقول المسلمون : نعم .

ونقول لهم : ألم يكن رسول الله ﷺ حيًا بقانون الأحياء ؟  
سيقولون : نعم كان حيًا بقانون الأحياء .

ونقول : وظل رسول الله ﷺ مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا .  
إذن .. فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى  
السماء وهو حى وما يزال حيا ، ثم ينزل إلى الأرض ، هذه المسألة  
ليست عجيبة والخلاف بين رفع عيسى عليه السلام وصعود محمد ﷺ  
بالمعراج ، هو خلاف فى المدة ، ولنا أن نعرف أن الخلاف فى المدة  
لا يقتضى خلافاً .

المهم أن صعد بحياته ونزل بحياته وظل فترة من الزمن بحياته .

إذن .. مسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية (١) .

ويقول الحق في هذه المسألة تأكيداً لهذه القضية ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [ النساء : ١٥٩ ] .

قد يقول السامع لهذه الآية : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ونقول : لا .. لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم وليس الإيمان المراد لله ، لقد آمنوا به إلهاً أو جزءاً من إله ، ولكن الله يريد أن يؤمنوا به على أنه بشر وأنه رسول وأنه عبد ، فإذا قال الحق : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [ النساء : ١٥٩ ] .

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ هذا لإبطال لما ادعوه من قتله وصلبه ، وهو حى فى السماء الثانية على ما صح عن الرسول ﷺ فى حديث المعراج (١) . وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله ؛ ليقتل الدجال وليملا الأرض عدلاً كما ملكت جوراً ، ويحيا فيها أربعين سنة ، ثم يموت كما تموت البشر .  
البحر المحيط [١٢٨/٤] .

---

(١) وهو حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن مالك بن صعصعة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى حديث الإسراء والمعراج : « ... فأتينا السماء الثانية ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ، قال : محمد ﷺ ، قيل : أأرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء . فأتيت على عيسى ويحيى ، فقالا : مرحباً بك من أخ ونبى ... » .  
أخرجه البخارى [٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧] واللفظ له ، ومسلم [١٦٤] ،  
وأحمد فى المسند [٢٠٨، ٢٠٧/٤] .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء





إن الضمير فى الآية قد يعود إلى كل كتابى قبل الموت<sup>(١)</sup> ، لأن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويحجب اليقين ، وغرور الحياة يدفع إلى ذلك ؛ فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق انتهى كل شىء ، وتستيقظ النفس البشرية على لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ، ويسقط غرور الحياة ويراجع الإنسان نفسه فى هذه اللحظة . ويقول الكتابى فى تلك اللحظة لنفسه : أنا اتبعت هوى نفسى فى أننى جعلت عيسى إلهًا ، ولكن هل ينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟ لا ، لا ينفع إيمان الإنسان جال موته ، فإنه فى تلك الساعة عاين كل شىء وكشف عنه الحجاب وعرف مقعده فى الجنة أو فى النار ، وحينئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قل ولا كسبت فى إيمانها خيرًا .

إن إيمان فرعون لحظة الغرق لم ينفعه وكذلك إيمان أى من أهل الكتاب قبل الموت . لقد قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا أَنَا مُنظَرُونَ ﴾ [ الأنعام : ١٥٨ ] .

(١) روى ابن حاتم بسنده [٦٢٤٨] عن ثابت البنانى قال : سمعت الحسن فى قوله : ﴿ وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال : النجاشى وأصحابه . وروى بسنده أيضًا [٦٢٤٧] عن الضحاك عن ابن عباس قوله : ﴿ وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ قال : اليهود خاصة .

وروى بسنده [٦٢٥٠] عن هارون الغنوى ، سمع عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال : لو أن يهوديًا وقع من حائط إلى الأرض لم يمت حتى يؤمن به يعنى : بعيسى عليه السلام .

إن قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ لا أحد من أهل الكتاب إلا وهو سيؤمن بعيسى قبل أن يموت عيسى أو قبل أن يموت الكتابي .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ . إن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصر نزوله في الدنيا <sup>(١)</sup> وسيرونه يصلح خلف واحد من أمة محمد ﷺ <sup>(٢)</sup> ، وبعد ذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير كما يشهد يوم القيامة على السابقين من أهل الكتاب الذي قالوا إنه إله أو ابن إله ، يحدث

(١) روى ابن أبي حاتم بسنده [٦٢٥٧] عن سعيد عن قتادة قوله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ يقول : يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالات ربه وأقر بالعبودية على نفسه .

ومنه قول الله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النحل : ٨٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النحل : ٨٩] .  
وقوله عز وجل : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى : بتكذيب من كذبه ، وتصديق من صدقه .

تفسير القرطبي [١٢/٦] .

(٢) عن أبي الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة .  
قال : فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم : تعال صل لنا . فيقول : لا . إن بعضكم على بعض أمراء . تكرمه الله هذه الأمة .

أخرجه مسلم [١٥٦] .

٤٥٣ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

ذلك في موقف مهيب يوم يجمع الله الناس للحساب ويستدعى عيسى عليه السلام للشهادة على قومه فيسأله : ﴿ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [ المائدة : ١١٦ ] .

سؤال واضح صريح محدد وعلى رؤس كل الخلائق في حضور أنبياء الله وملائكته .. فماذا يكون جواب نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [ المائدة : ١١٦ ] .

هكذا ستكون شهادة عيسى ابن مريم على من اتخذوه وأمه إلهين مع الله .  
قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۗ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۗ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يُنْبِئُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ ﴾ (١) [ مريم ] .

(١) قال ابن كثير : لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا فقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أي في قولكم هذا ﴿ شَيْئًا إِذَا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك : أي عظيمًا ، ويقال إذا بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضًا ثلاث لغات أشهرها الأولى .  
وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۗ ﴾ أن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ ﴾ أي : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظامًا للرب وإجلالًا لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيدِه وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفاء له بل هو الأحد الصمد :

= وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الذين قالوا هذا الكلام قالوه بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ؛ لأنه قبل ذلك لم يقل أحد هذا الكلام ، فما الذى زاد فى ملك الله بعد أن جاء الولد ؟! الشمس هى الشمس والنجوم هى النجوم ، والأرض هى الأرض ، والهواء هو الهواء . فالذى نظم هذا الكون منذ بدء الخليقة لا يحتاج إلى ولد يساعده فى هذا الأمر . إذن ... فموضوعية اتخاذ الولد عبث ؛ لأنه لم يزد شىء فى الملك على يد هذا الولد ، فلم تكن هناك صفة معطلة عند الحق سبحانه وتعالى ... ولما جاء الولد كمل الكون بهذه الصفة ، تعالى الله عن ذلك ، لأن الصفات الكمالية لله قبل أن يخلق أى شىء ، فهو خالق قبل أن يخلق ورازق قبل أن يرزق ، ومحيى قبل أن يحيى ومميت قبل أن يوجد من يموت فكل صفات الكمال موجودة قبل متعلقاتها ، فصفات الله أزلية .

قال تعالى فى سورة الكهف ردًا على افتراءهم : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ

مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ <sup>(١)</sup> [ الكهف : ٥٠ ] .

وهنا قال : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ

وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ ﴾ [ مريم ] .

= وقوله : ﴿ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أى لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفاء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له .

تفسير ابن كثير [١٣٥/٣، ١٣٦] بصرف .

(١) أخرج البخارى [٤٩٧٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال

تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما

تكذيبه إياى فقلوه : لن يعيدنى كما بدأتى : وليس أول الخلق بأهون على من

إعادته ، وأما شتمه إياى فقلوه : اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ،

ولم يكن لى كفؤًا أحد » .

٤٥٥ رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أى : فظيماً ومنكراً ومستبشعاً وما دام شيئاً منكراً فلا ينكره المكلفون من الإنس والجن فقط ولكن تنكره الأشياء التى لم تكلف من الجبال والسموات وغيرها ، ولذلك يقولون هذا أمر تهتز له السموات السبع .

ومعنى قوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ ﴾ أى تتشقق وتنفطر ولكنها لم تنفطر ؛ لأن الله تعالى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، فالحيثية فى انفطار السماء وانشقاق الأرض وخر الجبال : أنهم دعوا للرحمن ولدا ، ورد الحق سبحانه وتعالى على هذا الزعم بقوله : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ .

هذا شىء اسمه نفى الحديث وشفىء اسمه نفى ابتغاء الحديث ، فمعنى ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ . أى : أنه سبحانه لو أراد اتخاذ الولد فلن يمنعه أحد ، ولكنه لم يفعل ولم يرد ، وأنكر ذلك على من زعموه كذباً وزوراً فنفى الابتغاء يدل على أن الحدث إن أراده الله كان ، ولكن لا ينبغى له أن يتخذ ولداً ، لماذا ؟ لأن الولد حتى ولو كان ولداً باراً وطائعاً ، فالله تعالى غير محتاج له ؛ لأن الكل عبيده ولا يستطيع أحد أن يتمرد عليه ؛ لأنه قادر عليهم جميعاً ، فهم فى قبضته ورهن مشيئته .

ثم قال تعالى تأكيداً لذلك : ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [ مريم : ٩٣ ] .

فكل المخلوقات عابدة لله ، وحتى الذين كفروا لم يخرجوا عن أنهم عبيد لله لأن الإنسان فيه منطقة اختيار ، هذه المنطقة هى أن يفعل أو لا يفعل



والإنسان يحتاج إلى ولد يعطيه العزة والقوة ، وهو فى شبابه قوة بذاته وفى شيخوخته ضعيف بذاته قوى بأولاده ، ولذلك فهو يريد الولد ؛ ليكون له قوة عندما يضعف . والله سبحانه وتعالى هو القوى دائماً الذى لا يضعف أبداً ، وهو جل جلاله دائم القوة ، ولذلك فهو لا يحتاج إلى ولد .

إذن .. فكل الأسباب التى تجعل الإنسان يريد ولداً هى لاستكمال نقص : نقص فى العمر ؛ لأن الإنسان عمره محدود ، ونقص فى الملك ؛ لأن الإنسان يترك ما يملك عندما يبلغ الكبر يضعف ويصبح محتاجاً إلى من يعينه ويدافع عنه ، والله سبحانه وتعالى له الكمال كله منزّه عن هذا النقص .

ثم كيف يتخذ الله ولداً ؟ إذا كان قد خلقه فهو من خلق الله ، وإذا كان لم يخلقه ولكن الابن خلق نفسه فإنه لا يصبح ابناً ولكنه يصبح إلهاً ؛ لأنه خلق نفسه وأوجد نفسه ، ومن هنا يصبح هناك إلهان وليس إله واحد ، وأما أن يأتى الولد عن طريق أنثى ، إذن فهو ليس محتاجاً إلى أنثى ليخلق ولداً ؛ لأن طلاقة قدرته جل جلاله أوجدت آدم بدون ذكر أو أنثى وأوجدت حواء بدون أنثى . والأسباب مخلوقة لله سبحانه وتعالى ولذلك فإن طلاقة قدرة الخالق هى التى تحكمها ، فكيف نأتى ونجعل الأسباب تحكم خالقها ؟ وكيف نأتى إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى أنه يفعل ما يشاء ، وأنه يقول للشىء كن فيكون ، ثم نقيّد طلاقة القدرة بأنه يجب أن تكون هناك أنثى ليأتى الولد ، فكأننا ننقص من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى كونه .

ثم من أين جاءت هذه الأنثى ؟ إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها فهى من خلق الله سبحانه وتعالى ، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله ، وبذلك







النوم ولا يذهب إلى المدرسة يريد أن يحقق لنفسه نفعًا أيضًا ؛ بالأ يتعب نفسه فى شىء . إذن ... فكلاهما يريد نفعًا والذى تعب واستيقظ مبكرًا لم ينظر إلى النفع السريع ، ولكنه نظر إلى النفع المستقبلى بعد خمس أو ست سنوات يصبح إنسانًا له كيان فى المجتمع ، والذى نام كما يشتهى فلم يستيقظ مبكرًا ، وأمضى يومه يتسكع ؛ نظرًا إلى النفع العاجل فلم يتعب ، ولكنه أصبح صعلوكًا فى المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا لماذا اختاروا الكذب فىقول : ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ﴾

إذن ... فالذى حملهم على هذا الافتراء أنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطاتهم وبسيادتهم فى الحياة الدنيا ، ولذلك لم يقل الحق تبارك وتعالى متاع فقط بل ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ﴾ [يونس : ٧٠] وحدها ، وما دام المتاع فى الدنيا محدود القدرات ، فهم قد اختاروا عدم الفلاح ؛ لأنهم اشتروا الدنيا بمتاعها المحدود القليل ، وباعوا الآخرة بمتاعها الأبدى ، الذى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر<sup>(١)</sup> .

والذين يفترون على الله الكذب لا يظنون أنهم ملاقوه ولا أن هناك يومًا للبعث يحاسبون فيه ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم هى أن يأخذوا كل ما يستطيعون من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبكل الوسائل ؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك شىء بعد ذلك ، فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويخبرهم بالحقيقة : ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس : ٧٠] .

(١) أخرج البخارى [٧٤٩٨] ، ومسلم [٢٨٢٤] . عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى ﷺ قال : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٤٦١

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ  
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنُوْنٌ ﴾ [ البقرة : ١١٦ ] .

إن من ضعف البصيرة أن تتخيل أن الخلاق له ابن ، وقد بين الحق هذه  
القضية في سورة الكهف حين قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتٰبَ  
وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُٓ عِوَجًا ۝ قِيَمًا يَتَذَكَّرَ أَلْسِنًا شَدِيْدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ  
الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصَّٰلِحٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّا كُنْتُمْ فِيْهِ أَبَدًا ۝  
وَيُنذِرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ  
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُوْلُوْنَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾ [ الكهف ] .  
إن الحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون له ولد ، إنه منزه عن ذلك ،  
وكانت البداية هي أن المشركين من كفار مكة قد توهموا أن الملائكة  
بنات الله ، ومضوا يتصورون ذلك ، وكان ذلك قمة الشرك بالله ؛ لأن الحق  
سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخذ من الخلق أبناء أو بنات .

ثم جاء بعد ذلك مثل هذا الضلال في التصور من بعض اليهود فقالوا  
ما بينه لنا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصٰرَى  
الْمَسِيْحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيْنَ قَوْلَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ  
قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَرَأَيْتَ يُؤْفَكُوْنَ ﴾ [ التوبة : ٣٠ ] .

وعزير هو كاهن من نسل هارون ، وكان يكتب التوراة وعندما تصور اليهود  
أنه ابن الله خرجوا عن الوحدانية لله جل وعلا ، وابتدع البعض من أتباع  
المسيح أيضًا تصورًا بأن المسيح ابن الله ، وهذا قول لم يأت به كتاب أو رسول  
ولا حجة عليه ولا برهان ، فكيف يقع في ذلك أهل الكتاب الذين أنزلت  
إليهم كتب من السماء وجاءت إليهم رسل من الحق جل وعلا !؟ إن قول  
الحق عن ذاته : ﴿ سُبْحٰنَهُۥٓ ﴾ تعنى التنزيه المطلق عن ذلك ، فقال جل وعلا  
رفع عيسى عليه السلام إلى السماء



فكأن عدم اتخاذ الله سبحانه وتعالى ، ولدًا نعمة كبيرة يجب أن يحمد عليها (١) لأن سبحانه لو كان له ولد - وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - فخصه بالرعاية وترك بقية الخلق ، فكأن الحق يقول أنا ليس لى ولد حتى تكونوا كلكم سواء ، فالخلق كله سواسية عند الله ، وهذه نعمة للخلق جميعًا ، لأن رحمة الله وحنانه سيكونان لنا جميعًا ؛ كما أن اتخاذ الولد يجعل الوالد المذكورًا بعد موته ، والله تعالى منزه عن الموت ، فلا حاجة له فى ذلك تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ، بينما الإنسان عكس ذلك فهو يحب الذرية ، حتى يمتد ذكره بعد موته ويفرح بولده ؛ لأنه سيخلفه ويحمل اسمه كما يفرح بحفيده لهذا السبب أيضًا ، ولأن الأبناء عزوة وقوة وزينة الحياة الدنيا لكن الله هو القهار ، وهو الجبار ، وهو القوى ، فهو سبحانه منزه عن الصاحبة والولد . وأنت إذا نظرت فى الكون وجدت أن الفساد يأتي إما من الصاحبة ، وإما من الولد ، كذلك لو كان لله شريك فى الملك فمن فيهما الذى ترضيه ؟ ومن الذى تعبه ؟ وكيف يسير الكون ؟ إنها عملية غير مقبولة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر : ٢٩] .

فهذا عبد مملوك لعدد من الأسياد المختلفين ، لهذا يأمره أحدهم بشيء والآخر يأمره بعكسه فلا بد أنه سيتعب جدًا ، ولكن العبد الآخر له سيد واحد

(١) عن يعلى العامرى أنه جاء حسن وحسين رضى الله تعالى عنهما يستبقان إلى رسول

الله ﷺ وضمهما إليه ، وقال : « إن الولد مبخله مجبته ... » الحديث .

رواه أحمد فى المسند [١٧٢/٤] ، وابن ماجه [٣٦٦٦] ، وصححه الألبانى فى

صحيح ابن ماجه [٢٩٥٧] ، وأخرجه الحاكم فى المستدرک [١٦٤/٣] وزاد :

« محزنه » . وصححه ، ووافقه الذهبى .



قد يقول قائل : لماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ للإجابة عن ذلك علينا أن نتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ .  
 فيجب أن نعرف أن لكل حدث زماناً ومكاناً ، وزمان هذا الحدث يوم القيامة ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر .

والحق سبحانه عندما يذكر عيسى عليه السلام فى أى موضع فإنه ينسبه لأمه : ﴿ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجمله ، فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلاناً أمس ؟ وإما ليقر المسئول بما يعلمه السائل . ومثال ذلك أن يسأل الأستاذ التلميذ ليقر بما يعلمه .

وكذلك يكون سؤال الله لعيسى عليه السلام . إنه لتقريع من قالوا عن عيسى عليه السلام ما لم يبلغهم إياه . إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم عليه السلام إنما بلغ ما أوحى له به ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى عليه السلام ردّاً على هذه الافتراءات من الأتباع : ﴿ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيٓ بِحَقِّ ۗ ﴾ .  
 وحين نسمع ﴿ سُبْحٰنَكَ ﴾ لنعرف أنها إجمال التنزيه لله عز وجل وخالقه وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه . إنه عليه السلام يعلم أن الرسول المصطفى من الله سبحانه ليس له أن يقول : إنه إله ، وفى هذا القول تقريع لمن أدعى على عيسى عليه السلام مثل هذا القول ورد عيسى عليه السلام على ذلك بقضيه متفق عليها فقال لربه : ﴿ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ [ المائدة : ١١٦ ] .





ويقول الحق تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] .  
 إن عيسى عليه السلام يقرر أنه لم يبلغ قومه إلا ما أمره الله ببلاغه ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله كرب له ورب لهم جميعًا ، وعيسى شاهد عليهم في تصرفاتهم وهو موجود بينهم ، والشهيد كما نعلم هو الذي يشهد السلوك ولا يقدر أن يمنع الناس المشهود عليهم عن فعل ما يفعلونه .

وبعد أن يتوفاه الله يكون الحق سبحانه وتعالى وهو الرقيب عليهم ، والرقيب الشاهد الذي يقدر أن يمنع الحدث ، والحق رقيب ويقدر أن يمنع الناس عما ارتكبوا من المخالفات ، كأن يبعث لهم من يذكرهم ، ليهديهم أو يكف أيديهم ، وهكذا نعرف أن هناك فرقًا بين مشهدية الخلق ورقابة الحق ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

= ﴿ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي . فكيف بما أعلنه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ بيان للواقع ، وإظهار لقصوره ، أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك . أفاده أبو السعود ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴾ .  
 تفسير القاسمي [٢٢٢٢/٦] .

(١) قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ يعنى فى الدنيا بالتوحيد . ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ « أن » لا موضع لها من الإعراب وهى مفسرة مثل : ﴿ وَأَنْطَلِقَ الْأَمَلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا ﴾ [ ص : ٦ ] . =

إنه لا يترك المسألة لشهادة الخلق فقط ، ولكن لرقابته أيضًا ، ويؤكد ذلك بتذييل الآية ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

إن الحق الذي يشهد يقدر أن يفعل ما يريد ، ومسألة الرفع كما نعلم هي الأخذ كاملاً دون نقص في البنية بالقتل أو الموت . ونحن المسلمين نعرف أن الحق رفع محمدًا صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السماوات وعاد

= ويجوز أن تكون في موضع نصب ، أى ما ذكرت لهم إلا عبادة الله ، ويجوز أن تكون في موضع خفض ؛ أى بأن اعبدوا الله ؛ وضم النون أولى ؛ لأنهم يستقلون كسرة بعدها ضمة ، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى حفيظًا بما أمرتهم ﴿ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ « ما » فى موضع نصب أى وقت دوامى فيهم ، ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه ؛ وليس بشيء ؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه ، وأنه فى السماء حى ، وأنه ينزل ويقتل الدجال وإنما المعنى فلما رفعتنى إلى السماء .

قال الحسن : الوفاة فى كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه : وفاة الموت : وذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] .  
يعنى وقت انقضاء أجلها .

ووفاة النوم : قال تعالى : ﴿ يَلْعَبُونَ لِيَٰئِمَّاتٍ مِّنْ نَّبَاتٍ لَّىٰ مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : ٥٥] وقوله : ﴿ كُنْتَ أَنْتَ ﴾ أنت هنا توكيد ﴿ الرَّقِيبِ ﴾ خبر ﴿ كُنْتَ ﴾ ومعناه الحافظ عليهم ، والعالم بهم والشاهد على أفعالهم ؛ وأصله المراقبة أى المراقبة ؛ ومنه المراقبة لأنها فى موضع الرقيب من علو المكان ، ﴿ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى من مقاتلى ومقاتلهم . وقيل : على من عصى وأطاع .

تفسير القرطبي [٣٧٧، ٣٧٦/٦] .

إلينا مرة أخرى ؛ ليكمل رسالته ، فنحن نصدق أمر رفع عيسى وأنه سوف يعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ .

إن أمر الرفع في الإسلام مقبول ؛ فقد رفع الله رسول الله ﷺ ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار الحوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وفرض الحق الصلاة على المسلمين في تلك الرحلة . وهكذا تعرف أن مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء أمر وارد ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ . إن الحق سبحانه أراد بالقرآن رحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام . فإن الله يأتي به في أسلوب لا يسبب الفتنة ، فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد علينا حكماً ولن ينقض حكماً .

وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة : ﴿ تَوَقَّيْنِي ﴾ فنجد أن الوفاة تعنى : « إمامة » والحق يقول : ﴿ وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴾ [ الأنعام : ٦١ ] .

أى : أماته . والحق تعالى يقول : ﴿ قُلْ يَنفُوكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [ السجدة : ١١ ] .

والله سبحانه وتعالى يقول أيضاً : ﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ الزمر : ٤٢ ] .

إنه يسمى النوم : وفاة ، وسماه موتاً ، وهو أمر فيه قبض ، ومعنى الموت فى بعض مظاهره : غياب حس الحياة ، والذي ينام إنما يغيب عن حس الحياة .

إذن .. فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم ، ويقال أيضًا عن الدين :  
توفيت ديني عند فلان : أى اخذت ديني كاملاً غير منقوص ، وكذلك أمر  
قتل المسيح قال فيه الحق تعالى القول الفصل : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن  
شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ .

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضًا ، فقد قال الحق : ﴿ أَفَأَيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ .  
إن الموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث  
إتلاف فى البنية فتذهب الروح . وقد قال المسيح ابن مريم كما بين لنا ربنا : ﴿ فَلَمَّا  
قَوَّيْتَنِي ﴾ أى أخذتنى كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة تنقض الرفع ، ونعلم  
أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم وبين الحق سبحانه يوم  
المشهد الأعظم . وعيسى ابن مريم عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد  
شاهد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فإن  
الرقابة على القوم تكون لله . ولقد قسم المسألة بينه وبين ربه فالحق سبحانه  
شاهد دائماً وراقب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله  
القادر وحده على أن يشهد ويغير فسبحانه الذى يغير ولا يتغير .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ  
وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا  
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [ النساء : ١٥٥ ] .

لقد نقضوا كل المواثيق ، ونقض الميثاق هو حله ؛ لقد كفروا بآيات الله وقتلوا  
أنبياء الله بغير حق ، وادعوا أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية .  
إذن ... قدم الحق سبحانه وتعالى حيثيات ، وهذه الحيثيات هى :  
أولا : نقضوا الميثاق ، وذلك يستوجب ما يتوعدهم الله به .



إذن .. الختم جاء كنتيجة للكفر والآيتان قدمتا الحيثية ، وهى أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وكذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

إذن ... فالكفر هو الذى أتى أولاً ، ولذلك فالرد على أى إنسان يقول : إن الله لا يهدينى ، هو أن الله لا يهدى من كفر به ، فإن كفر الإنسان مانع لهديته .

وبعد ذلك يذكر الحق جريمة أخرى من جرائمهم يقول تعالى : ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [ النساء : ١٥٦ ] .

إن الحق قد ساوى بين قولهم البهتان<sup>(١)</sup> على مريم وبين كل الأفعال السابقة لماذا ؟ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة نبي من أولى العزم من الرسل إنه نبي خصه الله بأشياء ، وهذه الأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه ، إنه عيسى ابن مريم عليه السلام الذى خلقه الله خلقاً خاصاً ، فالله

---

(١) قال ابن كثير : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أنهم رموها بالزنا ، وكذلك قال السدى وجوير ومحمد بن إسحاق وغير واحد ، وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظام فجعلوها زانية ، وقد حملت بولدها من ذلك .

ابن كثير [ ٥٤٣/١ ] .

وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول ، فقد اغتبتة ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

أخرجه مسلم [ ٢٥٨٩/٢٠ ] ، والنسائى فى الكبرى [ ١١٥١٨ ] .

تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه من روحه ، فجاء من غير أصول ، ولا أب ولا أم ، وخلق حواء من أصل واحد هو آدم عليه السلام ، بدون أم ، وخلق البشر وجعل نسلهم من سلالة من ماء مهين ، أما عيسى عليه السلام ، فقد خلقه الله ، فجاء من أم بدون أب ، فكيف تكفرون به !!؟ وأيضًا أمه مريم البتول عليهما السلام ، التي عاشت في كفالة نبي الله زكريا عليه السلام وكانت خادمة بيت المقدس ، وتربت تربيته دينية عظيمة ، كيف تتهمونها بالفاحشة !!؟ إن هذا الاتهام الباطل من أعظم البهتان . إن الحق سبحانه هنا يحدد سبيلين لكفرهم .

الأول : قولهم البهتان على مريم ، وهو كفر بالله .

الثاني : كفرهم بعيسى عليه السلام ، الذى ولد بغير طريقة الميلاد العادية ؛ رغم أن هذا تكريم له ، وتقريع لليهود الذين غرقوا فى المادية ، حتى إنهم قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ .

وعندما رزقهم الله برزق غيبى لا يعرفون أسبابه ، كما رزقهم بالمن والسلوى ، ع نباتًا لينمو من الأرض ولا ننتظر

ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ

، الْأَرْضَ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُؤْمِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصْبَلَهَا قَالَ

أَشْتَبِدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [ البقرة : ٦١ ] إنهم لا يثقون بما

فى يد الله ويريدون الأمر المادى .

لذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى بلفته قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ، وهو ميلاد عيسى عليه السلام ؛ إن البشر فى مجيئهم المادى إلى الدنيا يأتى الواحد منهم من أب وأم ، ولكن الحق سبحانه وتعالى فى خلق



عيسى عليه السلام جاء به من أم دون أب ، وبذلك أنتقضت المادية ، ذلك أنهم ماديون ، وغفلوا عن الخلق الأول .

إذن ... فلماذا الفتنة في عيسى عليه السلام ؟ لقد صنع ميلاد عيسى ابن مريم هزة لليهود الماديين ، ونقض أمامهم الأساس التقليدي لمجىء الإنسان إلى الدنيا بأصل واحد وهو الأم فالله سبحانه وتعالى يثبت بذلك طلاقة القدرة ، الحق سبحانه وتعالى إنما جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر شيئاً فعليهم أن يأخذوا بالأسباب ، ولكنه سبحانه وتعالى حين يريد شيئاً فإنه يكون بلا أسباب فهو سبحانه الذى خلق كل الأسباب .

ولذلك قلنا قديماً : إن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء :

إما أن ينشأ الشيء من وجود الشئيين ، هذه هي الصورة الأولى .

وإما أن ينشأ الشيء من غير وجود الشئيين ، وهذه هي الصورة الثانية .

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول ، وعدم وجود الشيء الثانى

وهذه هي الصورة الثالثة .

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثانى وعدم وجود الشيء الأول

وهذه هي الصورة الرابعة .

تلك هي الصور الأربع لوجود شيء ما ، ولم يشأ الله أن يجعل الخلق وهو

الإنسان المكرم الذى سخر له الحق كل الكون على نحو واحد ، لماذا ؟ حتى

لايقولن أحد أن السببية مشروطة الوجود ، ولكن لنعرف أن إرادة الله هي

الشرط في الوجود بدليل أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من غير أب ،

ولا أم ، وخلقنا نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون

أب ، وخلق حواء من أب دون أم ، هذه هي القسمة العقلية الواضحة ،

فليست المسألة توفر الأسباب للوجود ، ولكن المسألة إرادة الخالق جل وعلا .  
ونحن نرى أيضًا قدرة الحق حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم ،  
ولكن يشاء الحق أن يكون الاثنان عقيمين .

وذلك قول الحق سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿١٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا  
وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [ الشورى ] .

إذن .. فليست المسألة مدار أسباب توجد ؛ بل مسبب يريد أن يوجد ،  
ولقد أراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ؛ ليلفت بنى  
إسرائيل لعلهم يخرجون من ماديتهم ، ويثبت لهم طلاقة قدرته . ولكن اليهود  
استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير ما كان يجب عليهم .



## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة .....
٩	نبى الله آدم عليه السلام .....
١٧	خلق البشرية مع آدم .....
١٩	جنة آدم .....
٢٠	التكليف .....
٢١	غواية الشيطان .....
٢٣	كفر إبليس .....
٢٤	مكان جنة آدم .....
٢٥	توبة آدم .....
٢٧	مداخل الشيطان .....
٢٩	قربان إبني آدم .....
٣٠	نبى الله أدريس عليه السلام .....
٣٢	نبى الله نوح عليه السلام .....
٤٧	سفينة النجاة .....
٥٠	الطوفان .. دعوة نوح على قومه .....
٥٣	لا عاصم من أمر الله .....
٥٥	بُعْدًا للقوم الظالمين .....
٥٧	امرأة نوح .....
٥٨	نحن ذرية من كانوا مع نوح .....
٦٠	نبى الله هود عليه السلام .....
٦٧	دعوة هود .....
٧١	عذاب قوم هود .....

الصفحة	الموضوع
٧٣	نبي الله صالح عليه السلام .....
٧٧	ناقة صالح .....
٨٢	نبي الله إبراهيم عليه السلام .....
١٠٠	نبي الله إسماعيل عليه السلام .....
١٠٣	الذبيح .. هو إسماعيل عليه السلام .....
١٠٩	نبي الله لوط عليه السلام .....
١١٧	نبي الله إسحاق عليه السلام .....
١٢٤	نبي الله شعيب عليه السلام .....
١٣٦	نبي الله يعقوب عليه السلام .....
١٤١	أيوب عليه السلام .....
١٤٥	نبي الله يوسف عليه السلام .....
١٥٥	الله ينجي يوسف .....
١٧٥	اعتراف النسوة ببراءة يوسف .....
١٩٣	نبي الله أيوب عليه السلام .....
١٩٥	نبي الله ذى الكفل عليه السلام .....
١٩٧	نبي الله يونس عليه السلام .....
٢٠٠	نبي الله موسى عليه السلام .....
٢٩٦	موسى عليه السلام .. وقارون .....
٣٠٩	نبي الله يوشع عليه السلام .....
٣٢٣	نبي الله إلياس عليه السلام .....
٣٢٦	نبي الله حزقييل عليه السلام .....
٣٣٠	نبي الله اليسع عليه السلام .....
٣٣١	نبي الله شمويل عليه السلام .....
٣٣٤	نبي الله إشعيا بن أمصيا .....

٣٣٦	.....	أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب
٣٣٧	.....	نبي الله دانيال عليه السلام
٣٤١	.....	نبي الله العزيز عليه السلام
٣٤٦	.....	نبي الله داود عليه السلام
٣٥٤	.....	نبي الله سليمان عليه السلام
٣٥٧	.....	فتنة سليمان عليه السلام
٣٦٦	.....	من نعم الله على سليمان عليه السلام
٣٨٢	.....	نبي الله زكريا ويحيى عليهما السلام
٣٩٣	.....	نبي الله عيسى عليه السلام
٤٤٣	.....	رفع عيسى عليه السلام إلى السماء
٤٦٨	.....	الفهرست

رقم الإيداع ٩٩/١٨٢٤١

الترقيم الدولي

I.S.B.N.

977-08-0900-4



٢٥١  
مطبع القاهرة  
١٨١